

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذين معه

0114759



Bibliotheca Alexandrina

السيرة

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الوهاب

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

الحجيرة

عبد محمد حمادة السخار

بسم الله الرحمن الرحيم

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِ
قَاتِلُوا وَقَتْلُوا لَئِكْفُرْنَ عَنْهُمْ وَيَدْخُلُوهُمْ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ .

(قرآن کریم)

تألم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألماً شديداً في عام الحزن ، فبعد عشر سنوات من دعوته مات عمه أبو طالب الذي كان يمنع أدى قریش عنه قبل أن يصبح له أنصار أقوياء يمنعون ويقيمون معه يقاومون طغيان الكافرين . ويعملون جاهدين على نشر أنوار اليقين في قلوب الناس الراغبين في جوهر الحقيقة . عشر سنوات مضت في جهاد كانت كفيلة بانتشار الإسلام لولا عناد وجوه قریش الذين ناصبوه العداوة وآدوه وفضوا الناس عنه . خشية أن تتفتح أفئدتهم للحكمة التي تنزل عليهم من وراء السماوات من لدن عليم خبير .

حزن الرسول عليه السلام لموت شيخ الهاشميين الحبيب . وزاد في حزنه أن الله قد نهاه عن أن يستغفر للشيخ الذي شب في كنفه وحماه بعد أن أرسل وقال له : « اذهب يا ابن أخي وقل ما أحببت » . ولم يكتف بتأييده ونصره وإن لم يؤمن بما جاء به . بل رحب بإسلام بنيه وقال لهم إن الأمين لم يدعهم إلا إلى خير . ولولا إيمانه الذي استبد به بأن الله أجل من أن يبعث بشراً رسولا لكان من السابقين .

كان ذهاب أبي طالب واختفاؤه من حياة الرسول خسارة فادحة حزت في نفسه عليه السلام ، وقبل أن يعزل إلى أغوار النكبة إذا بخديجة أم المؤمنين التي صدقته عندما كذبه الناس . وآزرته وكانت

له وزير صدق على الدوام ، تموت بعد موت أبى طالب بثلاثة أيام ، فكادت نفسه أن تذهب شعاعا . فالطاهرة كانت قبل البعثة خير معين له على أن ينقطع للعبادة والتحنث والنظر إلى وجه الله ، وما كانت تضيق بحبه العزلة ، بل كانت تبارك فيه حب النزوع إلى ملكوت السماء ومحاولة الاتصال بالخير الأسمى وكمال الكمال . وكانت بعد الرسالة نبض الإسلام وحاضنة الدعوة والبلسم الشافي لكل الجراح ، فما عاد إليها باسر الوجه مثقلا بالهموم والأحزان إلا أقبلت عليه تشجعه وتواسيه ولا تقوم عنه حتى تمسح عن قلبه الكبير الأوصاب ، ويفتر ثغره الجميل بالابتسام ، ويتألق في عينيه الدعجاوين الأسرتين العزم والتصميم على احتمال كل الآلام في سبيل الله ، حتى يؤدى الأمانة ويبلغ ما أنزل إليه من ربه .

خمس وعشرون سنة مرت منذ تزوج سيدة نساء قريش شاركتة فيها آماله وآلامه ، مسراته وأحزانه ، وقد وقفت إلى جواره في أحسم لحظة في تاريخ البشرية ، يوم أن جاءها من غار حراء بقص عليها وهو يرتجف من الخوف نباؤ نزول الملك عليه من السماء ليقول له : اقرأ . لقد صدقته ، ولو أنها خالجهأ أدنى شك في صدقه لرادته رهقا في الوقت الذى كان فيه في أشد الحاجة إلى من يثبت فؤاده ويذهب عنه روعه ، ولزعزعت إيمانه بنفسه وتصديق ما أنزل إليه ، ولا جرم فقد كان يحسب أن به كهانة أو جنونا . ولكن الله اصطفاها وأعدها لتكون نعم العون لزوجها الذى سيكلف بأروع رسالة لا يقدر على النهوض بها إلا أولو العزم من الرسل . كانت رحمة وأمنا وسلاما وملاذا وقوة دافقة مفجرة لطاقة

غنية غزيرة غرسها الله من فيض كرمه في نفس رسوله . وكان بيدها الحانية مفاتيح كنوز قلبه . ولما كانت غنية بأنبال العواطف ، خيرة زادها إيمانها بالله ورسوله خيرا على خير ، فقد كانت تثرى خزائن رحمته بما ملأ الله قلبها من كنوز بره ، فكانت الرحمة تتدفق من بيت النبوة تغمر المصدقين والمكذبين : فعلى الرغم من قوة محمد عليه السلام الخارقة فإنه لم يلجأ إليها أبدا ليدفع عن نفسه الأذى أو يرد كيد المعتدين . وكان غاية ما يفعله أن يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

كانت عين الجود ، جادت براحتها في سبيل تهيئة كل سبل الراحة ليتدبر زوجها ويتفكر ويتأمل ويدوب في روح الوجود ، وجادت بأموالها لوجه ربها الكريم ، وتحملت الألم والعذاب والاضطهاد والتشريد والجوع في شعب أي طالب في سبيل الحق حتى جادت بروحها راضية مرضية . قد أذلت الدنيا بادبارها عنها وأعزت الآخرة بأقبالها عليها ، وبكتها أعز الدموع التي ذرفت في البشرية ، ولا غرو فقد بكاهها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وصحبه بالدمع الهتون .

للك الله يا خديجة . يا طاهرة . يا سيدة نساء قریش . يا حاضنة الإسلام ، يا أم المؤمنين ، يا حبيبة الرسول ، يا من لم يستقر له مقام في داره من بعدك . فقد هجره من لوعة الأسى لبيت في دار أم هانئ بنت عمه أي طالب . أو في الحجر في الحرم في حراسة المطعم بن عدى وآله . أو في أي دار من دور بني هاشم في شعب أي طالب . فغيابك عن الدار شيء موجه أليم لقلب مرهف رحيم .

ونال كفار مكة من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما لم يكونوا ينالونه أيام أن كان عمه أبو طالب يحميه . وقد بلغ بهم الصلف أن خيروه بين إهدار دمه أو الطرد من مكة . فخرج عليه السلام ومعه غلامه زيد بن حارثة إلى الطائف وهو يرجو أن يجد في تقيف رجالا يؤمنون به وبرسالته ويمنعونه حتى يبلغ رسالات ربه . ولكن ما ناله من أذى في الطائف كان قمة مأساة عام الحزن . فسادات تقيف لم يكتفوا بأن أعرضوا عنه بعد أن سخروا منه ، بل أجلسوا سفهاءهم على جانبي الطريق يضربون رجله بالحجارة حتى تدمى . فإذا ما أجهد من العذاب وانهار على الأرض ليلتقط أنفاسه هرعوا إليه ورفعوه من تحت إبطيه ودفعوه في الطريق . ليستأنفوا رضح رجله بالحجارة . إنه يستشعر آلاما حادة تخز روحه كلما تذكر ذلك المشهد الرهيب . ويزيد في عذابه أنه لم يستطع أن يعود إلى مكة قبل أن يجيره المطعم بن عدي . ترى ماذا كان يفعل لو أن المطعم أبى أن يجيره كما أبى الأخنس وسهيل بن عمرو؟ كان عام الحزن مفعما بالأسى . قاسى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمسلمون الأحزان الثقيلة التي توالى وتعاقبت حتى لقد بدا أن الإسلام يواجه محنة . ولم يكن في هذه السنة القاسية إلا تسرية واحدة خففت بعض الشيء من لوعة الشجن . فان الله سبحانه وتعالى أخبر عبده ورسوله أن نفرا من الجن قد ألقوا إلى القرآن سمعهم فأجابوا داعي الله : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى

«صديقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجزىكم من عذاب أليم» (١) .

كانت بارقة أمل في الظلمات التي رانت على حياة المسلمين الذين كانوا يمضغون الحزن وآلام العذاب صامتين . وكانت تسرية للرسول عليه السلام الذي احتمل في ذلك العام من الأحزان ما ينوء عن حمله بشر . ولكن الرسول الكريم الذي ذاق كل ألوان العذاب والاضطهاد والأسى كان في حاجة إلى تسرية أعظم . إلى آية كبرى من آيات ربه تمسح عن صدره ما رسب فيه من مرارة التكذيب واتهامه بأنه مفتر ، وسخرية الساخرين وهزاء المستهزئين طوال عشر سنين تصرمت منذ أول مرة التقى فيها برسول ربه في الغار .

سنون طويلة انقضت في كفاح وجدال بينه وبين قومه . ولم يستجب إلى دعوته إلا نفر من المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإيمان ، وكانوا فئة قليلة أعجز من أن ينصروه أو أن يقفوا في وجه الشر الذي جمع صفوفه ليكنم أنفاس ما جاءهم به . قبل أن يستفحل الأمر ويصل إلى قبائل خارج مكة فيفلت الزمام من الحائقين . وقد انتهت تلك السنون بموبد حلال وخديجة وخذلان الطائف الأليم . ولم يبق إلا ربه نعم المولى ونعم النصير .

كان على ثقة من أن نصر الله قريب . فقد أوحى إليه : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (٢) « وأنه : » حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا

عن القوم المجرمين (١) » .

وغابت الشمس خلف جبال مكة فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أم هانئ بنت أبي طالب ليبيت عندها ، وسار مكلوم الفؤاد فهو لا يطيق أن يمضي الليل في داره بعد أن أقفرت من الطاهرة ولو أنه بنى بسودة بنت زمعة ، ولو أن فاطمة الزهراء تبذل نفسها لتهيئ لأبيها الصابر الحزين كل أسباب الراحة . ولو أنه لا يصبر على فراق فاطمة إلا أن ما يعتلج في نفسه من الحزن والشجن كان يطغى على لطفه بابنته التي انطوت على نفسها بعد أن فقدت أمها الحنون .

وبلغ شعب أبي طالب فاذا بذكريات أيام الحصار القاسية تطفو على سطح ذهنه ، ففي ذلك الشعب جمع أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب مؤمنهم وكافرهم ليحموه من فتك قريش ، وقد صبروا على الجوع والمقاطعة والتشريد . ورأى بعين خياله خديجة وهي تثلوى من الألم ، وأم كلثوم وفاطمة وعلياً وزيد وهم يتضورون من الجوع ، وسعد بن أبي وقاص يلتقط من الأرض شيئاً طرياً لا يدرى ما هو ثم يلقي به في جوفه ليسكت صراخ بطنه ، واحتلت رأسه أقصى المشاهد التي مرت بالمحصورين في الشعب فغامت بالأسى صفحة وجه الإنسان العظيم .

وبلغ دار أم هانئ فاذا بزوجها هيرة يستقبله ويرحب به وإن لم يؤمن برسالته ، وكان الحوار كثيراً ما يدور بين الرسول عليه السلام وبين أم هانئ ابنة عمه وزوجها هيرة ، وكان الإعجاب

بحديث أنى القاسم يبدو على وجه الزوجين ولكن قلوبهما لم ينشرحا
لأيمان ، فثبات أنى طالب على دينه حتى المات جعلهما يعتقدان
أن دين الآباء خير مما جاءهم به ابن عبد الله ، فلو كان خيرا ما أعرض
عنه أبو طالب !

ونام عليه السلام فى بيت أم هانئ ، فبينما هو نائم عشاء إذ آتاه
آت فأيقظه فاستيقظ فلم ير شيئا ، فإذا هو بكهينة خيال فأتبعه
بصره فإذا هو جبريل ، فأخذ جبريل بيده فأخرجه إلى المسجد
فأسرى به ، فأحس عليه السلام أنه يسمو ويرتفع حتى ساد
الخالقين ، وراح جبريل يحوب به ملكوت الله والرسول عليه
السلام مأخوذ بما يرى . ثم استوى جبريل بالأفق الأعلى على هيئته
التي خلقه الله عليها ، فجعل محمد عليه السلام يرنو إليه فى دهش
وقد هوى إليه فؤاده . إنه رآه أول مرة وهو مملأ الأفق عند غار
حراء فخر مغشيا عليه ، أما الآن وهما فى السموات العلى فان الرسول
عليه السلام يرقبه وقد تهلل بفرح روحى فياض ، فكل ما حوله
مملأ النفس دهشة والفؤاد بهجة ونشوة والعين نورا ينسكب فى
أعماق الذات . واستشعر النبى الكريم أنه دنا من رب العزة ، وما
كان دنو مكان ولا قرب مدى ، فسبحانه وتعالى فى كل مكان .
بل كان رفعة منزلته وتشريف رقبته وإشراق نور معرفة الله ومشاهدة
أسرار غيبه وقدرته ، وملاأت جوانحه بهجة الأنس بربه والتفرح
بفيض كرمه ، فقد بلغ نهاية القرب ولطف المحل وإيضاح المعرفة
والإشراف على الحقيقة .
فأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، فرض عليه الصلاة وأنزل

عليه : « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذكرك . فان مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا . فاذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب » .

كانت تسرية محقت كل أحزان السنين التى انقضت منذ كلف بالرسالة حتى أسرى به . إنه متفرح فى الله وبالله . لم يعد نخس آلام نفسه لكأئما خلق من جديد بلا آلام ولا أحزان . بل أمل ورجاء وعزم من حديد .

ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة نور رب العالمين . ما زاغ بصره وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١) .

وانتهت رحلة الفضاء عند بيت المسجد ، فدخل عليه السلام ليصلى ركعتين تحية المسجد وقد امتلأ علما وحكمة و يقينا ، فقد عاين عظمة خلق الله وهو مبهور بجلال ملك الله ، فما كان يخطر له على قلب ما فى الكون من أعاجيب .

وقامت أم هانئ بالليل فلم تجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى فراشه ، فامتنع منها النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قریش ، وربت مخاوفها فبعثت إلى بنى عبد المطلب أن أبا القاسم فقد ، فتفرق بنو عبد المطلب يلتمسونه ، وبلغ العباس إلى ذى طوى وجعل يصرخ :

— يا محمد ! يا محمد !

فأجابه عليه السلام :

جـ لبيك .. لبيك .

فلما دنا عليه السلام من عمه قال العباس :

— يا بن أختي عنيت قومك ، فأين كنت ؟

— ذهبت إلى بيت المقدس .

فقال العباس في دهش :

— من ليلتك ؟ !

— نعم .

— هل أصابك إلا خير ؟

— ما أصابني إلا خير .

وصمت العباس وقد امتلأ دهشا وأسفا . فما كان يظن أن

يصل ابن أخيه في دعواه إلى أن يقول إنه ذهب إلى بيت المقدس

وعاد في ليلة . وسارا صامتين في الظلام حتى بلغا دار أم هاني بشعب

أبي طالب ، فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أم هاني

بغلس بعيد الفجر وهي في فراشها ، فلما رآته هرعت إليه تسأله

أين ذهب ؟ فراح عليه السلام يقص عليها قصة الإسراء وما رأى

من آيات ربه الكبرى ، وهي تتفرس فيه لا تكاد تصدق شيئا مما

يقول . وكيف يستطيع عقلها أن يسيغ أن محمدا عليه السلام ذهب

إلى بيت المقدس وعاد منه في ليلة واحدة ، والقوافل غدوها شهر

ورواحها شهر !

وتأهب — صلى الله عليه وسلم — للخروج فقالت له أم هاني

وهي تحسب أنه محموم :

— إلى أين ؟

— أنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت .
يقول لهم إنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في نفس الليلة ؟ !
إن أم هانيء لتفزع من هذه الفكرة . فتعلقت برَدائه — صلى الله
عليه وسلم — وقالت :
— أنشدك بالله يا بن عم ألا تحدث بهذا قريشا فيكذبك من
صدقك .

وحاول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن ينطلق في رفق ،
ولكن أم هانيء تشبثت به وهي تقول :
— إنك تأتي قوما يكذبونك وينكرون مقاتلك . فأخاف أن
يسطوا بك . .

كانت أم هانيء لا تزال على دين قومها وكانت لا تصدق كلمة
من حديث الإسرائ ، فكانت تخاف أن يجر ذلك المتاعب على محمد .
فهو يعيش في مكة في جوار المطعم بن عدى ، فمن يدرى ماذا
يكون موقف المطعم من أبي القاسم إذا أعلن على الملأ أنه أسرى به
ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعاد قبيل أن تشرق
شمس اليوم التالي . ليردن جواره بلا ريب ، ولن يستطيع بعدها
أبو القاسم أن يمشي آمنا في مكة .

كانت أم هانيء متعلقة برَدائه فضرب بيده على رَدائه فانزعه
من يدها ، ثم خرج إلى الحرم وصوت أم هانيء لا يزال يرن في
أعماقه . لقد قالت حقا فهو ذاهب إلى قوم يكذبونه وينكرون
مقاتله ، فقعد حزينا في المسجد فمر به أبو جهل فقال كالمستهزئ :
— هل كان من شيء ؟

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على يقين من أن أبا جهل سيكذب حديث الإسراء ، بل سيجد مادة للسخرية تشفى مرض قلبه ، ولكنه عليه السلام لا يستطيع أن يكتّم ما شرفه الله به ولو نال من الهزء والأذى ما ينال ، فقال :

— نعم أسرى في الليلة .

— إلى أين ؟

— إلى بيت المقدس .

— ثم أصبحت بين ظهرانيها ؟

— نعم .

فلم ير أن يكذبه مخافة أن يحجده الحديث إن دعا قومه إليه ،
إنها فرصة سنحت له ليؤكد كذب ابن أبي كبشة ، قال :

— أرايت إن دعوت قومك أتحدثهم ما حدثتني ؟

— نعم .

فوقف أبو جهل في الحرم ينادي :

— يا معشر بني كعب بن لوئى .

فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما . فالتفت

أبو جهل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— حدث قومك بما حدثتني به .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ثبات :

— إني أسرى في الليلة .

فارتفعت الأصوات قائلة :

— إلى أين ؟

— إلى بيت المقدس .

وراح عليه السلام يقص عليهم ما رأى من آيات ربه فضجوا
وأعظموا ذلك . وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على
رأسه تعجباً ويقول :

— انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة !
وقال بعض المسلمين الذين كانوا يتأرجحون بين الإيمان والكفر :
— نحن لا نصدق محمداً بما يقول .

وسعوا بذلك إلى أبي بكر فراحوا يهولون إلى دور بني جمح ،
فقد كانت دار أبي بكر في ذلك الحى ، فلما التقوا بابن أبي قحافة
قالوا في فزع :

— هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت
المقدس .

— أوقال ذلك ؟

— نعم .

فقال أبو بكر في هدوء :

— لئن كان ذلك لقد صدق .

فرموه بنظرة منكرة فقالوا :

— أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن

يصبح ؟

فقال أبو بكر في صدق :

— نعم ، إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه في خبر

السماء في غدوة أو روضة .

وانطلق أبو بكر إلى البيت العتيق فاذا برسول الله عليه السلام
وقد التف حوله أبو جهل والمطعم بن عدى والوليد بن المغيرة والملاء ،
وإذا بالمطعم يقول لرسول الله عليه السلام :

— إن أمرك قبل اليوم كان أمما (يسيرا) غير قولك اليوم ،
وأنا أشهد أنك كاذب . نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس .
مصعد أشهر ومنحدر أشهر . أتزعم أنك أتيت في ليلة واحدة !
واللات والعزى لا أصدقك وما كان هذا الذي تقول قط .

كان بين المطعم بن عدى وأبي بكر صداقة وثيقة من قبل
الإسلام ومن بعده ، وقد خطب المطعم لابنه جبير عائشة بنت
أبي بكر ، وعلى الرغم من تلك الصلة المتينة فإن أبا بكر لم يستطع
أن يسكت على تكذيب المطعم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم —
فقال :

— يا مطعم بنس ما قلت لابن أخيك ، جبهته بالمكروه وكذبتة .
أنا أشهد أنه صادق .

واشتد الجدل بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبين
المكذبين . وملأت أصوات الاستنكار أرجاء الحرم ورددتها جبال
مكة ، واهتز إيمان بعض المسلمين فما كان يقصد محمد عليه السلام شيء .
يعجز العقل عن إدراكه ، فقد ارتبطت أذهانهم بمسافات يعرفونها
وسرعة يضربون بها في البیداء وما كانوا يدرون شيئا عن الأسرار
الكونية ، وما عرفوا بعد أن سرعة الضوء هي الأمر الثابت الوحيد
في الكون ، وكيف أن الزمن والقضاء عاملان نسيان يستمدان
قياسهما من سرعة الضوء ، وأن النور هو الحقيقة الثابتة

فى الكون(١) « الله نور السموات والأرض » .
ما أوتوا من العلم إلا قليلا ، لم يعرفوا ما فى الكون من أسرار
عجيبة ، ولو عرفوا تلك الحقائق المذهلة لأيقنوا أن رب العالمين
الذى خلق تلك الأعاجيب قادر على أن يطوف برسوله أرجاء الكون
فى لمحة عين ، ليريه من آياته الكبرى .

وماجت مكة بالدهشة من حديث الإسراء وحق لها أن تموج ،
وتدقق الناس إلى البيت العتيق حتى لا يفوتهم ذلك الحوار الدائر
بين محمد بن عبد الله الذى يؤكد أنه أسرى به ليلا من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى وعودته إلى مكة فى ليلة واحدة وبين سادات
قريش الذين وجدوا فى ذلك الحديث فرصة ذهبية ليعلنوا على الملأ
كذب الرجل الذى اشتهر طوال عمره بين قومه بالصدق والأمانة
والخلق العظيم .

وراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرأ ما أوحى إليه :
« بسم الله الرحمن الرحيم . » النجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم
وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه
شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى .
فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب
الفؤاد ما رأى . أفهامونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند
سدره المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى .
ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرايتم
اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخوى . ألكم الذكر وله الأنثى .

(١) ابنشئين .

تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم
ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس
ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

واربدت وجوه الكافرين ، أفلا يكفيه أن يزعم أنه أسرى به
إلى بيت المقدس ثم عاد فى ليلة واحدة حتى يسخر من آلهتهم ويقول
إن هى إلا أسماء سموها هم وآباؤهم ؟ وارفعت أصواتهم بالاحتجاج
على هذه السخرية اللاذعة ، وفاضت بالدمع أعين المسلمين الذين
ملأ الله أفئدتهم بأنوار اليقين وزادهم حديث الإسراء إيمانا على
إيمانهم . فهو آية على قدرة الله . وقد آمنوا بقدرة الله التى لا تحدد
وبأنه إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون .

وشغلت مكة بالإسراء فى نهارها وليلها فى الأسواق وفى الدور ،
فى الوديان وفى شعاب الجبال ، بين المسلمين والكافرين رجالا
ونساء . وكان المسلمون يتلون فى اطمئنان : « سبحانه الذى أسرى
بعبد له ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله
لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير (١) » . بينما كان الكافرون
يستهنئون بالمخدوعين الذين سحرهم ابن أبى كبشة .

ولم تضطرب مكة من قبل اضطرابها لحديث الإسراء ، صار
تسليية السمار فى نواديهم والتجار فى حوانيتهم والنساء فى مخادعهن
والغلمان فى مراتعهم . وما كان الرسول عليه السلام يمشى فى طريق
حتى تصلك أذنيه كلمات الهراء والسخرية والسباب ، وما كان المسلمون
يظهرون فى مكان حتى يجابهون بما يكرهون . ثم تدوى ضحكات

مستهزئة وقعتها في نفوسهم أقسى من وقع السهام .
كان الإسراء تسرية للرسول عليه السلام وتمحيصا لقلوب
المؤمنين . فالإسلام مقدم على أخطر مراحلها وهو في حاجة إلى
أن ينفذ عنه المنافقين والمزعرعين . وقد أفرغ حديث الإسراء
ضعاف الإيمان فارتدوا عن الإسلام . وكان ذلك الارتداد خيرا
للدين الجديد قبل أن ينخروا فيه بضعفهم ويوهنوا أركانه ، وكان
الإسراء فتنة للناس ، وقد أوحى الله إلى عبده : « وما جعلنا الرؤيا
التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم
فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا (١) » .

انقلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أهله راضى النفس بعد أن رأى من آيات ربه الكبرى ، وبعد أن أعلن على الملأ أنه قد أسرى به ليلاً من مكة إلى بيت المقدس ثم أصبح بين ظهرانيهم . إنهم كذبوه وسخروا منه ، وارتد عن الإسلام بعض أنصاره لما لم يصدقوا أنباء رحلة السماء . ولكن كل ذلك لم يفت في عضده أو ينال من يقينه بعد أن سما ثم دنا فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الله إليه ما أوحى ، ففاض فؤاده بالعلم والحكمة والنور .

شرحت الرحلة السماوية صدره وغسلت فؤاده ، فكشطت آلام نفسه وما أصابه من تعب طوال السنين التي مرت يدعو فيها الناس إلى ربه دون أن يستجيب له إلا فئة قليلة آمنت بما دعاها إليه ، ولكنها ظلت فئة مستضعفة أهون من أن تثور على كفار قريش وأن تفرض عليهم إرادتها .

كان يستشعر حزناً عميقاً كلما دعا قومه إلى عبادة الله وحده فما زادهم إلا نفوراً ، وكان أساه يربو كلما وجد أن دعاءه لا يزيدهم إلا فراراً حتى إن ربه عاتبه قائلاً : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » (١) . أما بعد أن رأى

سدرۃ المنتهى وقد أشرقت بنور ربها وجلال آيات الله وعظمۃ ملكوته ، فقد امتلأ بالفرح واستبشر وأيقن أن مالك الملك يوثق الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويضل من يشاء ويهدي من يشاء ويصيب برحمته من يشاء ، بيده الخير إنه على كل شيء قدير .

كان منذ أول يوم أوحى فيه إليه على ثقة من نصر الله لم تخالجه ريبة طرفة عين ، حتى إذا خرج إلى الطائف طريدا من مكة ومعه غلامه زيد وهو يطمع في أن يجد بين الثقفين من ينصره ويحميه حتى يبلغ رسالات ربه ، وقوبل بالسخرية والتكذيب ، ونال منه سفهاؤهم ما نالوا ، خشى أن يكون الله قد غضب عليه فوقيف يبتهل إلى الله والدماء تسيل من رجليه والدموع تنهمر من عينيه ويقول في حرارة وصدق : « إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي » . فلما أسرى الله به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى استبشر بنعمة الله وفضله ، وأيقن أن نصر الله قريب .

وبلغ داره فهرعت إليه سودة بنت زمعة زوجة التي بنى بها بعد موت خديجة ، وهي تعرف أنها لن تستطيع أن تملأ الفراغ الذي خلفته الطاهرة في قلب محمد عليه السلام ، وكانت كل سعادتها أن تكون بقرب الرسول الذي أخرجها من الظلمات إلى النور ، تهيئ له ما تستطيع أن تهيئ من سبل الراحة ، فهي تحترم صمته إذا صمت ، وتلبي رغباته راضية إن أشار ، ولا تضيق بفراره أحيانا من الدار ومبितه عند أم هانئ أو في الحجر في المسجد أو في غار حراء ، فقد وطدت النفس منذ أول ليلة وطئت فيها

قدماها الدار أن تحترم عواطفه وذكرياته ووفاءه لذكرى أم المؤمنين الراحلة ، فما كان يغيب عن الدار إلا فرارا من لوعة الأسى على حاضنة الإسلام .

ماتت خديجة رضى الله عنها في رمضان فنزل برسول الله صلى الله عليه وسلم — حزن ثقیل ، فراح أبو بكر وعلى وعمر وسعد بن أبي وقاص وبلال وصهيب ونجباء بن الأرت والمسلمون يحاولون أن يخففوا عنه وقع المصاب ، فكانوا لا يفارقونه بالنهار وطرفا من الليل ولكن من للعيال بعد خديجة ؟

وكان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يرون أن خير ما يفعله الرسول عليه السلام أن يتزوج . ولكن من ذا الذى يجروا أن يفاتحه فى هذا الأمر وكلهم يعلم مكانة خديجة فى نفسه ؟ . كانت فاطمة الزهراء تنهض بأعباء البيت ، وكانت ترعى أباهما الكريم وتفيض عليه من عطفها وحبها حتى دعاها أصحاب الرسول عليه السلام بأمر النبى ، ولكن فاطمة كانت أضعف من أن تنهض بعبء البيت الكبير وحدها . وإن اهتمامها بأبيها قد يفوت عليها فرصة الزواج ، فما من واحدة من صواحبها إلا وقد تزوجت وحملت إلى دار زوجها . أوتضحى بنت النبى بنفسها وبمستقبلها فى سبيل رعاية أبيها وبيته ؟

كان الجميع مقتنعين بأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى حاجة إلى زوجة ، ولكن أحدا منهم لم تكن عنده الشجاعة ليفاتح الرسول الواله الحزين فى أمر أن تحل امرأة أخرى محل سيدة نساء قريش ، حتى عمر أشفق على نفسه من حمل هذه الرسالة

إلى رسول الله عليه السلام .

و ذات ليلة بينما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الدار يتذكر أيامه الخالية مع أم المؤمنين ، إذا بخولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون تدخل عليه ، فرحب بها فهي من المؤمنات الصادقات قد هاجرت الهجرة الأولى إلى الحبشة مع زوجها عثمان ، ثم ما لبثت أنه عادت معه إلى مكة ليكونا إلى جوار إخوانهما المسلمين يتحملان معهم في صبر ما ينزل بهم من عذاب حتى يأتي نصر الله .

وراحت خولة بنت حكيم تجمع أطراف شجاعتها قبل أن يتحرك لسانها بما جاءت من أجله ، فما كان انقضى على موت خديجة إلا أيام ، ثم قالت :

- يا رسول الله ألا تزوج ؟

فتنظر إليها من بين أهدا به الطويلة فقال :

- من ؟

وهدأت نفسها ، فما ثار رسول الله ولا نهاها عن ذلك الحديث فقالت :

- إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا .

- فمن البكر ؟

- أحسن خلق الله بك ، بنت أبي بكر .

- ومن الثيب ؟

- سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعك على ما تقول .

كانت سودة كبيرة السن ولم تكن ذات جمال ليس بها شيء .

يجذب الرجال ، ولكنها امرأة مؤمنة كانت متزوجة من ابن عمها
السكران ، هاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ثم رجع بها إلى
مكة فمات عنها ، أتظل طوال عمرها أرملة ؟ إنه إن تزوجها وهي
عاطلة من الحمال ومما يجذب إليها الرجال سينزل الفرحه بقلب امرأة
مؤمنة وسيؤكد لأنصاره أن نساءهم لن يذقن من بعدهم الهوان حتى
وإن كن عجاجز بلا مال ولا جمال ، فقال :

— فاذهي فاذهبي فاذكريهما على .

فانطلقت نخوة بنت حكيم وهي تكاد تطير من الفرح إلى أرملة
السكران ، فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت لها وقد تفرق
في وجهها الاستبشار :

— ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

فرمقتها سودة في دهشة وقالت :

— وما ذاك ؟

— أرسلني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخطبك عليه .

وغمر سودة سرور واستشعرت دموع الفرح تبلل روحها ،

إنها رأت في منامها أن قمرا انقض عليها من السماء وهي مضطجعة ،

فما كانت تدري تأويله وما كانت تطمع في أن تكون زوجة رسول

الله — صلى الله عليه وسلم — بعد أن نالت منها السنون . وإنه لشرف

لا يدانيه شرف أن تصبح أم المؤمنين وأن تتوج صبرها على اضطهاد

الكافرين وهجرتها إلى الحبشة لله ورسوله بذلك التكريم ، فقالت

سودة في لفة :

— وددت . ادخلي على أبي فاذهبي ذلك له .

فدخلت خولة بنت حكيم على أبي سودة وكان شيخا كبيرا ،
فحيته بتحية الجاهلية فقال :
— من هذه ؟

— خولة بنت حكيم .
كان الشيخ على علم بأن خولة قد كفرت بآلهة قومها وأنها
خرجت مهاجرة إلى الحبشة مع الخارجين ثم ما لبثت أن عادت
مع زوجها عثمان بن مظعون ، فقال في إنكار :
— فما شأنك ؟

فقالت في هدوء وهي ترقب أسارير الشيخ :
— أرسلني محمد بن عبد الله أخطب سودة .
فلم يزو الرجل ما بين حاجبيه ولم يقطب جبينه بل قال :
— كفء كريم . ما تقول صاحبتك ؟
— تحب ذلك .
— ادعيها إلى .

فذهبت خولة إليها تدعوها ، وما أسرع أن عادتا إلى الشيخ
بوجهين مستبشرين ، قال :
— أى بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
قد أرسل يخطبك وهو كفء كريم ، أتحبين أن أزوجهك منه ؟
فقالت سودة في صوت يفضح غبطتها :
— نعم .

فالتفت الشيخ إلى خولة بنت حكيم وقال :
— ادعيه لى .

فجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصدقها أربعمائة درهم ، فزوجه أبوها إياها ، وقدم أخوها عبد بن زمعة وبلغه أن محمد بن عبد الله عقد على أخته فأحس غيظا ، ودخل على أبيه يرغى ويزبد وصرار يحثي على رأسه التراب ، فأى عار لحقه إذ تزوج ابن أبى كبشة أخته سودة ؟

وانطلقت خولة بنت حكيم إلى حمى بنى جمح وذهبت إلى دار أبى بكر ، فلما دخلت على زوجه أم رومان قالت لها :
— ماذا أدخل الله عليكم من البركة والخير ؟ قد أرسلنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخطب عليه عائشة .
— انتظرى أبا بكر حتى يأتى .

فجاء أبو بكر فقالت له :
— يا أبا بكر . ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟
فرمقها أبو بكر فى عجب وقال :
— وما ذاك ؟

— قد أرسلنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخطب عليه عائشة .

— وهل تصح له ؟ ! إنما هى بنت أخيه .
فرجعت خولة إلى رسول الله فذكرت له ذلك ، فقال :
— ارجعى إليه فقولى له : أنا أنحرّك وأنت أخى فى الإسلام .
وابنتك تصلح لى .

فرجعت فذكرت ذلك ، قالت أم رومان :
— إن مطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه جبير ووعده .

والله ما وعد وعيدا قط فأخلفه .

وقام أبو بكر وذهب إلى دار المطعم فلما دخل عليه قال له :

— ما تقول في أمر هذه الحارية ؟

فأقبل المطعم على امرأته وقال لها :

— ما تقولين يا هذه ؟

فأقبلت على أبي بكر وقالت له :

— لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليكم تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه .

فأقبل أبو بكر على المطعم وقال له :

— ماذا تقول أنت ؟

فقال المطعم بن عدى وهو يتحاشى أن تلتقى عيناه بعيني

أبي بكر :

— إنها لتقول ما تسمع .

فذهب ما كان في نفس أبي بكر من عدته للمطعم وقام وليس

في نفسه من الوعد شيء . فرجع فقال لحولة :

— ادعى لي رسول الله .

وانطلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى دار صديقه

أبي بكر ، وعقد على عائشة وأصدقها خمسمائة درهم ، ولم يكن بها

فقد كانت عائشة لا تزال صغيرة وإن كان المطعم قد خطبها لابنه

جبير من قبل .

كان ذلك قبل أن يخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

إلى الطائف وقبل أن يلتقي من ثقيف أبشع ألوان الاضطهاد ، وقد

كان المطعم بن عدى كريما لما قبل أن يدخل رسول الله عليه السلام مكة في جواره بعد أن قفل راجعا من الطائف عقب رحلة العذاب . وكان نبيلاً لما لم يرد جوار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما راح يحدث قومه حديث الإسراء ، وكان كل ما قاله : « إن أمرك قبل اليوم كان أما (يسيراً) غير قولك اليوم . وأنا أشهد أنك كاذب » . ولم يمتف في الحرم ينادى : يا بني كعب بن لؤى إني رددت جوار ابن أبي كبشة .

عاد رسول الله إلى داره بعد أن أسرى به فأتخذ يحدث سودة وفاطمة وأم كلثوم عن بعض ما كان في أسرته ، وسودة مأخوذة بحديث رسول الله . حتى إذا ما قاما إلى غرفتهما راحت سودة تروى بعض ذكريات الحبشة وتقص ما كان من أمر السكران ابن عمرو وابنة أخيه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس . وكان يسعدها الحديث عن أبناء أعداء رسول الله وبناتهم الذين أسلموا وهاجروا في سبيل الله . فكانت تروى ما كان من أم حبيبة بنت أبي سفيان وزوجها عبيد الله بن جحش ، وابن النضر بن الحارث ، وأبي سلمة المخزومي وأم سلمة . وأبناء عبد شمس ، وبني مخزوم وبني جمح وبيوتات قريش الذين كفروا بدين الآباء ودخلوا في دين الله .

وكانت إذا ما تحدثت عن عثمان بن عفان ورقية يندو الاهتمام في وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . فقلبه يهفو إلى رقية وبشتاق إلى عثمان . وكانت سودة تحس أن الحديث عنهما يسره فكانت تسهب كلما تحدثت عن الحبيبين لتدخل البهجة على قلبه .

وكان أبو سودة زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود من بنى عامر بن لؤى ، وكانت أمها الشמוש بنت قيس من بنى عدى ابن النجار ، فكانت أحيانا تتحدث عن يثرب وعن بنى النجار والخزرج ، فكانت تثير فى نفس الرسول عليه السلام ذكريات تلك الأيام التى أمضاها مع أمه فى دار عدى ، وتذكره بقية مأساة طفولته لما ماتت أمه فى الطريق بين يديه ، ولما دفنها هو وجارية أبيه بركة الحبشة غريبة فى الأبواء .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يصغى إلى أحاديث سودة ليأنس بها . وما كان يحدّثها كثيرا عن آلامه وآماله كما كان يفعل مع خديجة . فأين سودة من الطاهرة سيدة نساء قريش ؟ وأين سذاجة سودة من لباقة حاضنة الإسلام . وأين المرأة العجوز من الذكريات الشابة التى يكنّها لخديجة والتى لا تعرف الحرم مهما كرت الأيام ؟

كانت سودة ثقيلة الجسم وكانت عاطلة من كل جمال وكانت مسنة ، وكانت تعرف أن الرسول لم يتزوجها إلا ليمسح عنها ما قاست من أهوال فى سبيل الله . ولكنها كانت سعيدة غاية السعادة أن تكون بالقرب من رسول الله عليه السلام على الدوام . وكان وجهها يشرق بالابتسام لما ترى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يضحك من مشيتها . فأقصى آمالها فى الحياة أن ترى رسول الله عليه السلام راضيا ناعم البال . وأن تخفف عنه بعض ما يلقى من اضطهاد .

وإلى موسم الحج فتدفقت قبائل العرب إلى الأسواق . وحمل
أشراف مكة بضائعهم وفتياتهم على ظهور الإبل يبتغون الأموال .
وما وافوا سوق مجنة حتى راحوا يفتنون في عرض سلعهم وإقامة
الحيام لصاحبات الرايات الحمر . فالبغاء كان أروج تجارة في الموسم
وراح وجوه قريش يتلفتون كأنما يبحثون عن شيء . حتى إذا ما
قدم رسول الله صلوات الله ، سلامه عليه ومن حوله أبو بكر
الصديق وعمر وحزمة وعلى وسعد بن أبي وقاص وبلال وصهيب
والمسلمون . أربدت وجوههم وانتقع لونه ثم صوبت أعينهم إلى
أحد لخب فانتزع ابتسامة هازئة كأنما يقول لهم : اطمنوا فلن ينال في
هذا الموسم أكثر مما نال في المواسم السابقة أو أقل .

وانطلق بلال وبعض المسلمين إلى مياه مجنة يملئون القرب .
بينما راح شاعر بني هاشم أبو سفيان بن الحارث ابن عم الرسول الذي
ما كان يمارقه أبداً قبل الإسلام وشعراء قريش يتأهبون لخصب
الناس إلى الاستماع إلى قصائدهم إذا ما جلس النبي عليه السلام يتلو
ما أنزل إليه من ربه .

كانوا يرتجفون فرقا من أن يلقى الناس أسماعهم إلى محمد بن
عبد الله . فكانوا يتبعونه أينما سار يخشرون الناس كذبه . وإذا
ما تأهب ليقرأ القرآن أخذوا في التصفيق والصفيق والصياح حتى

نعلو أصواتهم على ترتيله . إنه أخفى رسالته ثلاث سنين ثم أعلن بها في الرابعة ، ووافى الموسم كل عام يتبع الحجاج في منازلهم وبياتى القبائل قبيلة قبيلة ، ولكن قريشا نجحت في أن تفض الناس من حوله وفي أن تحول بينه وبين شرح دين الله في حرية .

ومضت أيام مجنة وهو يطوف على القبائل في منازلهم يدعوهم إلى أن ممنعوه حتى يبلغ رسالات ربه . فكانوا يرمقونه في سخريه ويضحكون ملء الأشداق من أقوال قومه المستهزئين به . وما كانوا يكتفون بالضحك بل كانوا يشتركون في النيل منه وفي تجريحه . وتدفقت الجموع إلى عكاظ وهرعت القبائل إلى العبلات تطوف بالآله وتنحر عنده . بينا راح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يصلى لله وقد اصطف خلفه أصحابه فقطعوا كل العلائق بالدنيا وصفت قلوبهم وزكت وأشرقت بنور ربها .

وأتى رسول الله عليه السلام عبادته فراح يجوس خلال عكاظ فيمتلئ فؤاده أسى . فالأموال التي كانت مكدسة في السوق مثقلة بدموع العبيد وصاحبات الرايات الحمر يضحكن ضحكات تفتت الأكباد . فسادات العرب يكرهن فتياتهم على البغاء طمعا في الذهب والفضة . وخمور الشام تلعب برءوس الشاربين فتفقدهم الوقار . والأيسار غارقون في لعب الميسر وقد فاضت أعينهم بالطمع وما تخفى صدورهم أبشع ، والشعراء ينشدون قصائد ماجنة خليعة وقد أشرأت إليهم الأعناق : كانت البشرية تتمرغ في الأحوال .

ونزلت كل قبيلة تحت رايتها ، فذهب رسول الله عليه السلام

إلى قبيلة كندة فقال :

— يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا .

وقبل أن يتم كلامه ظهر أبو هلب خلفه وقال :

— يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم :

وهرع النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن

هشام وأمّية وأبي ابنا خلف إلى حيث كان رسول الله عليه السلام

وعمه يؤكّدون للناس أن ابن أبي كبشة مجنون . وينصحونهم بالآلا

يلقوا بالآلا إلى هذيانه .

وانصرف الرسول عليه السلام وهو مطرق حزين ولكنه لم

يقنط من رحمة الله . بل راح يعرض نفسه على الناس ويقول :

— ألا رجل يعرض عليّ قومه . فان قريشا قد منعوني أن أبلغ

كلام ربي .

فكان الناس يعرضون عنه ثم ينصرفون ويتركونه وحده يعضغ

آلام نفسه . فقد كان فرارهم منه يحرك أشجانه . ولولا ثقته بربه

لانتابه يأس مرير . فقد تصرمت عشر سنين وهو يدعو الناس إلى

الهدى ولا يزيدهم دعاؤه إلا فرارا .

وانطلق إلى بطن من بني كلب يقال لهم عبد الله فقال لهم :

— إن الله قد أحسن اسم أبيكم . يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله

تفلحوا .

وإذا برجل له غدیرتان يرجمه بالحجارة حتى أدمى كعبه

ويقول :

— يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب .

فراح رجل يسأل جاره :
- من هذا الذى يدعو إلى عبادة الله وحده ؟
- إنه غلام عبد المطلب .
- ومن الرجل الذى يرحمه ؟
- هو عمه عبد العزى .
وراحت الأيام تمر والناس فى عكاظ فى لعب ولهو . ورسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يعرض نفسه على القبائل فلا يقبلون
منه ما يعرض عليهم . وانطلق فى غفلة من أعدائه إلى بنى حنيفة
وبنى عامر بن صعصعة وراح يعرض عليهم الإسلام وقد أعاروه
سميهم . حتى إذا ما انتهى من حديثه قال له رجل منهم :
- أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من
خالفك . أيكون لنا الأمر من بعدك ؟
كان فى حاجة إلى أنصار يمنعونه حتى يبلغ رسالات ربه .
وها هم أناس يعرضون عليه أن يبايعوه على أمره حتى إذا ما ظهر
على أعدائه يكون لهم الأمر من بعده . فرصة مواتية لا يرفضها
سياسى ممن يعملون للدنيا . ولكنه كان صادقاً مع نفسه . صادقاً
مع ربه . فقال دون أن يدير العرض المعرى رأسه :
- الأمر إلى الله يضعه حيث شاء .
فرمقه الرجل فى ضيق ثم قال :
- أنقاتل العرب دونك . فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا !
لا حاجة لنا بأمرك .
وانصرف رسول الله عليه السلام وفى القلب أسى . فما بال
(الهجرة)
- الهجرة

الناس قد أغلقوا أفئدتهم دونه وقالوا في عناد :

— أسرتك وعشيرتك اعلم بك حيث لم يتبعوك .

لقد ردتته القبائل ردا غير كريم ، ولم يكن أحد من العرب أقبح ردا عليه من بنى حنيفة . كانت المرارة تستولى عليه أحيانا ولكنه لم يقنط أبدا من رحمة ربه ، فانطلق هو وأبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب إلى مجلس من مجالس العرب . فتقدم أبو بكر وكان نسابة ، فسلم فردوا عليه السلام فقال :

— ممن القوم ؟

— من ربيعة .

— أمن هامتها أم من لهازمها ؟

— من هامتها العظمى .

— فأى هامتها العظمى أنتم ؟

— ذهل الأكبر .

— أفمنكم غوف الذى يقال له : لا حر بوادى عوف ؟

— لا .

— أفمنكم بسطام (١) ذو الاواء ومنتهى الأحياء ؟

— لا .

— أفمنكم جساس (٢) بن مرة حجامى الذمار ومانع الحار ؟

— لا .

— أفمنكم الحذفران (٣) قاتل المaulك وسالبها أنفسها ؟

(١) ثمة في المغامرة بمحضر كبرى في الاغانى ١٧ - ١٠٦ (٢) قاتل كليب .

(٣) الحرث بن شريك .

— لا .

— أفمنكم المزدلف صاحب العمامة القردة ؟

— لا .

— أفمنكم أخوال الملوك من كندة ؟

— لا .

— أفمنكم أصهار الملوك من لحم ؟

— لا .

فقال أبو بكر :

— فلستم ذهلا الأكبر ، أنتم ذهول الأصغر (١) .

فقام إليه غلام قد خرج شعر وجهه يقال له دغفل . وقد عزم على أن ينال من أبي بكر كما نال منهم فقال له :

— يا هذا : إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئا . فمن الرجل ؟

فقال أبو بكر :

— رجل من قریش .

فقال دغفل وهو يتفردس في وجه الصديق :

— بخ بخ أهل الشرف والرياسة ! فمن أي قریش أنت ؟

— من تيم بن مرة .

— أمكنت والله الرأي من صفا الثغرة (نقرة النحر بين

الترقوتين) . أفمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فھر
وكان يدعى مجمعا ؟

— لا .

(١) عمر بن ابي ربيعة بن ذهل بن شيبان .

— أفمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون
عجاف ؟

— لا .

— أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذى كان فى وجهه
قمر يضىء فى ليل الظلام الداجى ؟

— لا .

— أفمن المفيضين بالناس أنت ؟

— لا .

— أفمن أهل الندوة أنت ؟

— لا .

— أفمن أهل الرفادة أنت ؟

— لا .

فاجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — . فقال دغفل :

صادف درء السيل درءا يدفعه بهيضه حيناً وحيناً يصدعه
أما والله يا أبا قريش لو تثبت لأخبرتكَ أنك من زمعات
(ردّال) قريش ولست من الذوائب (الرؤساء) : أو ما أنا
بدغفل !

فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والتفت على إلى
أبي بكر وقال :

— لقد وقعت من الأعراى على يافعة (داهية) .

قال أبو بكر :

— أجل ! إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء موكل بالمنطق .
وتقدم إليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول :
— يا بني ربيعة . إني رسول الله إليكم يا مكرم أن تعبدوا الله
ولا تشركوا به شيئاً . وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه
الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله
عز وجل ما بعثني به .

وإذا بصوت أبي لهب يرن كأنما قد انشقت الأرض عنه :
— يا بني ربيعة . إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلكوا
الملات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ،
فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

والنفث الناس إلى مصدر الصوت فإذا برجل أحول وضى ،
له غدیرتان عليه حلة يمانية ، وإذا بهمس يسرى بين بني ربيعة :
— من هذا الرجل ؟

— هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب .

— أسرته وعشيرته أعلم به حيث لم يتبعوه .

وردوه رداً ألماً فانسحب مطرقاً على ظهر ناقته ، وأبو بكر
الصديق وعلى بن أبي طالب يحسان لسع النار في فؤادهما وهما
يعجبان من إصرار أبي لهب على فض الناس من حول ابن أخيه .
وراحت الأيام تمر وعكاظ يموج بالناس ، ورسول الله عليه
السلام يدور على منازل القبائل يسألهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات
ربه فيردون دعوته مستهزئين ، وهو صابر حتى يحكم الله بينه
وبينهم وهو أحكم الحاكمين .

وذهب عليه السلام ومعه أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب
إلى جماعة من العرب ، فسألهم أبو بكر :
— ممن القوم ؟

— من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :
— بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم .

كان فيهم مفروق بن عمرو وهاني بن قبيصة ومثنى بن حارثة
والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالا ولسانا
له غديرتان من شعر ، وكان أدنى القوم من أبي بكر فقال له أبو بكر :
— كيف العدد فيكم ؟

فقال مفروق :

— إنا لنزيد على الألف ولن تغلب الألف من قلة .

— كيف المنعة فيكم ؟

— علينا الجهد ولكل قوم جد (حظ) .

— فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

— إنا لأشد ما يكون غضبا حين نلقى ، وإنا لأشد ما يكون

لقاء حين نغضب . وإنا لنؤثر الحياد على الأولاد ، والسلاح على
اللقاح . والنصر من عند الله يدلنا (ينصرنا) مرة ويدل علينا مرة .
لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر :

— أوقد بلغكم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيها ؟

هو ذا !

— بلغنا أنه يذكر ذلك . فإلام تدعو يا أخا قريش ؟
فتقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :
— أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأنى رسول الله ، وإلى أن تؤوؤنى وتنصرونى ، فان قريشا قد
تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ،
والله هو الغنى الحميد .

— وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟
فراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتلو :
« قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا
وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم
وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تفتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق ، ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون » (١)
فقال منروق فى دهش :

— ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم عرفناه .
وتهلل وجه أبى بكر بالفرح وأثلج صدر على . فهاهم أقوام
أقوياء يكاد أن تشرق أفئدتهم بأنوار اليقين ، وراح منروق يقول :
— وإلام تدعو أيضا يا أخا العرب ؟

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
— « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى
عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (٢)

(١) الانعام ١٥١

(١) النحل ٩٠

وامتلأ قلب مفروق بفرح فياض فقال :
— دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد
أفكك قوم كذبوك وظاهروا عليك .
وأراد مفروق أن يشاركه في الكلام هانيء بن قبيصة فقال :
— هذا هانيء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .
فقال هانيء :

— قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى إن تركنا ديننا
واتبعنا إياك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر
لزلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة . وإنما تكون الزلة مع العجلة ،
ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع
وننظر وننظر .

وكأنه أراد أن يشاركه في الكلام المثني بن حارثة ، فقال :
— هذا المثني شيخنا وصاحب حربنا .
فقال المثني :

— قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب
هانيء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا
ليس له أول ولا آخر ، وإن أحببت أن نوويك وننصرك مما يلي مياه
العرب دون ما يلي أنهار كسرى ، فعلنا ، فانا إنما نزلنا على عهد
أخذنا علينا كسرى أن لا نحدث حدثا وأن لا نووي حدثا . وإنى
أرى هذا الأمر الذي تدعوننا إليه أنت ، هو مما تكرهه الملوك .

فقال - رسول الله صلى الله عليه وسلم - :
— ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله

عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه . أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ويعرستم نساءهم تسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان بن شريك :

— اللهم لك ذا .

وكان رجال شبان في دهشة من قوله ، فما خطر لهم على قلب يوما أن تكون أرض الفرس لهم ، وما طمعوا في أن تكون لهم أموالهم . كل ما كانوا يرجونه أن يجود عليهم كسرى هدية أو ببعض أموالهم . ولو اخترقت أعينهم حجب الغيب القريب لرأوا المنى ابن حارثة الشيباني على رأس جيوش المسلمين يغزو الفرس ويستشهد عند الجسر استشهاد بطل يدافع عن دين الله ، ويبدل دمه في سبيل إعلاء كلمته .

وراح رسول الله يتلو :

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » (١) .

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف ومعه أبو بكر وعلى : وكان راضى النفس فما أساءوا في الرد وقد وجد فيهم خيرا . وإن لم يؤمنوا به ولم يمنعه . وسار وهو قابض على يد أبي بكر وهو يقول :

— يا أبا بكر ، أية أخلاق في الجاهلية ما أشرقتها ! بها يدفع الله

عز وجل بأَسْ بعضهم من بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم .
وجاء العشرون من ذى القعدة فراح العبيد يحملون البضائع على
ظهور الإبل ويضعون أصحاب الرايات الحمر في الهودج . وماج
الناس بعضهم في بعض ، وأذن المؤذن بالرحيل فانطلقت العير إلى
سوق ذى المجاز . وأخذت الريح تصفر في سوق عكاظ وقد أطبق
عليها السكون .

ودبت الحياة في ذى مجاز : الحيام تنصب ، والعبيد في غدو
ورواح . والسلع تعرض ، وحلقات المصارعة تعمر بالمصارعين .
وطلاب اللهو يلتفون حول الشعراء . ورسول الله — صلى الله
عليه وسلم — يعرض نفسه على القبائل ويقول :
— لا أكره أحدا على شيء . من رضى الذى أدعوه إليه
فذلك . ومن كره لم أكرهه . إنما أريد معنى من القتل حتى أبلغ
رسالات ربي .

وأبو لهب خلفه يقول :

— لا ترفعوا بقوله رأسا . فانه مجنون يهذى من أم رأسه .

ورجال القبائل يقولون :

— قوم الرجل أعلم به . أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ؟
وانقضت أيام ذى المجاز كما انقضت المواسم من قبل ، لم يقبله
أحد من القبائل ولم يجد من يمنعون من القتل حتى يبلغ رسالات
ربه . وتدفق الناس كالسيل إلى الحرم مؤمنهم وكافرهم ، وراحوا
يطوفون بالبيت العتيق الذى غص بتمثيل الآلهة . ودخل رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — ليطوف فكان لا يقبل على الأصنام بوجهه ،

وكان ذلك يوغر عليه صدور وجوه قريش في تحقيره لأهنتهم
غاية تحقيرهم .

وخرج الناس من مكة للحج وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية :
— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريكا
هو لك ، تملكه وما ملك ، فكان رسول الله عليه السلام يحزن
لذلك الشرك ويتلهف على اليوم الذي يقضى فيه على ذلك الظلم
ويزهق الباطل .

وخرج رسول الله عليه السلام إلى منى ، بينا بقى الخمس من
أهل مكة بها فما كانوا يغادرونها وما كانوا يقفون مع الحجيج
بعرفة ، فوات النبي عليه السلام فرصة أن يعرض نفسه على
الناس بعيدا عن مضايقات عمه أبي لهب .

وبينا هو عند جمرة العقبة عند يسار الطريق لقاصد منى من
مكة . إذ لقي رهطا من الخزرج وكانوا من بنى النجار : أسعد بن
زرارة بن عدس وعوف بن الحارث ، ومن بنى زريق : رافع
ابن مالك ، ومن بنى مسلمة بن سعد : قطبة بن عامر بن حديدة ،
ومن بنى حرام بن كعب : عقبة بن عامر بن ناني ، ومن بنى عبيد
ابن عدي بن ساعدة : جابر بن عبد الله ، فقال لهم :

— من أنتم ؟

— نفر من الخزرج .

— أمن موالي يهود ؟

— نعم .

— أفلا تجلسون أكلمكم ؟

— بلى .

فجلسوا معه — صلى الله عليه وسلم — ، وجلس أبو بكر وعلى يصغون إلى الحديث الشائق الذى دار بينهم وبين الرسول عليه السلام .

راح الرسول صلوات الله وسلامه عليه يدعوهم إلى الإسلام ويتلو عليهم القرآن وهم مأخوذون بسحر بيانه وإعجاز ما أنزل إليه من ربه . وأراد الله لهم الهداية فاذا بأصوات اليهود المتوعدة كلما وقع بينهم وبينهم شئ من الشر ترن في ضمائرهم :

« سيبعث نبي قد أظلم زمانه تتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم » .. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا :

— والله هذا صادق . وإنه للنبي الذى يذكر أهل الكتاب ويستفتحون به عليكم .

— إنه للنبي الذى توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم إليه .

والتفتوا إلى النبي عليه السلام وقالوا :

— أنت رسول الله قد عرفناك وآمنا بك وصدقناك . فمرنا بأمرك فانا لن نعصيك .

وغمر رسول الله عليه السلام فرح فياض . وأحس كل وجدانه نحر ساجدا لله شكرا . فقد لاح النور فى بحر الظلمات . واستبشر أبو بكر وتهلل على بالفرح فقد جاء نصر الله .

وأعلنوا إسلامهم وقالوا له :

— إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والبشر ما بينهم .

فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وجعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يختلف إليهم
يفقههم في أمر دينهم ، ثم أمرهم أن يدعوا قومهم إلى دينهم ،
فسألوه أن يرتحل معهم فقال :
— حتى يأذن لي ربي .

فقالوا له :

— امكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر
لهم شأنك وندعوهم إلى الله عز وجل ورسوله ، لعل الله يصلح
ذات بينهم .

وودعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ثم قالوا :

— إلى الموسم من العام المقبل .

وقفلت القبائل عائدة إلى أوطانها ، وعاد بنو عامر إلى منازلهم
فانطلقوا إلى شيوخهم وكان قد أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي
معيهم الموسم . فراح يسألهم عما كان في موسمهم فقالوا :

— جاءنا فتى من قريش أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي .
يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

— يا بني عامر هل لها من تدارك ؟ هل لها من مطلب ؟ إن
رأيكم غاب عنكم .

كان الشيخ يرى في نصرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
عز الدنيا والآخرة . وأن قومه قد أعرضوا عن مجد عريض لآح
لهم . ولكن لم يكن لها من تدارك فقد ذهب الأنصار بالخير كله .

انسابت قافلة يثرب فى معبد الله عائدة إلى الديار بعد أن انقضى موسم الحج ، وقد شرد الفتية الذين آمنوا برهم يفكرون فى تلك اللقاءات الرائعة اللى تمت بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتهلل أفئدتهم بالفرح . فهم يستشعرون أن ذواتهم قد اكتسبت عمقا وخصبا وثراء . وراحوا يسترجعون أقوال الرسول الكريم فإذا بالحكمة قد أشرقت فى صميم وجودهم . وإذا بثروة جديدة من العلم قد ادخرت فى خزائن صدورهم . وإذا بخصوبة روحية تنتشر فى حياتهم الباطنية فإذا بهم يحسون فى أعماق نفوسهم عظمة وقوة .

ومس آذانهم صدى صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهويقرأ القرآن فرقت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع وغمرتهم سعادة روحية ، بعد أن كشط الجهل الذى ران على ذواتهم وأصبحوا ينظرون إلى ملكوت السماء بنور الله .

خرجوا من يثرب يفور فى وجدانهم روح التعصب . كانوا من الخزر ج قد جرحت هزيمتهم . يوم بعث كبرياءهم . وكانت غايتهم من الحياة أن يثخنوا فى الأرض . وأن يريقوا دماء أعدائهم الأوس ليشفوا مرض نفوسهم . ولكنهم بعد أن أفعموا بروح الله انجلت لهم الحقيقة فعرفوا أن الحق باطل . وأن كراهية الأهل

خطيئة ، وأن يقتل بعضهم بعضا بغير حق سفه ، وأن أسمى ما في الحياة إدراك غاية روحية تسبل على الجميع العزة والكرامة والسلام . وسرت القافلة في الصحراء في جوف الليل وقد زينت السماء بمصابيح ، فرأوا ببصيرهم جمالا لم يشهدوا مثله من قبل على طول ما ساروا في الليل ، فقد صفت قلوبهم وتيسر لهم الفكر ، فانكشف لهم من أسرار الله في ملكوت السموات والأرض في لحظة ما عجزوا عن إدراكه طوال السنين التي تصرمت من أعمارهم .

انكشفت لهم حقيقة طالما غابت عن أذهانهم . إن عالمهم أوسع من العالم الأرضي ، وملكهم أعظم من ملك أعظم ملك . فالملك لا يملك إلا رقعة من الأرض ضاقت أو اتسعت ، أما هم فلهم الأرض وما فوق الأرض ، الطبيعة وما وراء الطبيعة . فقد فاضت عليهم الرحمة وتلاأت في القلوب حقائق الأمور .

وبلغت القافلة المشلل بقديد فارتفعت أصوات الحجاج الخزرجين والأوسيين بالتلبية ، فقد أشرفوا على مناة إلهتهم التي يقدسونها أعظم تقديس ، ثم راحوا يطوفون بها ويذبحون عندها ويخلقون رءوسهم ، فما كان يتم حجهم إلا بتأدية الشعائر لمناة وحملها .

ونظر الفتية الذين آمنوا بربهم إلى الصخرة التي تطل على البحر فتقاصرت نفوسهم وملئوا عجبا ، أكانوا حقا يطوفون بها خاشعين ؟ ! أكانوا يلتمسون منها الحماية ويطلبون الرزق ؟ ! أكانوا يعبدون حجرا لا يملك لهم نفعا ولا ضرا ؟ كيف لم يفتنوا إلى سفاهة أحلامهم قبل أن يرفع الرسول عليه السلام الحجب عن

أعين قلوبهم ؟ وأحسوا رغبة في أن يخروا ساجدين لله شكرا على أن هداهم إلى الإيمان وأخرجهم من الظلمات إلى النور . فانسأوا ليصلوا لربهم بعيدا عن العيون .

وانطلقت القافلة تجد في السير إلى يثرب فيها أول مسلمين يحملون مشعل الإسلام إلى الأرض التي أراد الله أن يشرفها بأن تكون منارة النور ، وما كانوا أول يثريين استمعوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . بل كانوا أول من أشرق منهم قلوبهم بالنور وانتشرت له الصدور وانكشف لهم سر الملكوت .

قدم قبلهم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ، ومعه فتية من بنى الأشهل فيهم إياس بن معاذ ، وكانوا جميعا من الأوس يلتمسون الحلف من قريش على قبيلة الخزرج . وسمع بهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأتاهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس وكان غلاما حدثا :

— أى قومى ! هذا والله خير مما جئتم له .

فرمى أبو الحيسر أنس بن رافع وجه إياس بحفنة من تراب وقال :

— دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا .

وقد خرجت من يد أبى الحيسر مع حفنة التراب أمجاد تنطال على الزمن وتمتد من الأرض إلى السماء ، فلو طأوع الغلام الحدث الأريب لكان أول من حمل النور إلى مدينة الرسول ، ولكن الله لم يشأ له هذه الكرامة فقد كان في علم الله أن حربا ثور بين الخزرجيين والأوسيين في وقعة بعثت ليقبَل فيها أشراف الحيين

الذين قد يدفعهم الحسد والغرور إلى مناوأة دين الله .
وقدم سويد بن الصامت مكة معتمرا ، وكان ابن خالة
عبد المطلب لأن أمه أخت سلمى أم عبد المطلب ، فتصدى له
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين سمع ، فقد كان رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — لا يسمع بقادم قدم مكة من العرب له اسم
وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى ، فدعا سويدا إلى الله
عز وجل وإلى الإسلام فقال سويد :

— لعل الذى معك مثل الذى معى .

— وما الذى معك ؟

— حكمة لقمان .

— اعرضها على .

فراح سويد يقرأ حكم لقمان فقال رسول الله :

— إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا : قرآن

أنزله الله على هو هدى ونور .

فتلا عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القرآن ودعاه إلى

الإسلام فلم يبعد منه وقال :

— إن هذا القول حسن .

ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج .

كانت يثرب تموج بالعداوات فالصراع يشتجر فيها على الدوام
بين اليهود والعرب أو بين الأوس والخزرج . وقد حاولت كل من
القبيلتين أن تستعين بأئصار من الخارج مرة وباليهود مرة أخرى
فلم يعرف المجتمع يثربي الاستقرار . وقد أثر ذلك على حياة

— الهجرة —

المدينة الاقتصادية فأخذ مركز المدينة الثانية بعد مكة في أرض الحجاز يتدهور وحق بأهلها الضيق والبوار .
لم يكن يثرب يأمن على نفسه أو أسرته أو ماله إذا خرج من حصنه ، وكان إذا ما سار في الأسواق يترقب خشية أن يصوب سهم إلى قلبه أو يصبح هدفا لأسلحة الغدر والثأر والانتقام ، فكسدت التجارة وشل النشاط الاقتصادي . ولولا قوافل العرب التي تنزل بالمدينة للهو والتي يهرع شبابها إلى سقيفة البغايا لتحصيل اللذة لحفت الموارد وحق بالمدينة الانهيار .

وكان الأوسيون والخزرجيون على السواء يرجون معجزة من السماء تقضى على الفوضى التي رانت على يثرب أو أن يقوم من بينهم رجل رشيد قادر على أن يؤلف بين القلوب ويقضى على العصبية القبلية التي نخرت في الحيين اللذين يرتبطان برباط الدم . وكان أشراف الحيين يرون أن عبد الله بن أبي بن سلول ولو أنه خزرجي إلا أنه أصلح من يستطيع أن يجمع الشمل فهو لم يشترك في حرب بعث بل دمع قومه الخزرجيين بالعدوان ، فالتف الناس حوله وتعلقت به الآمال .

كان عبد الله بن أبي بن سلول من بني عوف بن الخزرج لا يختلف في شرفه في قومه اثنان . فلو اجتمع الأوس والخزرج عليه لوجدوا الرئيس الذي يسوس أمورهم ويقضى على الفوضى التي ضربت أطناها في جنبات المدينة ولساد العرف بين الناس . ولكن الفتية الذين آمنوا بربهم كان لهم رأى آخر في تأليف القلوب . كانوا يرون أن العقيدة التي جاء بها رسول الله - عليه صلوات الله

وسلامه .. هي السبيل الوحيد لصهر المجتمع اليثري في وحدة لا تقدر على فصمها العصبية القبلية . فهي تسمو بالبشرية فوق الأهواء والأحقاد وتسوى بين الناس أمام الله . فراحوا يعملون على نشر الإسلام ليسود مجتمعهم الذي يجلس على الدوام فوق بركان الأمن والسلام .

وانتشر الرجال في أحياء الخزرج يقصون على أهليهم ما كان بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقولون :
- يا قوم والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم إليه .

- إنكم أخوال جده عبد المطلب .

- كانت سلمى بنت عمرو زوج هاشم بن عبد مناف من بني النجار .

وراحوا يتلون على الناس ما حفظوا من القرآن فاذا الأفئدة تفتتح لآيات الله ، وإذا بنسائم الألفاظ تهب عليهم . وإذا بفرح فياض يشيع في صدورهم . وإذا بالألسن تتحرك لتعبر عن استبشار النفوس . وسرعان ما انتشر الإسلام في دور الخزرج .

وفي دار عدى بن النجار راح الشيوخ والعجائز يقصون كيف جاء أبوه عبد الله ذات يوم في قافلة من قريش وقد دهمه المرض ، وكيف حمل إلى دار عدى ومكث فيها حتى مات . ويروون ذكريات قدوم امرأته آمنة بنت وهب ومعها محمد يتألق في وجهه النور . إنها ذكريات بعيدة بعث فيها نبض الحياة ما كان الفتية الذين آمنوا بربههم يروونه في إعجاب وإجلال عن محمد بن عبد الله

عليه السلام .

وتغلغل الإيمان في قلوب الذين أسلموا من الخزرج فاذا بنفوسهم التي طهرها الإسلام من الغل تفتن أن ليس من الدين أن يستأثروا بالخير وحدهم ، وأن عليهم أن يدعوا إخوانهم الأوس إلى الهدى والرشاد ، فمشوا إلى أعداء الأمس يقولون لهم :

— ظهر النبي الذي يذكر أهل الكتاب ويستفتحون به عليكم . وتذكروا تهديدات يهود كلما كان بينهم شيء : « إن نبيا مبعوثا قد أظلم زمانه تتبعه تقتلكم معه قتل عاد وإرم » . فاقبلوا على الخزرجيين يصغون فانشرح قلب بعضهم للإيمان ، فكان أول ما طرأ على المجتمع اليثربي من تغيير من الأعماق أن المسلمين من الأوس والخزرج كانوا ينسلون بعيدا عن العيون ليتشاوروا في دينهم وليقوموا بفرائض الله . بعد أن ألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وفكروا في أن يمشوا إلى أبي عامر بن صيفي وهو في الأوس شريف مطاع ليحدثوه عن النبي عليه السلام ، فليس في الأوس والخزرج رجل كان يصف النبي المنتظر مثل أبي عامر ، فهو يألف اليهود ويسألهم فيخبرونه بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد خرج إلى يهود تيماء وإلى الشام فسأل النصراني فأنخبروه بما يعرفون عن الذي بشر به عيسى عليه السلام . فرجع يقول : « أنا على دين الحنيفية » . وترهب ولبس المسوح وقال إنه ينتظر خروج النبي — صلى الله عليه وسلم — . إن كل المقدمات تشير إلى أن أبا عامر الراهب سيكون أول المصدقين برسول الله عليه السلام .

ولكن الذين أسلموا من الأوس والخزرج أحجموا عن عرض الإسلام على أبي عامر الراهب ، فقد سمع عن ظهور النبي عليه السلام بمكة ، فلماذا لم يهرع إليه ليؤمن به وينصره ؟ فخشوا أن يكون حسله ، فلو كان حلسهم حقا لكشفوا أمرهم وجعلوا من أنفسهم أهدافا لأشراف قومهم الطامعين في سلطان الأرض ، فاجاء به الدين القيم يكرهه الذين يريدون أن يعيشوا على ظلم العباد .

وهل يعرضون الإسلام على عبد الله بن أبيّ بن سلول ؟ إن عبد الله بن أبيّ يطمع في أن يضع التاج على رأسه ، أن يكون حاكم يثرب ، فهو يظهر الود لليهود ويسمع الأوس ما يحبون . وهو ضامن أن أهله من الخزرج قلوبهم معه وإنه لشيء في مصلحته أن يسود الوثام بين الأوس والخزرج ، ولن يضره شيء لو وحدث عقيدة جديدة بين الحيين المتعادين ، بل إنه يبارك هذه العقيدة لو قادته إلى عرش يثرب . ولكن من ذا يدري في أي اتجاه سيقود الإسلام السفينة التي تتجاذبها الأهواء وتلعب بها المطامع وتكاد تحرقها الخلافات ؟ أينصب الإسلام عبد الله بن أبيّ بن سلول قائدا لسفينة الإيمان أم ينحيه عن الصدارة ؟ إن المستقبل لا يزال في غيب الله وإن من الخير لمن أسلموا من الأوس والخزرج أن يكتموا دينهم وأن يعملوا على نشره سرا حتى يوافقوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في الموسم .

وأسلم من أسلم ولم تبق دار من دور الأوس والخزرج إلا فيها ذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . وجاءت الأشهر الحرم وتجهزت القوافل للسير إلى بيت الله ، واتفق اثنا عشر رجلا من

المسلمين على الخروج لملاقاة الحبيب رسول الله عليه السلام . كانوا عشرة من الخزرج واثنين من الأوس قد ملئوا شوقا إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه . وحيننا إلى الإصغاء إلى القرآن وهو يتدفق من بين شفقي الرجل العظيم الذي ملأ حبه قلوب من كان لهم حظ الجلوس إليه ، وقلوب الذين لم يروه وإن عشقوه لما سمعوا ما يتحلى به من مكارم الأخلاق .

وبلغ الثرييون البيت العتيق فطافوا به ، وراح المسلمون منهم يتلفتون يبحثون بعيونهم عمن صار أملهم . فلما رأوه أشرقت قلوبهم استبشروا قبل أن ترف بسمات الرضا على الشفاه . وراح من عرفه يمس إلى من لا يعرفه بعد . أن على بعد خطوات منهم نبهم الذي اصطفاه ربه ليبلغ رسالاته . فخفقت القلوب في الصدور وتصافحت العيون ، وإن لم تمتد الأيدي حتى لا يلحظ أعداء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن أنصارا من يثرب قد جاءوا ليلقوه فيفسدوا ما يطعمون فيه من خلوة طويلة بينهم وبين نبيهم عليه السلام .

وفي سوق مجنة راح محمد عليه السلام يعرض نفسه على القبائل وعمه من خلفه يحذر الناس أن يصدقوا جنونه فهو يهذي من أم رأسه . والثرييون يرصدون ما يجري بين الصادق الأمين وبين أهله في أسى عميق ويعجبون كيف عميت أبصارهم عن النور . وكان إذا جلس ليتلو القرآن يخفون إليه ليطفئوا نار الشوق إلى ما أنزل الله على عبده ، ولكنهم كانوا ما يكادون ينتشون بوضع آيات من الذكر الحكيم حتى يأتى كفار قريش يصفقون ويصفرون

ويرفعون أصواتهم على صوت الرسول بقصائد ماجنة هازلة ، فكانت أفئدتهم تنقبض غضبا . وكان يزيد في حنقهم أن المستهزئين لم يكونوا من أراذل القوم بل كانوا أبا جهل بن هشام والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وأمّية وأبى ابنى خلف ووجوه قریش وأصحاب الرأى فيها !

وانسابت قبائل العرب في الوديان إلى سوق عكاظ ، وسار المسلمون اليربيون مع قومهم بأجسادهم أما أرواحهم فقد كانت تهيم حول الرسول عليه السلام بعد أن أصبح تيار فكرهم والنور الذى أنار كهوف صدورهم ونبع الحكمة الذى منه يغترفون .

ونزلت القبائل على مراعيهم كل قبيلة تحت رايتها . ولأول مرة لم يشعر المسلمون اليربيون أنهم من الأوس أو الخزرج . بل إخوة للناس جميعا يرجون الخير للبشرية بعد أن استودع الله في قلوبهم الإخلاص وأشعل سراج عقولهم بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت .

كانوا فرحين بمراقبة رسول الله عليه السلام على البعد ، وكانت صدورهم تضيق لما يرون إيذاء الناس له ، وسرعان ما يغضبون بصبره على اضطهاد قومه وسفهاء الناس ، وباتوا يتلهفون على مرور الزمن ليجتمعوا به ويلقوا إليه أسماهم ويمسحوا عن صدره بطاعتهم إياه وامتثالهم لأوامره بعض ما حاق به ظلما من اضطهاد . وتدفقت الجموع إلى سوق ذى المجاز ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعرض نفسه على القبائل ويقول : « أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا .

وأُنزل على الكتاب » . ويذكر الإسلام ويتلو الرآن فيأتى أبو لهب
ويقول :

— لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب .

فيقولون :

— أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك .

فيقول فى إيمان :

— اللهم لو شئت لم يَكُونُوا هكذا .

وولت أيام الأسواق ووَافَى أَوَان الحِج فأتساب الناس إلى
البيت العتيق مشاة وركبانا ، وقد أشرقت قلوب المسلمين اليربيين
بالفرح فقد دنت الفرصة التى تجشموا من أجلها المتاعب وصبروا
صبر الخيل على اللجم حتى لا يفضح أعداء رسولهم الكريم أمرهم
إن هو إلا يوم أو بعض يوم ثم يلقون أحب أهل الأرض إلى
أفئدتهم .

وطاف الناس بالبيت وخرجوا إلى عرفات بينا بقى أهل مكة
بها لا يخرجون إعظاما للحرم وتكريما ، وخرج رسول الله عليه
السلام ومعه المسلمون مع الخارجين ، وإنها لفرصته الذهبية
للإجتماع بمن شاء دون رقيب . فأبو لهب وأبو جهل وعقبة بن أبى
معيط وسادات قريش كانوا من الخمس الذين يبيعون الناس الثياب
الظاهرة التى لا يقبل منهم حج إلا فيها !

وعند العقبة جلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى
الأنصار يتدفق منه السحر المبين . وهم يصغون إليه مستبشرين
يحسون أنه ارتفع بهم إلى السماء . وأنهم يستمعون بأسرار القلوب

إلى ما يرتل من القرآن المجيد ، وأن علوما نافعة تملأ الصدور .
إنه سما بهم حتى قرعوا أبواب الملكوت .

كانت ساعات مفعمة بالنشوة الروحية ، ولا جرم فالأفكار
مشغولة بجلال الله وعظمته وقد تحطمت كل الحواجز النفسية بينهم
وبين الله ، ونفوسهم المشرقة كانت تسعد بنبضات قلوبهم المؤمنة
التي أشرقت بنور الله . لقد أيقنوا أن الحياة دون الله لا معنى لها .
وأنه قد أصبحت لهم رسالة بعد أن كانوا يهيمون في أودية الدنوع
بلا هدف ولا أمل . وقد استولى عليهم الخوف من الغدر والاغتيال .
كانوا بين يدي الرسول الذي كان اليهود ينصرون به قبل أن
يبعث . كانوا إذا قاتلوا قوما قالوا : « نسألك بالنبي الذي وعدتنا
أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلها نصرتنا » ، فكانوا ينصرون .
كانوا يشاركونه لذة الأنس بربه ، إنها لذة لا كدر فيها . لقد
ذاقوا فاشتاقوا فطلبوا فأدركوا فتنحروا من عبودية الأهواء
والغرائز والجهل ، وسموا إلى ما وراء الحواس واستوت أبصارهم
وأرشدوا إلى الطريق .

وراح رسول الله يعاهدهم وقد تعلقته به القلوب قبل العيون :
— أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم ، ولا تشركوا
بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان
تفترونه بين أيديكم وأرجلكم . والسمع والطاعة في العسر واليسر
والمنشط والمكره . وأن لا تنازعوا الأمر أهله ، وأن تقولوا الحق
حيث كنتم لا تخافون في الله لومة لائم ، ومن ثبت ووفى فأجره
على الله . ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة

له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله عز وجل . إن شاء غفر له وإن شاء عذبه ؛

ولم تكن الحرب قد فرضت بعد على المسلمين فلم يطلب منهم أن يحاربوا معه أعداءهم . ولما كانوا جميعا تجارا فقد أطلقوا على المعاهدة بيعة تشبها بالمعارضة المالية . وقام الأنصار بعد بيعة العقبة وقد فاضت نفوسهم بالعزة . فقد خرجوا من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، وصارت لهم عقيدة سامية بعد الوثنية وكتاب منير مبارك ، فانقلبوا إلى أهلهم فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله ، والله ذو الفضل العظيم .

كانوا أربعين رجلا من الأنصار يصلون خلف أسعد بن زرارة ، وكانوا حديثي عهد بالإسلام . وخافوا أن تعود نعمة الجاهلية فيكره الأوسى أن يؤمه خزرجى أو يكره الخزرجى أن يؤمه أوسى ، وقد كان من نعمة الله عليهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يكن من أحد الحيين المتنازعين فرأوا من الخير أن يكون إمامهم من أصحاب رسول الله عليه السلام حتى يكتموا أنفاس الوسواس الخناس ويأمنوا همزات شياطين الإنس والجن على السواء .

وكتبوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الإسلام قد فشا فينا فابعث إلينا رجلا من أصحابك يقرئنا القرآن ويفقهنا في الإسلام ويعلمنا بسنته وشرائعه ويؤمنا في صلاتنا » . فبعث إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مصعب بن عمير أخا بنى عبد الدار . فنزل في بنى غنم على أسعد بن زرارة .

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير على قومهما بنى عبد الأشهل وكان أسعد بن زرارة يخشى أن يصل إليهما نبأ دعوته الناس إلى الإسلام . فجعل أسعد ومصعب والمسلمون يدعون الناس سرا ، ويفشو الإسلام في غفلة من السادة الذين يكرهون التغيير خشية أن تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

وأقبل أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير حتى أتيا مرقا أو قريبا منها وكانت قرية بعيدة ، فجلسا هنالك وبعثا إلى رهط من أهل الأرض فأتوهم مستخفين . فراح مصعب بن عمير يحدثهم ويقص عليهم القرآن وهم يصغون منتشين . وإذا برجل ينسل من بينهم وينطلق إلى حيث كان سعد بن معاذ وابن عمه أسيد بن حضير ويفشى لهما سر الرجال الذين اجتمعوا عند مصعب بن عمير .

والتفت سعد بن معاذ إلى أسيد بن حضير وقال له :

— لا أبالك ، ائت أسعد بن زرارة فازجره عنا فليكنف عنا ما نكره ، فإنه بلغنى أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب يسفه سفهاءنا وضعفاءنا . فإنه لولا أسعد بن زرارة من حيث علمت لكفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجده عليه مقدما .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد ابن زرارة قال لمصعب :

— هذا سيد قومه قد جاءك ، فأصدق الله فيه .

فنظر مصعب إلى أسيد بن حضير وهو قادم يحمل حربته :

— إن يجلس هذا كلمته .

فوقف أسيد عليهما متشمتا ، قال :

— ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعزلانا إن كانت لكما بانفسكما حاجة .

فقال أسعد بن زرارة :

— أو تجلس ؟

فقال أسيد بن حضير :

— يا أسعد ، ما لنا ولك تأتينا بهذا الرجل الوحيد الغريب
الطريد يسفه ضعفاءنا بالباطل ؟
فقال له مصعب :

— أو تجلس فتسمع ؟ فان رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف
عنك ما تكره .

كان منطق مصعب حسنا وكان صوته هادئا آسرا ، فقال
أسيد بن حضير :
— أنصفت .

ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقر
عليه القرآن فأحس رقة تغشاه وكان الدموع تخونه لتفر من عينيه .
إنه سمع فطاحل الشعراء وألقى سمعه إلى الحكماء بيد أن ما يسمعه
شيء آخر لا يمت لأهل الأرض ، شيء يجعل روحه ترفرف في
السماوات ، فما أتم مصعب ما كان يتلو حتى قال أسيد بن حضير
في انفعال :

— ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن
تدخلوا في هذا الدين ؟

— تغتسل وتطهر وتغسل ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي .
فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع
ركعتين ثم قال لهما :

— إن ورأى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ،
مسأله إليكما الآن .

ثم أخذ حربته فانصرف ، فالتفت مصعب بن عمير إلى أسعد

ابن زرارَةَ يسأله عن الرجل الذى سبيعته أسيد . فقال له :

— سعد بن معاذ .

وانصرف أسيد إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديتهم ، فلما

نظر إليه سعد مقبلا قال :

— أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى

ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى قال له سعد :

— ما فعلت ؟

— كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا . وقد نهيتهما

فقالا : نفعل ما أحببت . وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى

أسعد بن زرارَةَ ليقْتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك
ليخفروك .

وثارت فى سعد نخوة الجاهلية وغضب أن ينقض أحد عهده

فقام مغضبا مبادرا ، فأخذ الحربة من يده وقال :

— والله ما أراك أغنيت شيئا .

ثم خرج إليهما وقد رفت على شفقى أسيد بن حضير ابتسامة

رضا . فقد نجح فى أن يطلق سعد بن معاذ إلى أسعد بن زرارَةَ

ومصعب بن عمير ليسمع منهما السحر الحلال الذى تخضع له

النفوس منتشية راضية .

وأقبل سعد عليهما فلما رآه أسعد بن زرارَةَ قال لمصعب :

— لقد جاءك والله سيد من وراءه من قومه . إن يتبعك

لا يتخلف عنك منهم اثنان .

فلما رآهما مطمئنين عرف سعد أن أسيد بن حضير إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشمتا ثم قال لأسعد بن زرارة :
— يا أبا إمامة ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت مني هذا . هذا يغشانا في دارنا بما نكره .

فقال له أسعد بن زرارة :

— يا بن خالة ، اسمع من قوله فإن سمعت منكرا فاردده يا هدى منه ، وإن سمعت خيرا فأجب إليه .
ورأى مصعب بن عمير منه اللين فقال له :
— أو تقعد تسمع ؟ فإن رضيت ، أمرا قبلته وإن كرهت عزلنا عنك ما نكره .

— أنصفت .

ثم ركز الحربة والتفت إلى أسعد وقال :
— ماذا يقول ؟

فراح مصعب يقرأ : « حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم . أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين . وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فاهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين . ولئن سألناهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذي جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على

ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويت عليه وتقولوا : سبحان
الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون » (١) .
واستمر مصعب يتلو سورة الزخرف وسعد بن معاذ يصغى
وهو مأخوذ : وأسعد بن زرارة يقرأ الانفعالات في وجهه .
فيستشعر رضا فقد فعل القرآن في ابن الحالة الأفاعيل . ثم قام
سعد بن معاذ وهو شارد فأخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه .
فلما رآه قومه مقبلا قالوا :

— نحلف بالله لقد رجع إليك سعد بغير الوجه الذى ذهب به
من عندكم . فلما وقف عليهم قال :

— يا بنى عبد الأشهل . كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

— سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا وأبركنا نقيه وأمرا .

— فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله
ورسوله .

وسرت همهمة بين الناس فقال :

— من شك فيه من صغير أو كبير فليأتنا بأهدى منه ، فوالله
لقد جاء أمر لتحزّن فيه الرقاب .

وراح سعد بن معاذ وأسيد بن حضير يشرحان الإسلام
ويتلوان على الناس ما حفظا من القرآن . وكثر الحذب والشدة واشتد
الجدل . وقد أراد الله لبنى الأشهل الهداية فأتى في قلوبهم أنوار
اليقين . فوالله ما أمسى في قبيلة بنى الأشهل رجل ولا امرأة إلا
مسلمة ومسلمة .

وقاموا إلى أصنامهم يحطمونها وجعلوا تماثيل الآلهة جذاذا ،
فضايق ذلك الكافرين من بني النجار فاشتدوا على أسعد بن زرارة ،
وما زالوا به حتى أخرجوا مصعب بن عمير من عنده فانتقل إلى
سعد بن معاذ . إلى حيث القوة والمنعة . فلم يزل يدعو ويهدى على
يديه حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس . وأسلم
أشرافهم وأسلم عمرو بن الجموح .

كان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بني سلمة وشريفا من
أشرافهم . وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يمثل مناة إلهة
الأوس والخزرج . فلما أسلم فتیان بني سلمة معاذ بن جبل وابنه
معاذ بن عمرو بن الجموح في فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة .
كانوا يُدِلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه
في بعض حفر بني سلمة . وفيها فضلات الناس منكسا على رأسه .
فإذا أصبح عمرو وذهب ليتمسح بالصنم فلا يجده فيقول :

— ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال :
— أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيته .

فإذا أمسى وقام عمرو عدوا عليه ففعل به مثل ذلك . فيغدو
فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى . فيغسله ويطهره ويطيبه ،
ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك . فلما أكثروا عليه
استخرجوه من حيث ألقوه يوما فغسله وطهره وطيبه . ثم جاء بسيفه
فعلقه عليه ثم قال :

— إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى . فإن كان فيك خير
(الهجرة)

فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأتخذوا السيف من عنقه ،
ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ثم ألقيوه في بئر من آبار بني سلمة ،
فيها عذر من عذر الناس ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجد في
مكانه الذي كان به .

فخرج يتبعه وابنه معاذ يحاول أن يهون له من شأن إلهه وأن
يجبه إلى الإسلام فكان يعرض عن ابنه مغضبا ، وغدا ينقلب عن
إلهه والمسلمون يزينون في قلبه دين الله فيثور في وجوههم وإن كان
كلامهم ينزل بسويدان فؤاده ، واستمر في بحثه حتى وجده في تلك
البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه قال :

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن
أف للمفالك إلها مستند الآن فتشاك عن سوء الغيبين
الحمد لله العلي ذي المنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبر مرتين .

بأحمد المهدي النبي المُرْتَمَن

وبقي جماعة من الأوس بن حارثة على كفرهم ، فقد كان فيهم
أبو عامر بن الصبيح الراهب وكان شاعرا لهم يسمعون منه ويطيعونه .
ولا غرو فقد كان قوالا بالحق معظما قد ترهب ولبس المسوح
واغتسل من الجنابة ، ودخل بيتا فاتخذ مسجدا وقال :

— أعبد إله إبراهيم . —

لا يدخل فيه حائض ولا جنب ، وزعم أنه على دين الحنيفة .
تري هل يسلم لما يأتي إلى يثرب من بعثه الله بشيرا ونذيرا ليعيد إلى
الحنيفية نقاءها وسماحتها ؟

خرج الأنصار في حجاج قومهم من المشركين ومعهم البراء بن معرور سيدهم وكبيرهم . وكان البراء في شوق للقاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد آمن به قبل أن يراه : ورجع مصعب ابن عمير إلى مكة مع من خرج من المسلمين من الأنصار إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فكانت كل فئة من المسلمين تنطلق مع أهلها . وما خرجوا جميعا تحت راية واحدة حتى لا يوغروا صدور ساداتهم وحتى لا يكونوا هدفا لعداوات لا طائل تحتها :

خرجوا من يثرب ، وبيننا هم في الطريق التفت البراء إلى كعب بن مالك وقال له :
 — إني قد رأيت رأيا ما أدرى أتوافقوني عليه أم لا .
 — وما ذاك ؟

— رأيت أن لا أَدع هذه البنية (الكعبة) مني بظهر ، وأن أصلي إليها .

— والله ما بلغنا أن نبينا — صلى الله عليه وسلم — يصلي إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه ؟

كانت قبلتهم بيت المقدس ، ولكن البراء بن معرور رأى أن الحرم أولى بأن يكون لهم قبله فقال :

لإني أصلي إليها .

— ولكننا لا نفعل .

وحضرت الصلاة فصلى المسلمون إلى بيت المقدس واستدبروا الكعبة ، وصلى البراء وحده إلى الكعبة مستدبرا الشام ، وظلوا على هذا الأمر حتى قدموا مكة وكانوا قد عابوا عليه ذلك وأبى إلا الإقامة على ذلك . فلما قدموا مكة قال البراء بن معرور لكعب بن مالك :

— يا بن أخي انطلق بنا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى أسأله عما صنعت في سفرى هذا . فإنه والله لقد وقع في نفسى منه شيء لما رأيت من خلافكم إياى فيه .

فخرجوا يسألان عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكانا لا يعرفانه لأنهما لم يرياها قبل ذلك . فلقيا رجلا من أهل مكة فسألاه عن رسول الله عليه السلام فقال :

— تعرفانه ؟

— لا .

— فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟

— نعم .

كانا يعرفان العباس فقد كان لا يزال يقدم عليهم تاجرا ، قال الرجل :

— فإذا دخلتما المسجد فإذا هو الرجل الجالس مع العباس .

ودخلا المسجد وقد ازدحم بالرجال الذين جاءوا من أنحاء جزيرة العرب للتجارة وتأدية مراسم الحج . فراحا يتقبان عن العباس بأعينهما وهما يحسان قلعا لذيذا منتشيا . فعما قليل يجلسان

إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه الذى يكلم من السماء .
ورأيا العباس فراحا يتقدمان إليه ، وغدبا يتفرسان فى وجه
الرسول الكريم عليه السلام وقد خفقت قلوبهم رهبة وحبا وأملا
وانداح فى صدرهما انشراح . وفطن النبي عليه صلوات الله وسلامه
إلى أنهما قادمان إليه فقال للعباس :

— هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟

— نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .
— الشاعر ؟

وأثليج صدر كعب فرسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد
سمع به وبشعره ، وحيا البراء وكعب رسول الله — صلوات الله
وسلامه عليه — بتحية الإسلام فرد بأحسن منها . وما إن مس
صوته آذانهما حتى أحسا الرأفة تنتشر فى وجدانهما . فجلسا إليه
ماخوذين بعظمته . وظلا يصغيان إلى سحر بيانه ، ثم قال البراء :

— يا رسول الله إني قد خرجت فى سفرى هذا وقد هداني الله
إلى الإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر فصليت إليها
وخالفني أصحابي فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شيء ،
فماذا ترى يا رسول الله ؟

— قد كنت على قبلة لو صبرت عليها .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وجعل
يصلى مع إخوانه فى الدين إلى بيت المقدس ، وجاء مصعب بن
عمير إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام متهلل الوجه . ثم راح
يخبره بمن أسلم من الأنصار والرسول عليه السلام يصغى إليه وقد

غمره السرور ، فقد لاحت تباشير النصر بعد طول الترقب والانتظار .

وواعد الأنصار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — العقبة ، وكانوا يكتُمون من معهم من قومهم من المشركين أمرهم ، وكان فيهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتهم فكلّموه وقالوا له :

— يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غدا .

وغدوا يدعونه إلى الإسلام حتى شهد شهادة الحق وصلى معهم ، وأخبروه بميعاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وانقضى يوم النضرة الأول وجاءت الليلة التي واعدوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فمكثوا تلك الليلة مع قومهم في رحلهم حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا من رحلهم لميعاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطامستخفين لا ينبهون نائماً ولا ينتظرون غائباً كما أمرهم الرسول عليه السلام .

واجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانوا ثلاثاً وسبعين رجلاً وامرأتين : نسيبة أم عمارة من بني النجار وأم منيع أسماء بنت عمر بن عبد الله . فما زالوا ينتظرون رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو على دين قومه ، ليس معه غيره ، وقد أوقف العباس علياً على فم الشعب عينا له وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عينا .

أكان العباس على دين قومه حقاً وأبه أحب أن يحضر أمر

ابن أخيه ويتوثق له ، أم أن العباس قد أسلم سرا، وأنه كتم إسلامه نزولا على رغبة ابن أخيه ليكون قلم مخابراته في مكة إذا ما اضطرب رسول الله عليه السلام يوما إلى أن يهاجر من مكة ؟ إن زوجه أم الفضل أسلمت بعد أن حدثتها خديجة مباشرة حديث الملك الذي نزل على زوجها الأمين بغار حراء ، وقد ظلت العلاقة طيبة بين أم الفضل والعباس بعد ذلك ، ترى أكانت أم الفضل ترضى أن يبقى العباس على كفره وأن تظل على حبها إياه وإجلاله ؟ وإذا ما حرم الإسلام فيما بعد أن تظل الزوجة المسلمة مرتبطة بزوجها الكافر ، أتهجر أم الفضل العباس أم تظل في بيته ؟
وجلسوا فكان العباس أول المتكلمين فقال :

— إن محمدا منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه وما نعوه من خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور :

— إنا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه .

فقال العباس :

— قد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد

وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة فأروا رأيكم واثمروا بينكم ولا تفرقوا إلا عن ملائمتكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

— قد سمعنا مقاتلتك ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

— خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك ما شئت .

— أشترط لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .
ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم .
فقال ابن رواحة :

— فاذا فعلنا فالنا ؟

— لكم الجنة .

— ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل . نبايعك :

— فأخذ البراء بن معرور بيده — صلى الله عليه وسلم — ثم قال :
— نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرتنا (نساءنا وأنفسنا) . فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة (السلاح)
ورثناها كابراً عن كابر .

— وبينا البراء يكلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال :
أبو الهيثم بن التيهان :

— نقبلك على مصيبة المال وقتل الأشراف .

— كان الحماس قد أخذ بالرجال فارتفعت أصواتهم . فقال
العباس :

— أخفوا جرسكم فإن علينا عيوننا .

ثم قال أبو الهيثم :

— يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (يعني اليهود) حبالا
(عهودا) وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك
الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال :

— بل الدم الدم والهدم الهدم (١) .

وتحركت عواطف العباس فقال :

— عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم ،
في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم ، لتجدن
في نصرته ولتشدن من أزره .

قالوا جميعا :

— نعم .

قال العباس :

— اللهم إنك سامع شاهد ، وإن ابن أخي قد استرعاهم ذمته
واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن أخي عليهم شهيدا .

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

— أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم

بما فيهم .

فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فمن الخزرج
أسعد بن زرارة نقيب بني النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن
رواحة نقيبا بني الحارث بن الخزرج . ورافع بن مالك بن العجلان

(١) ان طلب دمكم فقد طلب دمي ومنزلكم منزلي .

نقيب بنى زريق ، والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام
نقيبا بنى سلمة ، وعبادة بن الصامت نقيب بنى عدلى من الخزرج ،
وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو نقيبا بنى ساعدة . ومن الأوس
أسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل ، وسعد بن خيثمة ورفاعة
ابن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف .

وقال — صلى الله عليه وسلم — لهؤلاء النقباء :

— أنتم كفلاء على غيرهم ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ،
وأنا كفيل على قومي .

وأخذ أسعد بن زرارة وكان أصغرهم بيد النبي — صلى الله عليه
وسلم — وقال :

— رويدا يا أهل يثرب ، إنا لن نضرب إليه أكباد الإبل إلا
ونحن نعلم أنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وإن إخراجهم اليوم
مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم وأن تعطبكم السيوف ، فإما أنتم
قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خياركم ، ومفارقة العرب كافة ،
فخذلوه وأجركم على الله تعالى ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة
فليزوه فهو عذر لكم عند الله عز وجل .
وقال العباس بن عبادة بن نضلة :

— يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟
إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإذا كنتم
ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه
فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم
ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على ما ذكرت لكم ، فهو

والله خير الدنيا والآخرة .

— رضىنا . ابسط يدك .

فبسط يده — صلى الله عليه وسلم — وتقدم الرجال للمبايعة ،
قال أبو الهيثم :

— 'أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر نقيبا من
بنى إسرائيل موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام .

وقال عبد الله بن رواحة :

— 'أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من
الحواريين عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

وقال أسعد بن زرارة :

— 'أبايع الله عز وجل يا رسول الله ، فأبايعك على أن أتم عهدى
بوفائى وأصدق قولى بفعلى فى نصرى .

وقال النعمان بن حارثة :

— 'أبايع الله عز وجل يا رسول الله ، وأبايعك على الإقدام
فى أمر الله عز وجل لأرأف فيه القريب ولا البعيد .

وقال عبادة بن الصامت :

— 'أبايعك يا رسول الله على أن لا تأخذنى فى الله لومة لائم .

وقال سعد بن الربيع :

— 'أبايع الله وأبايعك يا رسول الله على ألا أعصى لكما أمرا
ولا أكذبكما حديثا .

كان القمر يبعث أشعته الفضية فيكسو منى وجبالها بأثواب من
لجين ، وكانت العقبة غارقة فى الضوء ، ولكن النور الذى أشرق

من صدور الأنصار كان يبهز كل ضياء . ولا جرم فقد كانوا على نور من ربهم قد دنوا من السماء وإن كانت أقدامهم ثابتة في الأرض . كانوا على علم بأن اللحظة هي أروع لحظات حياتهم وأخطرها . ولكن لم يخطر لأحد منهم على قلب أن تلك اللحظة كانت أخطر لحظة في تاريخ البشرية ؛ إنها طلائع النور الذي سيدد ظلمات الصدور ؛ إنها ينبوع الاستنارة الدنية الذي سيتدفق بالخير ليغسل أدران الأرض ؛ إنها كنوز الرحمة والصلاح ؛ إنها خزائن الملكوت قد فتحت للناس ؛ إنها الحرية المتعالية ؛ إنها إشراق الوجود بالاندماج في الوجود ، إنها بداية طريق كرامة الإنسان والصراف المستقيم للعالمين .

وكان العباس بن عبد المطلب يصغى إلى ما يدور بين ابن أخيه عليه السلام والأنصار وهو في دهش من أمر الناس الذين يبائعون على محاربة الأسود والأحمر وعداوة العرب قاطبة وهم متهللون بالفرح . كأنما كانوا يدعون إلى متعة من متع الحياة .

وإذا بصوت يصيح من رأس الجبل يقطع على الجميع تفكيرهم :
— يا معشر قريش ، هذه بنو الأوس والخزرج تحالف على قتالكم .

ففرغ الأنصار فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :
— لا يروءكم هذا الصوت .

وقال العباس بن فضلة للرسول عليه السلام :

— والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا
بأسيافتنا .

فقال عليه السلام :
— لم أؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .
فرجعوا إلى مضاجعهم فناموا .
وبلغ الصوت عمرو بن العاص وأبا جهل فهما من نومهما ،
وانطلقا إلى عتبة بن ربيعة وهما مرعوبان وقالوا :
— سمعنا صوت منبه بن الحجاج يصيح : هذه بنو الأوس
والخزرج تحالف على قتالكم .
فلم يرع عتبة ما راع أبا جهل وعبرو بن العاص فقال في
هدوء . لكأنما كان يخشى أن يقر النوم من عينيه :
— هل أتاكم فأخبركم بهذا منبه ؟
— لا .

ولم يهدأ بال أبي جهل فجمع مشيخة قريش ثم انطلق حتى
دخلوا شعب الأوس والخزرج فقالوا :
— يا معشر الأوس والخزرج . بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا
لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا . والله ما من حى
أبغض إيماننا أن تشب الحرب بيننا وبينه منكم .
فراح مشركو الأوس والخزرج يحلفون لهم ما كان من هذا شيء
وما علمنا ، وجعل عبد الله بن أبي بن سلول يقول في انفعال :
— هذا باطل . هذا باطل . وما كان هذا وما كان قومي ليفتاتوا
على بمثل هذا لو كنت بيثرب . ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني .
ونفر الناس من منى . والتقى منبه بن الحجاج بوجوه قريش
وأخبرهم خبر بيعة العقبة فأيقنوا أن خبر الأنصار حق . فافتنوا

آثارهم فلم يتركوا إلا سعد بن عبادۃ والمنذر بن عمر وكانا قد تخلفا لبعض شائتهما في مكة ، فأمسكوا سعدا وربطوا يديه في عنقه وراحوا يلطمونه على وجهه ويجذبونه من شعره الكثيف حتى أدخلوه مكة وبيننا هو مع القوم يضرب إذ طلع عليه رجل أبيض وضىء طويل زائد الحسن ، فقال في نفسه : « إن يكن عند أحد من القوم خير فعند هذا » . فلما دنا منه رفع يديه ولكمه لكمة شديدة . فقال سعد في نفسه : « والله ما عندهم بعد هذا خير » وكان الرجل سهيل بن عمرو .

ورآه أبو البختری بن هشام وهو يعذب ، فقال له همسا :

— ويحك ! ما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟

فقال في جهد :

— بلى ، كنت أجير لجبير بن مطعم تجارته وأمنهم ممن أراد

ظلمهم ببلادى ، وللحرث بن حرب بن أمية .

— ويحك فاهتف باسم الرجلين .

فهتف سعد بن عبادۃ :

— يا لجبير بن مطعم ! يا للحرث بن حرب !

وهرع أبو البختری إلى حيث كان جبير والحرث في الحرم ،

فقال لهما :

— إن زجلا من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسمكما .

— من هو ؟

— يقول إنه سعد بن عبادۃ .

وانطلق جبير بن مطعم والحرث بن حرب بن أمية أخو

أبى سفيان إلى الأبطح ، وأجارا سعد بن عباد وخلصناه من أيديهم -
وكان المنذر بن عمر قد أحس أنهم يطلبونه فأقلت منهم ، وخرج
سعد بن عباد من مكة يغذ السر ليلحق بإخوانه من الأنصار :
« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في
التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم
الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي
كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي
أنزل معه أولئك هم المفلحون » (١) .

راح الإسلام ينتشر في القبائل بفضل مبادئه القويمة السمحة ، ولم تكن هناك قوة في الأرض تفرضه أو تسانده ، بل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه الذي اصطفاه ربه لتبليغ رسالته في مكة يحتمل في صبر السخرية والتعذيب والتكذيب ، لم يكن في يده سيف وكان أتباعه أضعف من أن يثوروا على أشراف مكة وأن ينتزعوا السلطة من أيديهم .

كان الإسلام نورا يتسلل إلى أفئدة الذين أراد الله بهم خيرا . وكان الكافرون الأقوياء يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . لم يكن هناك إمبراطور قد دخل في الدين الحديد ففرضه على هواه على الناس بالحديد والنار . ولم تكن هناك إمبراطورية يعمل النبي عليه السلام لبعثها ، وما عرف العرب من قبل ما الإيمان وما الكتاب . بل كانت رسالة من السماء تمد الناس بغذاء روحى يقضى على العقم الروحى الذى جعلهم يضربون في بيداء الحياة كالأنعام .

كان رسول الله عليه السلام يحاول دائما أن يلقي أضواء الاستنارة الروحية على كل عمل من أعمال أتباعه . وأن يسبر غور لحجهم النفسية . وأن يحطم الحواجز بينهم وبين الله . وأن يكشف نفوسهم في نور الله . وأن يحررهم من العبودية والذلة والمسكنة ،

وأن يغرس في وجدانهم النزوع إلى الحرية والكرامة والعزة والنزاهة المطلقة .

وانقسمت مكة إلى معسكرين : معسكر يعتمد على قوته ونفوذه وأمواله قد أطلق رجاله ونساؤه لأنفسهم العنان بعد أن أقنعوا ذواتهم بأنهم يعيشون وفقا للطبيعة ففتحوا الأبواب لشهواتهم وأحقادهم ، ومعسكر يعتمد على الله لا يطمع من الدنيا إلا في رضى الله فبذل رجاله ونساؤه أقصى الجهود لضبط أنفسهم والسيطرة على ذواتهم ونشدان تنظيم شهواتهم بعد أن تعلموا أن أفضل الجهاد جهاد النفس . وقد بعثت فيهم ملكة الإبداع بمحاكاة رسول الله عليه الصلاة والسلام فقد كان لهم فيه أسوة حسنة . فهو أفضل شخصية مبدعة جاد بها الزمان .

كان يتلقى الوحي من ربه فيأخذ عنه الناس علم الدنيا والآخرة والحكمة النازلة من السماء . وكان في ذات الوقت على خلق عظيم تهوى إليه الأفئدة وتتأثر بذاته الحصبة العميقة وتغترف من كنوز مكارم أخلاقه . فكل من احتك به من أتباعه كان يثرى وتكتسب ذاته عمقا وخصبا . ومن كان يلقي سمعه إلى ما جاء به من تعاليم السماء يستشعر كأن المعارف قد أريقَت في عين ذاته . وأن بذور الطهارة قد بذرت في أعماقه . وأن نموه الروحي يشتد ويقوى حتى يتمحكم في إرادته فيصبح أكثر بكثير مما يبديه جسمه أو يراه منه الآخرون .

وكان أتباعه مبغثرين في الأرض قد فروا إلى الله من الاضطهاد والتعذيب . فكان الأحبة وقلذات القلب هناك في الحبشة . وكان

- الهجرة -

فى دوس فى اليمن الطفيل بن عمرو وأبوه وأمه وزوجه وأبو هريرة
وبعض من شرح الله قلوبهم للإسلام . إن الطفيل وقومه ما كانوا
قادرين على نصره نبيهم عليه السلام ، كل ما كان يفعله الطفيل أن
يأتى رسول الله يشكو إليه لإبطاء قومه عليه ، أو يقول له :
— يا نبي الله إنه قد غلبنى على دوس الزنا (١) ، فادع الله
عليهم .

فيقول النبي عليه السلام فى رقة :

— ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

وكان الإسلام قد انتشر فى غفار وأسلم ، وكاننا قبيلتين
لا تستطيعان أن تقفا فى وجه العرب ترميهما عن قوس واحدة . وكان
الأنصار يترقبون فى يثرب خشية أن يبطش بهم ساداتهم قبل أن
يوثمن بعض أكابرهم ، وقبل بيعة العقبة التى أعز الله بها المؤمنين
والإسلام .

كان أتباعه لتبعثرين فى الحبيشة غرباء ، وفى المدن والقبائل
ضعفاء ، وقد اشتغل المسلمون فى الحبيشة بالتجارة فعرفوا الاستقرار ؛
ولكن كانت قلوبهم معلقة بمكة ... بأُم القرى ... بالبيت العتيق ...
بالأهل والخلان والصحاب ، فما كان يأتى من مكة خبر بأن الله
أعز رسوله عليه السلام بأنصار حتى يهرع من برحهم الشوق إلى
الأحبة بالعودة إلى أحب أرض الله إليهم ، وقد عاد عثمان بن عفان
ورقية بنت الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأبو سلمة عبد الله
ابن عبد الأسد المخزومي أخوه من الرضاع وابن عمته ، وأُم سلمة

(١) الزنا : لهم مع شغل قلب وبصر .

وابنهما سلمة وبعض المسلمين ممن حنوا إلى العودة .

وقدم أبو سلمة وأهله من الحبشة لمكة وهو يحسب أن سيعيش بين قومه ناعم البال ، فاذا بأعداء الإسلام يبطشون به ولا يكفون عن إيذائه ، فأراد الرجوع إلى الحبشة ، وقبل أن يتجهز للرحيل بلغه إسلام من أسلم من الأنصار الذين بايعوا البيعة الأولى فعزم على أن يهاجر إلى إخوان له في الإسلام في يثرب ، فأعد بعيره وحمل عليه أم سلمة وابنها سلمة في حجرها وخرج يقود البعير ، وراه رجال من قوم أم سلمة فقاموا إليه وقالوا :

— يا أبا سلمة قد غلبتنا على نفسك ، فصاحبتنا هذه علام تركت تسير بها في البلاد ؟

ثم نزعوا خطام البعير منه فجاء رجال من قوم أبي سلمة وقالوا :
— إن ابننا معها ، فاذا نزعتموها من صاحبنا نزع ولدنا منها :
ثم تجاذبوه وأبو سلمة ينظر وقلبه يقطر دما ، وضلوا يشدون الغلام حتى خلعوا يده ، وأخذوه قوم أبيه . وسار أبو سلمة وحده كسيف البال كسير الفؤاد قاصدا يثرب بعد أن فرق قساة الأكباد بينه وبين زوجته وولده .

وراحت أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح فتبكي حتى المساء ، وقد رق قلب المسلمين لها ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا أمام طغيان شياطين قريش الأقوياء ؟ ومرت الأيام والأشهر وتصرفت سنة فمر بها رجل من بني عمها فرأى ما بها فرحمها وقال لقومها :
— أما ترحمون هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين ولدها وزوجها .
فقالوا لها :

— الحق بزوجهك .

فلما بلغ ذلك قوم أبي سلمة ردوا عليها ولدها ، وفي غمرة الفرح أخذت بعيرا وجعلت ولدها في حجرها وخرجت تريد المدينة وحدها وما معها أحد ، فقد عزمتم على أن تفر إلى الله في رعاية الله . حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة . فلما رآها قال لها :

— إلى أين ؟

— إلى زوجي .

— أو ما معك أحد ؟

— لا . ما معي إلا الله وأبني هذا .

— والله لا أتركك .

ثم أخذ بخطام البعير وسار معها . فكانا إذا وصلا المنزل أناخ بها ثم استأخر . فإذا نزلت جاء وأخذ بعيرها فحط عنه ثم قيده في الشجرة . ثم أتى إلى شجرة فاضطجع تحتها . فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرها فرحله وقدمه . ثم استأخر عنها وقال :

— اركبي .

فركبت فأخذ بخطامه فقادها إلى المدينة . حتى إذا وافى على قباء قال لها :

— هذا زوجك هنا .

ثم انصرف وذهبت أم سلمة تنقب عن زوجها ملهوفة ، حتى إذا ما وجدته انهمرت العبرات من مآقيها . وكان لقاء بين أول من هاجر إلى يثرب وأول مهاجرة في سبيل الله ورسوله .

ودخل عثمان بن عفان ورقية بنت الرسول عليه السلام مكة وقد تفرقت الدموع كاللؤلؤ في عيني رقية ، واشتد وجيب قلبيهما ، وطافت بهما لهفة على لقاء الأحباب . ولكن رقية سرعان ما نزل بها حزن ولاح في وجهها الأسى ، فهي مقبلة على الدار وقد خلعت من الطاهرة الحبيبة وعهدا بها تملأ الكون حياة ، إنها لتذكر يوم أن نعى الناعى إليها أم المؤمنين . لقد بكيت حتى كادت كبدها أن تتصدع من البكاء ، وقد جاء إليها عثمان يواسيها فعز العزاء . حزنت لموت أمها وأشنقت على أبيها عليه السلام من مرارة الفراق ، فقد كانت على يقين من أن حاضنة الإسلام كانت كل شيء للرسول صلوات الله عليه بعد الله ، وإنها الآن وهي في طريقها إلى الحرم تنمزق من لوعة الأسى ، فهي تحس أن سودتها ستجدد الأحران ، وإن لمسا في وجودها بينهم بعض العزاء .

وإنسابا إلى الحرم فراحا يلتفتان في ذهول إلى الكعبة وبئر زمزم وجبال مكة ، وقد غدت أعينهما تلثم كل ما تقع عليه في حنان ، حتى حمام الحمى وهو يدرج في صحن المسجد حرك فيهما الأشواق .
الأخشبان .. الصفا والمروة .. باب ابراهيم .. باب بنى مخزوم ..
أبواب بيوتات قريش .. سوق مكة .. الحجون .. كل شيء جميل إلا هذه الأصنام القائمة في أطهر بقعة من الأرض . وأحس عثمان رغبة طاغية في أن يسجد ويلثم تراب البيت العتيق . ولكنه قاومها وجعل يطوف بالبيت . وقد غسلت وجهه الدموع .

وطافت رقية وما أتمت طوافها حتى خفت إلى بئر زمزم تطفي ظمأها . ثم سارت مع زوجها لتخرج من الحرم إلى سوق العطارين

حيث دكان أنى طالب ، ومخازن أسماء بنت مخزومة أم أبى جهل وعبد الله بن أبى ربيعة ، ومنازل عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، والحكم بن أبى العاص عم عثمان الذى آذاه هو وعقبة زوج أمه حتى اضطراه إلى الخروج إلى الحبشة فرارا بدينه ، والعاص ابن وائل ، ومنبه بن الحجاج ، وأبو لهب بن عبد المطلب ، وابنى خلف .

وكانت تمتد عينها إلى تلك الدور فتحس انقباضا وراحة ، انقباضا لعداوة هؤلاء الملائ لأبيها عليه السلام عداوة لا يحركها إلا الحسد والحقد والغيرة ، وراحة لأن ما من بيت من هذه البيوتات إلا وقد آمن منه بالله ورسوله ابن من أعز أبنائه فرد سخرية الساخرين إلى نحورهم . فلو لم يكن ما جاء به أبوها عليه السلام الحق من ربه لما كفر أبناء الرؤس بدين آبائهم .

ووقعت عينها على الدار الغالية ، الدار التى شهدت فيها أحلى أيام عمرها ، دار خديجة ، دار الوحي والإيمان ، فحقق قلبها بين ضلوعها كجناح حمامة ، وانتشرت فى جوفها مشاعر متباينة كانت مزيجا من الرهبة واللهفة والحزن والفرح والقلق ، حتى اختلطت لإحساساتها ولم تعد تدرى حقيقة عواطفها . وفطن عثمان إلى اضطرابها فنزل فى الدرج ثم دق الباب ، وما لبث أن فتحه غلام من الدار ، وفى مثل البرق انتشر فى البيت خبر قدوم رقية وعثمان ، فراحت أم كلثوم وفاطمة ومن كان هناك يستبقون إليهما ، وتعانقت الأخوات وسالت العبرات ، وفى مثل لمح البصر استيقظت الذكريات ، وأحس الجميع غياب الأم الحنون فانفجرت باكيات .

وجاءت سودة بنت زمعة ثقيلة في خطواتها ، وراحت ترحب بعقدميها وتسألها عن تركا خلفهما في الحبشة ، فقد كانت سودة هناك قبل أن تعود مع زوجها السكران أخى سهيل بن عمرو ، وكانت تمضى أغلب أوقاتها مع رقية يتذاكران أمر الدين :

لم تحلم سودة في يوم ما بأن تكون زوجة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأن تصبح أم المؤمنين ، وما كان ذلك يخطر لرقية على بال ، ولولا عطف رسول الله عليه السلام على ما أصابها من الترميل بعد موت زوجها وتقديره لما احتملت في سبيل الله ورسوله من آلام ، ما دخلت بيته عليه السلام لتملاً الفراغ الذى خلفته سيدة نساء قريش . تملاً الفراغ الذى خلفته خديجة ؟ هيهات ! إن رقية واثقة من أن نساء الأرض ليعجزن عن أن يجعلن رسول الله عليه السلام ينسى أيام خديجة التى صدقته لما كذبه الناس ، وآمنت به لما كفر به الناس ، وواسته لما عزت المواساة ، وكانت له وزير صدق على الدوام .

وساروا في الممر الطويل ثم صعدوا في الدرج فاذا بقلب رقية ينقبض ، فعما قليل ستقع عيناها على غرفة الأم الرؤوم . وجعلت تقاوم حتى لا تنهار ، وسارت معهم وهى غائبة عنهم بما يعمل في نفسها من انفعالات ، إن الدموع تبلل روحها ، وإن وقدة نار قد استقرت في حنجرتها حتى لم تعد تقوى على الكلام ، وفجأة نددت منها صرخة أعقبها نداء حنون لكأنما كان خنجرا مزق الأكباد :

— أماه ! أماه !

وبكت أم كلثوم ورقية ، ومسحت سودة الدموع في صمت ، واستولت على عثمان رقة فانتحب ، فقد كانت خديجة رمزا للوفاء والجهاد والصبر والكفاح والإيمان الصادق المتبصر ، وما كانت ترجو إلا رضى الله والله عنده حسن الثواب .

وبلغ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن عثمان ورقية قد رجعا من الحبشة فاذا بوجهه مسفر ضاحك مستبشر . وإذا بالحنان يتدفق من قلبه ، وإذا به يوسع الخطو ليسعد بقاء الحبيبين رقية وعثمان ويطنى نار الشوق إلى من أحس وطأة قسوة فراقهما بعد ذهاب خديجة الذى خلف الأشجان .

وهرع حليف الأحزان إلى الدار ليفرح لحظات بخلاوة اللقاء . ويلقى سمعه منتشيا إلى رقية وعثمان وهما يتحدثانه حديث الإسلام فى الحبشة وما كان من أمر النجاشي لما تليت عليه : « ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » . فان الذين راهنهم أبو بكر الصديق من كفار قريش على نصر الروم : بدءوا يسخرون منه ومن القرآن ، فالفرس لا يزالون هم الظاهرون .

وضم الرسول عليه السلام رقية إليه وغمرها بقبالاته . ثم أخذ عثمان بن ذراعيه وقد لاح على الجميع التأثر العميق . ثم جلسوا يصغون إلى رقية وعثمان وهما يرويان حديث الحبشة والنجاشي والمسلمين .

وغدا عثمان مختلف إلى نوادي المسلمين حيناً ويعمل في التجارة أحياناً ويرعى حدائقه في الطائف . وقد رأى النبي عليه السلام أن بعض المسلمين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة فآخى بينهم على الحق والمساواة ، فآخى بين أبي بكر وعمر ، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير وابن مسعود ، وبين عبادة بن الحارثة وبلال . وبين مصعب ابن عمير وسعد بن أبي وقاص . وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله ، وبين علي ونفسه — صلى الله عليه وسلم — وقال :

— أما ترضى أن أكون أخاك ؟

فقال علي في ابتهاج :

— بلى يا رسول الله رضيت .

— فأنت أخي في الدنيا والآخرة :

استمر كفار قريش في إيذاء المسلمين ، واشتدت عدائهم ضراوة لما أيقنوا أن محمدا عليه السلام قد بايع الأوس والخزرج على أن يمنعه فيما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنهم قد قبلوه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فجاء المسلمون إلى نبيهم عليه صلوات الله وسلامه يشكون ما يلقون من اضطهاد فقال لهم :

— إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها .

وكان ذلك أمرا لمن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى يثرب . والهجرة إليها ، فحمل عامر بن ربيعة حليف عدى بن كعب امرأته ليلي بنت أبي حثمة بن غانم ، وفي هجعة الليل أنسل بها في غفلة من قريش إلى يثرب ، فلما أصبح القوم لم يحسوا غيابها ، فما كان إلا رجلا واحدا وامرأته ، وما كان غياب اثنين ليلفت الأنظار إلى الهجرة .

وخرج عبد الله بن جحش حليف بني أمية بن عبد شمس بأهله وبأخيه عبد بن جحش ، وكان رجلا ضرير البصر وكان يطوف مكة بغير قائد ، وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب : فلما أشرقت الشمس ودبت الحياة في طرقات مكة ولم يظهر بها عبد بن جحش ارتاب الناس وانطلق أبو سفيان إلى دار ابنته فعلم أنها هاجرت إلى يثرب ، ففطن إلى أن أتباع محمد عليه السلام

لأنما يلحقون باخوانهم في الدين ، ووضحت له خطورة الأمر فذهب إلى نادى قريش يقص عليهم مخاوفه ، فاتفق القوم على أن يرقبوا أتباع محمد عليه السلام وأن يمنعوه من الخروج إلى يثرب حتى لا يشتد ساعد الإسلام هناك ويصبح خطرا على تجارتهم .

كان المسلمون يخرجون جماعات ، فلما راحت قريش ترصد طريق يثرب أخذوا ينسلون آحادا ، فخرج عمار بن ياسر وبلال ابن رباح وسعد بن أبى وقاص مستخفين حتى نزلوا على الأنصار في دورهم فأووهم وواسوهم . وكانت قرية بنى عمرو بن عوف بقاء تستقبل الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وكان الأنصار يلقون أسماهم إليهم مستبشرين فهم أصحاب نبيهم الذين تلقوا عنه العلم والحكمة وحفظوا عنه القرآن المجيد :

وراح عمر بن الخطاب يتأهب للخروج فجاء هشام بن العاص وعياش بن أبى ربيعة وواعداه أن يهاجرا معه وقالوا :
- الميعاد بيننا المناصف ميقات بنى غفار ، فمن حبس منا لراياتها فقد حبس فليمض صاحبه .

كان هشام يخشى قومه فواعد مكانا بعيدا عن أنظار قريش ، وكذلك فعل عياش بن أبى ربيعة فقد خاف أن يعثر به أخوه أبو جهل فيمنعه من الخروج .

وتقلد عمر بسيفه وتكب قوسه وانتضى في يديه أسهما وعلق حربته الصغيرة عند خاصرته ، ومضى قبل الكعبة والملا من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين

ورسول الله صلوات الله عليه جالس في الحرم ومعه أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب يرقبون عمر في قلق ، فقد أبى ابن الخطاب أن يهاجر مخفيا . إنه أعلن إسلامه في شجاعة وإنه يعلن هجرته متحديا الجميع .

وغدا عمر على الخلق واحدة واحدة ، فقال :

— شامت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (الأنوف) .

من أراد أن تشكله أمه أو يوتم ولده أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي .

وسار عمر فما تبعه أحد ، فأشرق وجه رسول الله عليه السلام وانشرح صدر أبي بكر وغمرت عليا نشوة انتصار . وذهب عمر إلى حيث واعدته هشام بن العاص فلم يجده . فطن لهشام قومه فحبسوه عن الهجرة ، فانطلق عمر إلى حيث واعد الخارجين معه فلما تم عقدهم خرج عمر وعياش بن أبي ربيعة في عشرين من المسلمين ، منهم زيد بن الخطاب أخو عمر . وسعيد بن زيد زوج أخته فاطمة ، وخنيس بن حذافة السهمي زوج ابنته حفصة ، وواقد بن عبد الله التميمي حليف بني عدى . وعبد الله وعمر و ابننا سراقه بن المعتمر ، وخولى بن أبي خولى حليف الخطاب ، وأخوه مالك وبنو البكير الأربعة إياس وعافل وخالد وعامر . وكان مع عمر ابنه عبد الله .

وعرفت أسماء بنت مخربة أن ابنها عياش بن أبي ربيعة قد

هاجر مع المهاجرين ، فجمعت بني مخزوم وقالت :

— لن آكل ولن أشرب ولن أدخل مسكنا حتى يرجع إلى عياش .

كان عياش أصغر أبنائها وكان أحبهم إليها ، وكان بنو مخزوم يعرفون تعلقها به وبره إياها على الرغم من أنه كفر بدين آبائه . وكان أبو جهل يرى في هجرة عياش خزيا لبني مخزوم . فانطلق هو والحارث بن هشام إلى يثرب ليعيدوا عياشا إلى أمه ويعيدوا لبني مخزوم كرامتها .

وجاء أبو جهل والحارث إلى عياش وكان في بني عمرو بن عوف بقبا ، ففطن عمر إلى ما جاء له فقام إلى عياش ليقف إلى جواره .

كان نياش ابن عم أبي جهل والحارث وأخاها لأمه ، فأتخذا يكلانه في الرجوع وقالوا :

— إن أملك قد نذرت أن لا بمشط رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراك . وأنت أحب ولد أملك إليها . وأنت في دين منه بر الوالدين . فارجع إلى مكة فاعبد ربك كما تعبد به بالمدينة . فرقت نفسه وصدقهما وأخذ عليهما الموائيق أن لا يغشياه بسوء ، وقال له عمر :

— إن يريدوا إلا فتنتك عن دينك فاحذرهما . والله لو آذى أملك التمل امتشطت . ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

فقال عياش :

— أبر أي ولي مال هناك أخذه .

فقال عمر :

— خذ نصف مالي ولا تذهب معهما .

فأبى إلا أن يخرج معهما . فقال له عمر :

— أما إذا فعلت فخذ ناقتي هذه فانها ناقة نجبية ذلول فالزم
ظهرها ، فان رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له
أبو جهل :

— يا أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبى على
ناقتك ؟

— بلى .

فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض أوثقاه
وباطا ، ثم دخلا به مكة نهارا موثقا وقالا :

— يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفهيها هذا .
وراح أبو جهل يعذبه . يجلده مرة ويلقى به فى الشمس مرة ،
وقد حلفت أمه أنه لا يحل عنه حتى يرجع عن دينه . وكان يعذبه
مع أبى جهل رجل من كنانة فحلف عياش ليقتلن ذلك الرجل إن
قدر عليه .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يرى ما ينزل بعياش
وهشام بن العاص والمستضعفين من المسلمين من صنوف العذاب
فيستشعر أعرق الأسى ، وما كان يملك لهم إلا الدعاء فأهلهم قد
انقلبوا إلى وحوش ضارية

وجلس عياش وهشام مكبلين فى بيت لا سقف له ، وبقي
فيه ينتظران التفرج من الله . وتتابع المهاجرون فنزل طلحة بن
عبيد الله على أسعد بن زراراة ، ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد
ابن حارثة وأبو مرثد وابنه مرثد حليفا حمزة ، وأنسة وأبو كبشة

موليا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على كلثوم بن هدم أخى
بنى عمرو بن عوف بقاء ، ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب
وأخواه الطفيل والحصين ومسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب
وخباب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة ، ونزل
عبد الرحمن بن عوف فى رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع ،
ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبى زهم بن عبد العزى على
منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بحصن العصابة دار
بنى جحجي ، ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ ، ونزل
أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسالم مولى أبى حذيفة وعتبة بن غزوان
على عياد بن بشر ، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخى
حسان بن ثابت فى دار بنى النجار ، ونزل العزاب من المهاجرين
على سعد بن خيشمة وذلك أنه كان عزبا .

كانت زوجة أبى حذيفة قد أعتقت سالم مولى أبى حذيفة
وكان أكثر المهاجرين أخذًا للقرآن . فكان عمر بن الخطاب يثنى
عليه كثيرا وكان يقدمه ليوم المهاجرين جميعا . فلا فرق بين حر
وعبد ولا أسود ولا أبيض فى الإسلام إلا بالتقوى .

ومكث — صلى الله عليه وسلم — بعد أصحابه ينتظر أن يؤذن
له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه إلا على بن أبى طالب وأبو بكر
الصديق وصهيب الذى تواعد معه — صلى الله عليه وسلم — أن
يكون معه فى الهجرة ، ومن كان محبوسا أو مريضا أو عاجزا عن
الخروج .

وجاء أبو بكر يستأذن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

في الهجرة ، فقال له :

— لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحباً .

وطمع أبو بكر بأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنما يعني نفسه ، فابتاع راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك . وغدا المهاجرون والأنصار في المدينة ينتظرون قدوم النبي عليه صلوات الله وسلامه في لفظة وشوق .

ورأت قريش أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صار له شيعة وأصحاب من غيرهم ، ورأوا خروج أصحابه إليهم وأنهم أصابوا منعه . خافوا أن يخرج رسول الله صلوات الله عليه وأن يجمع على حريهم . فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

كان في الدار أشراف بني عبد شمس وبني نوفل وبني عبد الدار وبني أسد وبني مخزوم وبني سهم وبني جمح وغيرهم مما لا يعد من قريش ، ولم يتخلف من أهل الرأي والحجى أحد . وقالت قريش :

— لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة .

لأن هواهم كان مع محمد — صلى الله عليه وسلم .

وراحوا يفكرون فيما يفعلون برسول الله عليه السلام . قال

بعضهم لبعض :

— إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم . وإنا والله

لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا . أجمعوا فيه رأياً .

— احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً . ثم تربصوا به .

ما أصاب أشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت .
— لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لو حبستموه كما تقولون
ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا
تشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى
يغلبوكم على أمركم ، ما هذا برأى فانظروا رأيا غيره .
— نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فاذا خرج عنا
فوالله ما نبالى أين ذهب .

— والله ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه
وغلبته على قلوب الرجال ، والله لو فعلتم ذلك ما أمتم أن يحل على
حتى من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه ،
ثم يسير بهم إليكم حتى يطاءكم بهم فيأخذوا أمركم من أيديكم ثم
يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .
فقال أبو جهل :

— والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد .

— وما هو يا أبا الحكم ؟

— الرأى أن تأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ، حسيبا فى قومه
نسيبا وسطا ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يفلدون إليه
فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا
ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب
قومهم جميعا ، فبرضوا منا بالعقل (الدية) ففعلنا لهم :

— القول ما قال هذا الرجل . هذا هو الرأى ولا أرى غيره .

فتفرق القوم على ذلك ، فأتى جبريل رسول الله صلوات الله
(الهجرة)

وسلامه عليه نجر السماء ، قتلا :
« وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ،
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (١) .
ثم قال :

— لا تبث هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيت عليه .
وكان الثلث الأول من الليل فاجتمع الحكم بن أبي العاص
وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وزمعة
ابن الأسود وأبو هب وأبو جهل ، وأخذوا ببابه — صلى الله عليه
وسلم — وعليهم السلاح يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه ظاهرا فيذهب
دمه ، لمشاهدة بني هاشم قاتله من جميع القبائل فلا يتم لهم أخذ ثأره .
ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مكانهم فقال لعلي :
— نم على فراشي واتشح بردائي الحضرى ، فانه لن يخلص
إليك شيء تكرهه منهم .

فبات على فراشه هادئ النفس ، فهو لو خير لاختار أن
يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، فلك الله يا بن أبى طالب ! يا من بعث
نفسك لله ورسوله حتى يتم الله نوره واوكره الكافرون .

وكان أبو جهل بن هشام يقول في استهزاء :
— إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب
والعجم ، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنات كجنان الأردن .
وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح تم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار
تحترقون فيها .

وسمعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرج عليهم وهو يقول :

- نعم أنا أقول ذلك .

وأخذ حفنة من تراب وتلا قوله تعالى : « يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (١) .

فأخذ الله على أبصارهم عنه فلم يروه ، وراح عليه السلام ينثر التراب على رؤوسهم فلم يبق رجل إلا وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد ، فأتاهم آت فقال :

- ما تنتظرون ههنا ؟

- محمدا .

- قد خيكم الله ! والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، فجعلوا يطلعون فيرون عليا نائما على الفراش مسجى ببرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقولون :

- والله إن هذا محمدا نائما عليه برده .

وساروا إليه يحسبونه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فلما رأوا

علياً رد الله مكبرهم فقالوا :

— أين صاحبك ؟

— لا أدري .

وراحوا يتميزون غيظاً ، كانوا قد هموا باقتحام الجدار على الرسول عليه السلام في الدار ، فصاحت امرأة من الدار فقال بعضهم لبعض : إنها لسة في العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا حرمننا ، وقد أطاعوا النصيحة فأفلت منهم هارباً بسحره .

وخذلهم الله وحماه عليه الصلاة والسلام ويسر له أن يخرج دون أن يبصروه ، وظل عليه صلوات الله وسلامه مستخفياً حتى إذا ما وافى الظهر وارتفعت الشمس في السماء انطلق إلى دار أبي بكر ، فرأته أسماء فقالت :

— يا أبت ، هذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — متقنعا .

— فدا له أبي وأمي ! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر .

فخرج إليه أبو بكر مهرولاً فقد أتى عليه السلام في ساعة لم يكن يأتئهم فيها ، فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— أخرج من عندك :

وكانت أسماء وعائشة عنده فقال :

— إنما هما ابتئى :

— أذن لي في الهجرة .

— الصحبة يا رسول الله .

— الصحبة .

وبكى أبو بكر من فرط السرور ثم راح يتأهب للخروج فأتخذ ما كان في داره من أموال ، حتى إذا ما أرحى الليل سدوله بعث إلى صهيب فقد كان تواعد معه — صلى الله عليه وسلم — أن يكون معه في الهجرة فوجده يصلي ، ثم أرسل إليه أبو بكر مرتين فوجده يصلي ، فكبره أن يقطع عنه صلاته فخرج رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وأبو بكر الصديق مستخفين ، حتى إذا خلفا الكعبة وراءهما نظر عليه السلام إلى مكة وقال :

— والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك قهرا ما خرجت .

وانطلقا ، وجعل أبو بكر يمشي مرة أمام النبي — صلى الله عليه وسلم — ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله ، فسأله رسول الله عليه السلام عن ذلك فقال :

— يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك . ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك .

وكان رسول الله عليه السلام يمشي على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثر رجله على الأرض ، وكان الجبل خشنا فلم يصب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الغار حتى قطرت قدماه دما . ولما انتهى إلى قم الغار قال أبو بكر للنبي — صلى الله عليه وسلم :

— والذي نبعثك بالحق لا تدخل حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك . فدخل الصديق فجعل يلتمس بيده كلما رأى جحرا ألغمه الحجر ، ثم دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد نال منهما الجهد ، فجلسا مستخفين في غار ثور .

ونظر أبو بكر إلى قدمي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد
تقطرتا دما فأحس رقة تكتنفه وأسى على ما نال من جاء ليخرج
الناس من الظلمات إلى النور من عذاب على أيدي الجاهلين الذين
أعمى الله قلوبهم عن النور .

وكانت أمام الغار شجرة مثل قامة الإنسان وبعث الله العنكبوت
فنسجت ما بين فروعها نسجا متراكما بعضه على بعض ، وأمر الله
حاميتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار وما يعلم جنود ربك إلا هو .
وإن جندنا لهم الغالبون .

فقد المشركون رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؛ فشق عليهم ذلك وكاد يخن جنونهم ، وغدوا يطلبونه في دور بني هاشم ودور تابعيه بأعلى مكة وأسفلها ، فأتى نفر من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر فقالوا :

— أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟

— لا أدري والله أين أبي ؟

فرفع أبو جهل يده فلطم خدها لكمة طرح منها قرطها ، ثم راحوا ينقبون عنه وقد كادت عقولهم تطير من رؤسهم ، فلو لحق بأنصاره في يثرب فلن يكون لهم عليه سلطان بل قد يصبح مناوئا خطرا لسلطانهم ، فتجارتهم وقوافلهم إلى الشام ليس لها سبيل إلا عن طريق يثرب ، إنه سيصبح في قبضته شريان حياتهم .

وبعثوا القافلة في كل مكان يقفون أثره ، فاذا بهم يتجهون إلى جبل ثور وسادات قريش معهم ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيتهم وسيوفهم ، وأحسن صلوات الله وسلامه عليه مقدمهم فنادى على صهيب وأشفق عليه وقال :

— واصهيباه ولا صهيب لي .

تواعد معهما على أن يكون ثالثهما ، وأرسل إليه أبو بكر

فوجدته يصلى فقال :

— يا رسول الله وجدت صهييا يصلى فكرهت أن أقطع عليه صلاته .

— أصبت .

وانتهوا إلى فم الغار ، ورأى أبو بكر قريشا أقبلت نحو الغار ومعهم القافلة ، وسمع القائف يقول :

— والله ما جاز مطلوبكم من هذا الغار .

حزن وبكى وقال همسا :

— والله ما على نفسى أبكى ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— لا تحزن ، إن الله معنا .

وأنزل الله سكينته على أبي بكر فراح ينظر إلى أقدام المشركين

وهم على رءوسهما ، فقال :

— يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت

قدميه .

— يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

وقال قائل من المشركين :

— ادخلوا الغار .

فقال أمية بن خلف :

— وما أربكم إلى الغار ؟ ! ، إن عليه لعنكبو تا كان قبل ميلاد

محمد .

ثم جاء قبالة فم الغار فبال .

وقال أبو جهل وهو يحس مرارة الهزيمة :
— أما والله إنى لأحسبه قريبا يرانا ، ولكن بعض سحره قد
أخذ على أبصارنا .

فانصرفوا وقد نكسوا رءوسهم وقد اكفهرت وجوههم ،
فلو أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه نجح في الهجرة إلى يثرب ،
فذلك إيذان ببدء المتاعب لسادات قريش الذين يستمدون سلطانهم
من أموالهم التي تتدفق عليهم مع القوافل الغادية الرائحة بين مكة
والشام .

وكان عبد الله بن أبي بكر غلاما ، فغدا إلى مجالس سادات
مكة وقد أعارهم سمعه ، لا يسمع أمرا يكاد به رسول الله عليه
السلام والصديق إلا وعاه ، واختلط الظلام فانسل عبد الله في خفة
وانطلق يسترق الخطى إلى الغار :

وراح عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى قطعة من غنم
لأبي بكر ، حتى إذا ذهبت ساعة من العشاء غلما بها عليهما فيحلبان
ويشربان . وبات عبد الله بن أبي بكر عندهما يقص عليهما ما كان
من قريش في يومهم ذاك ، حتى إذا ما كان الفجر نسا عناهما
وتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يقفوا أثر قدميه .

وعاد عبد الله يستمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم
يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر . وأقام رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — ثلاثة أيام بلياليها في الغار . قريش تبحث
وتنقب وتدور على دازه ودور بني هاشم ودور أصحابه ، وأسماء
بنت أبي بكر تأتيهما ليلا بطعامهما وشرابهما ، فلما كان بعد

الثلاث أمرها صلى الله عليه وسلم أن تأتي عليا وتخبره بموضعهما وتقول له يستأجر لهما دليلا ويأتي معه بثلاث من الإبل بعد مضي هزيع من الليلة الآتية :

وجاءت الساعة الموعودة ، فسمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رغاء الإبل ، فنزل من الغار هو وأبو بكر حتى إذا ما كانا أسفل الجبل عرفا الدليل ؛ إنه الأريقط بن عبد الله الليثي ، وسرعان ما جاءت أسماء بنت أبي بكر وعامر بن فهيرة بسفرة فيها شاة مطبوخة ، ولم تجد أسماء لسفرة رسول الله عليه السلام ولا لسقائه ما تربطهما به فقالت لأبيها :

— لا والله ما أجد شيئا أربط به إلا نطاقي .

— فبشقيهم اثنين واربطي بواحد السقاء وبواحد السفرة .

ففعلت ، فقال لها صلى الله عليه وسلم :

— أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة .

وراح النبي — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر يودعان ذات النطاقين ، ثم ركب عليه السلام ناقته القصواء . وركب أبو بكر ووقد أردف مولاه عامر بن فهيرة ليعخدمهما في الطريق . وركب الدليل ناقته . وتذكر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه أم كلثوم وفاطمة الزهراء وسودة ومن تركهم في داره من مواليه . فراح يدعو الله في حرارة :

— اللهم اصحبني في سفرى واخلفني في أهلى .

ثم انطلق أفضل ركب في رعاية الله .

وذهب أبو قحافة إلى دار ابنه لما علم بخروجه ، فاستقبلته

أسماء وعائشة . وكأثما أراد الشيخ أن يطمئن إلى أن ابنه قد ترك لأهله من المال ما يغنيهم عن الناس فقال :
— والله إني لأراه قد فجعكم بماله في نفسه .
قالت أسماء :

— كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا .
كان مال أبي بكر أربعين ألف دينار قد أنفق منها كثيرا في تحرير رقاب من أسلم من الأرقاء وفي سبيل الله ورسوله ، ولم يبق من ذلك المال سوى خمسة آلاف أخذها معه في هجرته . ولم تشأ أسماء أن تفجع جدّها بذلك فأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبوها يضع ماله فيها . ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقالت :
— يا أبت ضع يدك على هذا المال .
فوضع يده عليه فقال :

— لا بأْس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم .

وأراد صهيب الحجرة إلى المدينة لما رأى كفار قريش يتميزون غيظا لعجزهم عن القبض على محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه : فقد فطن إلى أن الرسول عليه السلام وأبا بكر الصديق قد خرجا إلى يثرب وأفلتا من أيدي الكفار ، فراح يتجهز للخروج وقد أخذ سيفه وكنانته وقوسه . وما كاد ينطلق براحلته حتى اتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانتشل ما في كنانته ثم قال :
— يا معشر قريش ، قد علمتم أنّي من أركمكم رجلا . وإيم الله

لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء .

— أتيتنا صعلوكا فقيرا فكثرت مالك عندنا ، ثم تريد أن تخرج بمالك ، لا والله لا يكون ذلك .

— أرايتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلي ؟

— نعم .

— فاني جعلته لكم . احفروا تحت أسكفة الباب فان تحتها

أواق الذهب .

وأطل الخشع من أعينهم وتحرك الحقد في نفوسهم ، وود كل منهم لو يسابق الريح ليحفر وحده تحت أسكفة الباب ليستخرج كنز مولى عبد الله بن جدعان أو يكون له من القدرة أن يكتم أنفاس كل من تسول له نفسه التفكير في الاستيلاء على ذلك المال ، فهو يريده خالصا له وحده ليتمتع بلذات الحياة .

وانطلقوا يتزاحمون إلى حيث أشار عليهم صهيب انطلاق

الوحوش الكواسر إلى فريسة يعد جوع طويل ، وقد حرك الطمع قهيم كل جوانب الشر وأسوأ ما في البشرية من عواطف هابطة ترد الإنسان إلى أيام الغاب قد غابت عنهم عقولهم ، ففكرة أواق الذهب المخبوءة في دار صهيب قد ذهبت بألبابهم ، وأن ليس بينهم وبين الثراء إلا أن ينبشوا الأرض بأظافرهم قد أسالت لعاب الخشع وأسدلت على بصائرهم أحجية فلم يعودوا يخضعون لمنطق أو ضمير أو حق .

ووقف صهيب ينظر إلى فتیان قريش وهم يولون الأدبار

يتدافعون في جنون إلى كنز الأرض ، وقد رآهم بعين خياله يتقاتلون على متاع الغرور ، ولو هداهم الله لعرفوا أن خزائن السماء لا تنفذ وأنّها خير وأبقى .

كان صهيب قد اهتدى إلى لب الحقيقة فلم يعد يطمع في مال ولا سلطان ولا جاه ، إنه ذاق حلاوة الأنس بالله والفكر في جلال الله وعظمته وملكوته أرضه وسائه ، فصار ذلك ألدّ عنده من كل نعيم . إنه من المشتاقين ، لم يكن له قرار ، كان لا ينام بالليل ولا بالنهار ، إذا ذكر النار طار نومه ، وإذا ذكر الجنة هبأ قلبه ، وإذا ذكر الله طال شوقه .

ولما كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو باعث كل اللذات الروحية في نفوس من أشرق قلوبهم بالإيمان ، فإن صهيبيّا قد لوى عنق راحلته ليلحق بنبيه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ليكون بالقرب من منهل الخير والسعادة الأبدية ومكّارم الأخلاق .

وبلغ ضميرة بن جندب خروجه — صلى الله عليه وسلم — وكان مريضاً ، فقال :

— لا عذر لي في مقامي بمكة .

فأمر أهله فخرجوا به وهو يلتقط نفسه في جهد وراح ينوء من الإعياء ، وغدا أهله يلتمسون منه أن يعود حتى يبرأ ولكنه أبي إلا أن يلحق بمنبع النور . فلما وصل إلى التنعيم كان يلفظ آخر أنفاسه . إنه يموت راضياً مطمئناً وإن كان يتمنى أن يتم هجرته قبل أن يجود بروحه ، لتنتقل إلى عليين حيث أرواح الأبرار :

ومات ضمرة بن جندب في التنعيم ، مات بمكة وإن كانت
روحه تهفو إلى مهاجر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فأُنزل
الله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه
الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » (١) .

انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي ناقته القصواء ومعه الدليل وأبو بكر الصديق وقد أردف عامر بن فهيرة ، حتى إذا ما بلغوا الححفة اشتاق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى مكة ، فأنزل الله عليه : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد (١) » فانشرح صدره عليه السلام ، وغدا يشتم مع رفقاته وقد نزلت السكينة عليه ، فان كان الكافرون قد أخرجوه من أحب الأرض إليه فربه قد وعد به بأن يردده إلى مكة مهوى الفؤاد .

وأرسلت قريش لأهل السواحل : إن من قتل أو أسر أبا بكر أو محمدا كان له مائة ناقة ، وأقبل رجل من قريش على مجلس بني مدلج بتقديد وراح يدور عليهم يخبرهم بما جعلت فيه قريش مائة ناقة لمن يردهم عليهم .

فبينما سراقه بن مالك جالس في نادى قومه ، أقبل رجل منهم حتى وقف عليهم فقال :

- والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آتفا ، إنى لأراهم محمدا وأصحابه .

(١) القصص ٨٥ ، وأهل الترجمة يقولون ان الله سبحانه وتعالى سيره عليه السلام الى الدنيا وهذا من زعم عبد الله بن سبا ، كان يهوديا اظفر الاسلام ، وكان قصده بوار الاسلام .

فأومأ إليه سراقة بعينه أن أسكت ، ثم قال :

— إنما هم بنو فلان انطلقوا بأعيننا يطلبون ضالة لهم .

ثم لبث في المجلس ساعة ، ثم قام إلى منزله فأمر جاريته أن تخرج فرسه خفية إلى بطن الوادى وتحبسها عليه ، وأخذ رمحه وخرج به من ظهر البيت قد خفض عاليه وجعل أسفله في الأرض لئلا يراه أحد ، ليفوز وحده بالجعل كله لا يشركه فيه أحد من قومه إذا ما عاونه على أسرهما أو قتلهما .

وأراد أن يرى رأى إلهه فيما هو مقدم عليه ، فأخرج قداحه التى يستقسم بها فاستقسم بها فخرج السهم الذى يكرهه «لا يضره» ، فأم يأبه لذلك وانطلق يسابق الريح فهو يرجو أن يرده على قریش فيأخذ المائة ، فبينما فرسه يشتد به عثر فسقط عنه ، فتمال في نفسه :

— من هذا ؟

ثم أخرج قداحه فاستقسم بها فخرج السهم الذى يكرهه « لا يضره » فأبى إلا أن يتبعه فركب في إثره ، فلما بدا له القوم ورآهم عثر به فرسه ، فذهبت يداه في الأرض وسقط عنه ، ثم انتزع يده من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار ، فعرف حين رأى ذلك أنه قد منع منه فناداهم بالأمان :

— أنظرونى ، لا أؤذيكُم ولا يأتیکُم منى شىء تکرهونه .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام لأبى بكر :

— قل له ماذا تبغى ؟

— أنا سراقة بن مالك ، أنظرونى أكلمکم ، أنا لکم نافع غیر

ضار .

وتقدم إلى حيث وقف القيوم ، فالتفت إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقال :

• — إن قومك جعلوا فيك الدية لمن قتلك أو أسرك .

وعرض عليهما الزاد والمتاع فلم يقبلا ، وقال عليه السلام :
— أخف عنا .

وراح سراقه يتفرس في وجه رسول الله عليه السلام فيحس كأنما آفاق المستقبل قد تفتحت أمام عين بصيرته . ووقع في نفسه أن سيظهر أمر رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — فقال :
— يا محمد إني لأعلم أنه سيظهر أمرك في العالم وتملك رقاب الناس : فعاهدني أني إذا أتيتك يوم ملكك فأكرمني .

فأمر عليه السلام أبا بكر أن يكتب له فكتب له في قطعة من عظم كتابا ثم ألقاه إليه ، ولما أراد الانصراف قال له عليه السلام :
— كيف بك يا سراقه إذا تسورت بسواري كسرى ؟

فقال سراقه في دهش :

— كسرى بن هرمز ؟

— نعم .

كان هاربا من قومه ليس معه إلا الصديق ومولاه والدليل ، وقد جعل أعداؤه جائزة مائة من الإبل لمن يأسره أو يعود إليهم برأسه ، ومع ذلك يتحدث عن المستقبل في ثقة ، ويعد سراقه بأن يلبس سواري كسرى شاهنشاه الفرس الذي أذل هرقل إمبراطور الروم ، وقد صدق وعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فإن عمر بن الخطاب لما جاء له في زمن خلافته بسواري كسرى

— الهجرة

وتأججه ومنطقته ، دعا سراقه وقال :

— ارفع يدك .

وألبسه السوارين وقال له :

— قل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز .

وأرسلت قُريش سرية فى طلبه يقول قائلهم :

— اطلبوه قبل أن يستعين عليكم بكلبان العرب .

فاشتدت على الطريق حتى لقيت سراقه ، فسأله عن الرسول

عليه السلام فقال :

— قد عرفتم بصرى بالطريق ، وقد سرت فلم أر شيئاً فارجعوا .

وأبوا أن يطيعوه فاندفعوا فى أثر ركب الذى ألقث هجرته

الفرع فى قلوب الكافرين ، فلو لحق بأتباعه وأنصاره فى يثرب

فذلك بداية رجحان كفته على كفة أعدائه وشائثيه وبزوغ فجر

جديده .

وسار رسول الله وأبو بكر الصديق ومن معهما على طريق

السواحل ، وكان الناس يعرفون أبا بكر فهو تاجر يمر عليهم فى

غدوه ورواحه فكانوا يسألونه وهم ينظرون إليه عليه السلام :

— من هذا الذى معك ؟

— هذا الرجل يهدينى الطريق .

كان النبى صلوات الله وسلامه عليه قد قال لأبى بكر :

« أله الناس عنى » . فهو يريد أن يتكفل عنه بالجواب ويشغل الناس

عنه فانه لا ينبغى لنبي أن يكذب ، وما كان الصديق يحب أن يكذب

فكان يقصد بقوله إن الرسول الأمين يهديه طريق الخير والرشاد ،

وقد أصاب بحق كبد الحقيقة والصواب .

وساروا ليلتهم كلها - حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يرى فيه أحد ، ولحوا صخرة طويلة لها ظل فنزلوا عندها فأتى أبو بكر الصخرة وسوى يده مكانا ينام فيه رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - في ظلها ، ثم بسط له فروة معه وقال :
— يا رسول الله نم وأنا أتجسس وأتعرّف من تخافه .

ونام - صلى الله عليه وسلم ، وإذا براع يقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الظل ، فلقيه أبو بكر فقال له :
— هل في غنمك من لبن ؟

— نعم .

— أفتحلب لي ؟

— نعم .

فأخذ شاة فحلب لأبي بكر في قعب معه . فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - وكره أن يوقظه من نومه . فوقف حتى استيقظ ، فصب أبو بكر على اللبن من الماء حتى برد أسفله فقال :
— يا رسول الله أشرب من هذا اللبن .

فشرب ثم قال :

— ألم يأن للرحيل ؟

— قد كان الرحيل يا رسول الله .

فارتحلوا بعد ما زالت الشمس . وأغدوا السير حتى رأوا بيتا في فنائنه امرأة برزة جلدة نزل أحدهم يسألها أن ينزلوا عندها فرحبت بهم ، فسألها عن اسمها فقالت :

— أم معبد .

ونزلوا عندها وسألوها لحما وتمرا يشترونه : فقالت في بساطة :

— والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— يا أم معبد هل عندك من لبن ؟

فأمرت ابنها معبد أن يأتيه بشاة ، فمسح عليه السلام ضرعها بيده ودعا الله وحلب في العس حتى أرغى وقال :

— اشربي يا أم معبد .

— اشربي . اشربي : فأنت أحق به .

فرده عليها فشربت ، ثم دعا بخائل أخرى فمسح ضرعها بيده وحلب في العس فشربه ، ثم سقا أصحابه ، وبقي عند أم معبد فترة أحست فيها جلال الرسول عليه الصلاة والسلام وعظمته : ووقع في قلبها حبٌ صاحب تلك الشخصية الفذة التي تأخذ بمجامع القلوب .

وانصرف — عليه صلوات الله وسلامه — وركب ناقته القصواء ، وركب أبو بكر وعامر بن فهيرة والدليل رواحلهم وانطلقوا إلى يثرب ، وترجيح نبوءة أشعيا يلوى في الكون مخاطبا مدينة الرسول المتلهفة على مقدمه : « قومي استنبري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك . لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم . أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى : فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك :

ارفعى عينيك حواليك وانظري قد اجتمعوا كلهم . جاءوا
إليك . يأتى بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى . حينئذ
تبتظرين وتبترين وتخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر
وياقنى إليك غنى الأمم . تفضيك كثرة الجمال بكثرة مديان وعيفة
كلها تأتى من شبا . تحمل ذهباً ولبانا وتسبح بكل تسايح الرب .
كل غنم قيدار تجتمع إليك . كباش نبايوت تخدمك . تصعد مقبولة
على مذبحى وأزين بيت جالى . »

وكانت السرية التى أرسلتها قريش تطوى الأرض تحت أقدام
الخيل بعد أن أبت أن تصغى إلى سراقه الذى حاول أن يردّها ،
فاستمرت تسابق الريح حتى بلغت دار أم معبد . فنزل الرجال
عن مطاياهم فانطلقوا إلى أم معبد والشر يقدح من أعينهم وسألوها
عن الرسول عليه السلام ، فخافت عليه منهم فقالت :

— تسألونى عن أمر ما سمعت به قبل عامى هذا .

— إنك تعلمين أين ذهب .

— ما أدرى ما تقولون .

والقلوا عليها فى السؤال فقالت :

— لئن لم تنصرفوا عني لأصرخن فى قومي عليكم .

كانوا يعلمون أنها فى عز من قومها وكأنت دارها على طرف
الحى لكأنما كانت حارسة الطريق ، فلو أنها أطلقت نداء لنفخوا
إليها فى أسلحتهم ولآذوهم قبل أن يسألوا ما الخبر . فآثروا أن
ينقلبوا إلى أهلهم وقد أطارقوا الرعوس من أن يخوضوا قتالا قد
تطاح فيه رعوسهم .

وجاء أبو معبد عند المساء من السوق فراحت تقص عليه
ما كان في نهارها ، فقالت :
— مر بنا رجل مبارك .
— ضفيه لي .

— رأيت رجلا ظاهر الوضاعة ، متبلج (مشرق) الوجه ،
في أشفاره وطف ، وفي عينيه دعج ، وفي صوته صحل (بحّة) ،
لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه من قصر ، لم تعب ثجلة (عظم البطن) ،
ولم تزر به صعلة (صغر الرأس) ، كأن عنقه إبريق فضة ، إذا
نطق فعليه البهاء ، وإذا صمت فعليه الوقار ، له كلام كخرزات
النظم ، زين أصحابه منظرا وأحسنهم وجها ، أصحابه يحفون به ،
إذا أمر ابتدروا أمره ، وإذا نهى انتهوا عنده .
— هذه والله صفة صاحب قریش ، ولو رأيته لاتبعته
ولأجتهد أن أفعل .

وبلغ بريدة بن الحصيب ما جعلت قریش لمن يأخذ النبي
صلى الله عليه وسلم . فطمع في ذلك فخرج في سبعين من أهل بيته
حتى لحق بركب النبي صلوات الله عليه ، فبكى أبو بكر حزنا على
رسول الله عليه السلام ، ودب اليأس في قلب عامر بن فهيرة ،
وارتجف الدليل خوفا ، بينما بقي عليه السلام ثابت الجنان لم ترتجف
بوادره ، وقال للرجل الذي تقدم إليه :

— من أنت ؟

— بريدة بن الحصيب .

فالتفت النبي عليه السلام وقال :

— يا أبا بكر برد أمرنا واصلح

والتفت إلى الرجل وقال :

— ممن أنت ؟

— من أسلم من بنى سهم .

— سلمنا وخرج سهمك يا أبا بكر .

ثم قال بريدة للنبي عليه السلام :

— من أنت ؟

— أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

ونظر الرجال إليه فاذا هو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا ،

وراح رسول الله عليه السلام يتحدث فاذا به يسمو ويرتفع على

جلسائه وقد علاه البناء ، حلوا المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ،

كأن منطقهم خرزات نظمن يتحدثون . وألقوا إليه السمع وهم

ماخوذون بسحر بيانه وبالقرآن المجيد الذى يتلوه عليهم فتفتح

له أفئدتهم وتشرق صدورهم باليقين . وما انتهى من عرض

الإسلام عليهم حتى نطقوا بشهادة الحق ، وصلوا خلفه العشاء

الآخرة .

وتأهب عليه السلام وصحبه لاستئناف الرحلة إلى يثرب ،

فقال بريدة :

— يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء .

فحل بريدة عامته ثم شدها في رمح ثم مشى بين يديه وصدى

نبوءة أشعيا يتردد في جوف الزمن :

« وحى من جهة بلاد العرب . في الوعر في بلاد العرب تبيتين

يا قواقل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء .
وافوا الهارب بنجزه ، فأنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام
السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب .
« والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبئتهم في الدنيا
حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (١) » .

سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة فكانوا يفلون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه ، حتى إذا ما اشتدت حرارة الشمس عادوا إلى دورهم وهم يعجبون في قلق لتأخره عليه السلام في الإقبال عليهم ، فقد غاب عنهم أنه مكث في الغار ثلاثة أيام حتى يبدأ الطلب .

وكان رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وأبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة والدليل يتقدمون وقد حلف بهم بريدة وقومه مستبشرين بأن يأتهم الله إلى النور ، وعلى مدى البصر لاحت قافلة قادمة ، لم تكن قافلة من قواهل قريش بل ركبا من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، وراحت المسافة بين الركبين تطوى وإذا بالزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله يريان رسول الله عليه الصلاة والسلام وأبا بكر الصديق : فيخفق قلباهما سرورا ويتهللان بالفرح ويسرعان على جناح الشوق إلى الحبيبين الغاليين والدموع تترقرق في العيون ، والصدور تفيض بمشاعر اللهفة والرضا والسعادة والشكر لله رب العالمين .

ونزلوا في ظل نخلة يتحدثون وقد طاف بهم انفعال شديد ، وبعثوا إلى أبي إمامة وأصحابه من الأنصار أن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يظهر الحرة ، فاذا بأصوات الفرح تدوى في

جنبات يثرب وإذا بأكثر من خمسمائة من الرجال يشورون إلى سلاحهم وينطلقون ليكون لهم شرف استقبال الهدى والنور .
وكسا الزبير بن العوام الرسول عليه السلام وأبا بكر ثيابا بيضا .
وظفّق طلحة بن عبيد الله يرنو إلى الرسول عليه السلام ويعيره سمعه فيستشعر كأن تيار الحياة المتدفق فيه يترقق بالعلم والحكمة .
ويعرج في إشراق إلى ملكوت السماء .

كان الليل قد ألقى ظلاله على الكون ، وكان القمر يطل على الأرض وقد أوشتك أن يكون بدرا ، فقد كانت الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول ، وبعث أشعته الفضية الهادئة اللطيفة تغمر الصحراء كأنما كان ذلك إيذانا بانحسار الظلمات أمام فيض أنوار الله ورحمته .

ومن ناحية يثرب جاء الأنصار على مطاياهم تدق قلوبهم دقات حماس وأمل واستبشار ، ثم اندفعوا إلى رسول الله عليه السلام يرحبون به ويسعدون بما ينطق به وما يتحدر من فمه من در وما يتلو عليهم من آية الذكر الحكيم . وانقضى الليل والقابوب مطمئنة والنفوس مشرقة ، حتى إذا ما وافى الفجر قام عليه السلام يصلي في معبد الله الواسع الفسيح وقد اصطف خلفه لأول مرة المهاجرون والأنصار ، وقد ألف الله بين قلوبهم وأرشدهم إلى الطريق .

وأشرقت الشمس وتأهب محمد رسول الله والذين معه لدخول يثرب في رابعة النهار ، ثم انطلقوا في رعاية الله وقد مشى بريدة بين يديه عليه السلام بحمل اللواء . إنه دخول كريم لرسول

كريم . واستشعر أبو بكر رقة فبللت الدموع روحه وإن لم تطفر
من مقلتيه ، وخر بكل وجوده ساجدا لله شكرا وإن لم يفعل أكثر
من الإطراق برأسه ، فقد وصلت الحقيقة إلى فؤاده وانكشف
باب الفوز الأكبر :

وصعد رجل من اليهود على أطم من أطامهم لأمر ينظر إليه ،
فبصر برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه مبيضين
يرفعهم السراب في الحر فيبدون لعينه في وضوح ، فلم يملك أن
قال بأعلى صوته :

— يا معشر العرب هذا جدكم (حظكم) الذي تنتظرون .

فماج الناس في فرح واشتد وجيب القلوب وانتشرت البشري
في الدور وفي الأسواق وفي الحقول ، فاذا بالرجال يعدون إلى
ثنية الوداع لاستقبال نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، وإذا بالنساء
يصعدن إلى الأسطح ليرين الهادي العظيم الذي يوحى الله إليه
ما فيه عز الدنيا والآخرة والسعادة في الدارين .

وكان الأنصار في غمرة الفرح أن هداهم الله إلى الإيمان بالنبي
الأمي الذي كان اليهود يتوعدونهم به وإن كانوا أسرع منهم إليه ،
فبه سيعز جانبهم ويشدد ساعدتهم ويصبحون بنعمة الله إخوانا بعد
السنين التي انقضت هباء في عداوات لا طائل تحتها قد أثارها عصبية
الجاهلية .

وبلغ ركب الرسول مشارف المدينة فاذا بالرجال قد ارتفعوا
على النخيل ينظرون ، وإذا بظلائع القوم يهرولون مهلين
مرحبين بالنبي عليه الصلاة والسلام وقد نسوا في غمرة السرور

حرارة الشمس التي كانت تاسع الأقدام وتشوى الوجوه ، وإذا بالعبرات تلتطف حرارة المشاعر المتأججة بين الضلوع . وراح الركب الكريم يتهادى بين الأنصار في أمن والكون يردد ما قاله الأنصار للنبي عليه السلام والصديق قبل أن يركبا إلى مدينة الرسول : « اركبا آمنين مطاعين » . وبلغ الركب ثنية الوداع فاذا بهتافات الترحيب تتعالى من كل مكان . وتقدم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على ناقته القصواء متواضعا لله يحمل أعظم رسالة حملها إنسان .

البشر في الوجوه والعبرات في العيون والفرح في القلوب . قد أضاء من المدينة كل شيء ففقد أشرق عليها النور ، وصعدت ذوات الخدور على الأسطحة يشتركن مع المرحبين بمقدمه الكريم ، فجعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وغدا الناس يتفرسون في القادمين اللذين يحيطهما سادات الأنصار بالتبجيل والإكرام ، فما يدرون من منهما رسولهم العظيم . كان أبو بكر أصغر سنا من رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — بيد أن شبيهه كان ظاهرا ، في حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يبدو شابا شعر لحيته أسود ، فكانوا يحسبون أن أبا بكر هو البشير والنذير والمصطفى .

وجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقام أبو بكر للناس ،

فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحيى أبا بكر فيعرفه بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ، حتى أصابت الشمس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرفه الناس .

والتجت دار بنى عمرو بن عوف بالناس ، وغصت قباء بالوافدين من أطراف المدينة ليحيوا من يكلم من السماء . وهرع المهاجرون فرحين مستبشرين إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، جاء عمه حمزة ليضمه إلى صدره في حب عظيم ، وجاء عمر بن الخطاب وسعيد بن عمرو وأبو سلمة وعامر بن ربيعة وعبد الله بن جحش وزيد بن الخطاب وخنيس بن حذافة ليلسوا عليه ، وقد فاضت صدورهم بأنبال العواطف وأرق الإحساسات . وذاع خبر نزول محمد - صلى الله عليه وسلم - ببقاء بن اليهود فراحوا يهرعون إلى يهود بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع بالنبا العظيم ، وجاء إلى اليهودى الذى اشترى سلمان الفارسي من وادى القرى ابن عم له حتى وقف عليه فقال :

- قاتل الله بنى قيلة ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقاء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي .

كان سلمان على رأس نخلة لسيده وسيده جالس تحته ، فلما سمع قول ابن عمه إذا به يرتعد وينتفض من الرأس إلى القدم حتى ظن أنه سيسقط على سيده ، فنزل عن النخلة وقد خفق قلبه في خوف وأمل واستبشار ، ثم ذهب إلى ابن عم سيده وقد غاب عن كل شيء إلا التيقن بما سمع ، فجعل يقول للرجل :

— ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

فغضب سيده فلكمهلكمه لكمة شديدة ثم قال :

— مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك .

— لا شيء ، إنما أردت أن أستثبتته عما قال .

وغدا سلمان يترك في أمره مذ كان في أصبهان واتفاقه مع
النصارى على الحرب ، ونزوله بالشام . وما كان بينه وبين الأسقف
في الموصل ، ورحيله إلى نصيبين ، ثم ذهابه إلى عمورية للبحث
عن الحقيقة ، ومعرفته أن النبي المنتظر سيبعث في بلاد العرب ،
ولحقته على الرحيل إلى حيث يبعث من سيخرجه من ظلمات نفسه
إلى نور اليقين ، وكيف خرج مع تجار من كلب حتى إذا ما بلغوا
وادي القرى ظلموه وباعوه عبدا ، ثم اشتراه سيده اليهودى
ليحمله إلى المدينة . لقد بدأت حكمة ربه تتكشف لعين بصيرته ،
فإن كان ذاك الذى بقاء هو رسول الله حقا ، فقد انتهت رحلة
الآلام والمعاناة وبدأ انتصار الروح .

كان يعيش على أمل واحد ليس له هدف في الحياة غيره :
أن يلقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأن يؤمن به وأن يكون
من تابعيه المخلصين الذين يبدلون أرواحهم رخيصة لرفع راية
الإيمان . وإنه من طول البحث عنه والتفكير فيه كاد أن يعرفه
بقلبته . إنه يا كل الهدية ولا يا كل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم
النبوة مصداقا لما جاء عنه في النبوءات : « وأثر سلطانه على كتفيه » .
كان عنده شيء قد جمعه . فلما أمسى أخذه ثم ذهب به إلى
قباء وهو قلق في استبشار خائف في أمل غائب عن نفسه ، وقد

سما بابتهاالاته ليقرّع أبواب الملكوت ويدعو الله أن يهديه إلى الحق الذى أنفق زهرة عمره فى البحث عنه .

ودخل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومعه المهاجرون يحفون به ، فجعل يتفرس فيه فاذا بقلبه يخفق وإذا بنفسه تهفو إليه ، ولكنه راح يجاهد ليكبح عواطفه ، فهو لا يريد أن يضحي بالسنين الطويلة التى مرت فى ترقب وانتظار استجابة لعاطفة طارئة . فقد عقد العزم على ألا يعلن على الملأ تصديقه إلا بعد أن يثبت له بلا أدنى ظل من شك أن محمداً بن عبد الله هو النبى الذى بشرت به الأنبياء . ودنا من الرسول عليه السلام وقد راودته فكرة أن يكشف عن ظهر الرسول عليه السلام ليرى خاتم النبوة ، ولكنه آثر أن يترثى فقال له :

— إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة . وهذا شىء قد كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم . فقربه إليه فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه : — كلوا .

وأمسك يده فلم يأكل . فقال سلمان فى نفسه : — هذه واحدة .

وجلس سلمان يصغى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يتحدث ، وكذلك فعل كلثوم بن الهدم صاحب الدار التى نزل فيها عليه السلام . وكان كلثوم شيخ بنى عمرو بن عوف . ولم يكن قد أسلم بل بقى على دين قومه من الأوس وقد نشرح صدره لما رأى محمداً عليه السلام . وزاد إعجابه به لما سمع حسن منطقه .

وإنه وهو في مجلسه يلتقي سمعه إلى حديث الرسول وإلى ما يتلو من القرآن يستشعر أنه يتعرض لنفحات رحمة مبدولة وأنه يسمو فوق المحسوسات ، وأنه على الرغم من كبر سنه وما مر به من تجارب يحصل على شرف المعلومات ، وأن سعادة روحية تغمره ، وأنه قد اقترب قريبا حقيقيا من الله الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله .

إن كلامه عليه السلام قد زكى قلبه من الخبث وطهره من الشرك وأشعل سراج عقله وفتح نوافذ ذاته لأسرار الله ، فاذا بالإخلاص ينزل بسويداء قلبه ، وإذا بالشيخ المسن لا يستطيع أن يكتم ما أضاء زيتته الذي في مشكاة قلبه فقال في إيمان عميق :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وكبر الموجودون من المهاجرين والأنصار ، وفي مثل البرق انتشر خبر إسلام شيخ بني عمرو بن عوف في قباء فجاء المسلمون من الأوس والخزرج فرحين مهنئين . بأن هدى الله الشيخ الحليل إلى الإيمان وهداه الصراط المستقيم .

وكان سلمان يرى ما يجري أمامه وهو في قمة الانفعال . إنه سمع قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فأحس أن جوانحه كلها قد غمرت بالضياء ، وأن نورا على نور انسكب في وجدانه ، وأن صدره قد انشرح للإيمان . وهم بأن يعلن على الملأ إسلامه وأن ينطق بشهادة الحق ولكنه راح يجاهد لكيلا يضعف ويستجيب لدواعي عواطفه ، فأثر أن يفر وأن يترث حتى يصدق عقله كما صدقت مشاعره ، فانسبل من الدار وانصرف وإن كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد استحوذ عليه واستولى على عواطفه ولبه وضميره .

كان الناس يعلمون من أمانة محمد عليه السلام ما جعلهم يضعون عنده ما يخشون عليه ، فقبل أن يهاجر عليه السلام أعلم عليا بخروجه إلى الهجرة وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع ، فغدا على يرد الأمانات على أصحابها ويسترق السمع فيتلج صدره أن الرسول عليه السلام قد نزل بقاء ، وأن قريشا تكاد أن تتمزق غيظا لإفلاته عليه السلام من أيديهم .

وكان الحوار في نوادي قريش يدور بين الناس حول هجرة ابن عبد الله وعما ناله من منعة وعزة بأنصاره من الأوس والخزرج ، وعما يهدد تجارتهم الرائحة الغادية إلى الشام إذا ما أصبح أمر يثرب بيد ابن أبي كبشة ، الذي لم يكتف بسب الآلهة وتسفيه الأحلام بل إنه استقر في المدينة ليوسع شقة الخلاف بين أعظم قريتين في الحجاز . وكان على يرى ويسمع ما كانت قريش تعاني من قلق وخوف من المستقبل ، فكان ينعم بلذة الانتصار ويتهلل بالفرح لأن نور الله قد انتشر في يثرب ، وأنه عما قريب سيغمر العالمين .

وقام على بالأبطح ينادى :

— من كان له عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وديعة

فليأت تؤدى إليه أمانته .

وصلك صوت على آذان أبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة

(الهجرة)

ابن أبي معيط وأمية بن خلف وعتبة وشيبة وأعداء محمد عليه السلام
فأربدت وجوههم وانقبضت صدورهم ، فذلك الصوت الذى يدوى
بين جنبات مكة إنما يعلن فيما يعلن هزيمتهم والسخرية منهم
والهزاء بهم .

• إنهم طالما هزءوا برسول الله وسخروا منه واستخفوا به .
ولكن صوت على الذى ينم عن الفرحه كان أقسى من كل ما اتخذوه
هزوا : إنه يؤكد للجميع أن الرجل الذى رموه بالسحر والكذب
والجنون لا يزال ذلك الرجل الأمين العفيف الكريم الذى عرفوه
قبل البعثة وقد أثبت عليه أمانته أن يقر بودائعهم . ولم يفعل لا هو
ولا أتباعه ما فعله اليهود يوم أن أمرهم موسى عليه السلام بالتأهب
للخروج من مصر . فقد اقترضوا حلى المصريين وفروا بها هاربين
جزاء على ما نالهم من اضطهاد وتعذيب . أما محمد رسول الله عليه
السلام وصحبه فقد ردوا الأمانات إلى أصحابها وتركوا المال والبنين
والدور ليفروا بدينهم إلى الله : تاركين فلذات الأكباد فى رعاية
الرحمن الرحيم .

ماذا لو قاموا لابن أبي طالب وكتبوا أنفاسه واستراحوا من
هذا العناء الذى ينزل بهم كلما مر على مجالسهم وقال :
— من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وديعة فليأت
نرد عليه أمانته .

أولو قتلوا الشاب الهاشمى الغض الذى لم يبلغ بعد السادسة عشرة
من عمره أكانوا يستريحون حقاً أم كانوا يتعجلون الشر ؟ فالعباس
ابن عبد المطلب سيطالب بدم ابن أخيه ، وقد يتحرك محمد عليه

السلام من يثرب ليقطع عليهم الطريق ويشخن في الأرض أخذا
بثأر ابن عمه الذي نام ليلة هجرته في فراشه ، فأتروا أن يتحملوا
ذلك البلاء وأن يعضغوا غضبهم في صبر وأن يغلقوا صدورهم على
ما فيها من حقد دفن .

ورد على الأمانات التي كانت عند الرسول عليه السلام ولم
يطق الصبر على فراق محمد الحبيب . فخرج يسير الليل ويكمن
النهار حتى تفطرت قدماه ، ولاحت له أرباض يثرب فغدا يتحامل
حتى دخل قباء . وأغذ السير إلى دار كلثوم بن الهدم فعلم أن ابن عمه
عليه السلام يتحدث مع أصحابه في بيت سعد بن خيثمة لأنه كان
عزبا ، فانطلق إلى هناك وهو يتفصد عرقا قد نال منه الإعياء وسالت
الدماء من قدميه . حتى إذا ما رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام
ارتدى في أحضانه فاعتنقه عليه السلام وبكى رحمة لما بقدميه من
الورم .

وأراد النبي عليه السلام أن يبنى مسجدا بقباء . وكان لكلثوم
ابن الهدم مربدا (محلا) يجفف فيه التمر . فلما علم برغبته صلوات الله
وسلامه عليه قدم مربده ليكون أول مسجد أسس على التقوى ،
فقال عليه السلام :

— يا أهل قباء ائتوني بأحجار من الحرة .

فجمعت عنده أحجار كثيرة . فخط القبلة ثم بدأ في البناء ،
فكان يأخذ الحجر حتى يتعبه فيأتي الرجل من أصحابه فيقول :

— يا رسول الله بأتي أنت وأمي تعطيني أكفك .

ويأخذ الرجل الحجر فيقول عليه السلام :

— لآخذ مثله .

وراح المهاجرون والأنصار يعملون في البناء ، أبو بكر وعمر
وعلى وعمار بن ياسر وحمزة وبلال وأسيد بن حضير وبنو عوف
من الأوس ومن جاء متطوعا من بني النجار ، حتى إذا بلغ منهم
الجهد جلسوا يستريحون ، فبينما رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
جالس معه أبو بكر وعمر إذ طلع عليهم صهيب بعد أن أعطى
فتيان قريش أواق من الذهب ليدعوه ينطلق إلى رسوله وحيبيه عليه
السلام . فلما رآه الرسول عليه السلام قال :

— يا أبا يحيى ربح البيع . ربح البيع . ربح البيع .

فظهر الدهش في وجه صهيب فما سبقه إلى رسول الله عليه
السلام أحد ليخبره بما كان بينه وبين قريش ، وقام إليه أبو بكر
وعمر ورجال فقال له أبو بكر :

— ربح بيعك أبا يحيى .

— وبيعك . هلا تخبرني ما ذاك ؟

— أنزل الله فيك : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة

الله والله رءوف بالعباد » (١) .

فارتجف صهيب من شدة الإنفعال ، ونزل به خشوع وشكر
لأن أنزل فيه قرآنا . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

ومضت الأيام وعزم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على
الخروج من قباء . فترك عمار بن ياسر ليتم بناء المسجد ثم ركب
القصواء . فقالت بنو عمرو بن عوف له وقد أخذوا بزمام ناقته :

— يا رسول الله أخرجت ملالا لنا أم تريد دارا خيرا من دارنا ؟

— إني أمرت بقرية تأكل القرى ، فخلوا سبيلها .

وسار وسار الناس معه ما بين ماش وراكب ، ولا زال أحدهم
ينازع صاحبه زمام الناقة حرصا على كرامة رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — وتعظيما له ، وصار الخدم والصبيان يقولون :
— الله أكبر ! جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، جاء
محمد — صلى الله عليه وسلم .

ولقيته الحبشة ولعبت بحراها فرحا برسول الله — صلى الله عليه
وسلم ، وأدركته — صلى الله عليه وسلم — صلاة الجمعة في بني سالم
ابن عوف فنزل ليصليها في المسجد الذي في بطن الوادي بمن معه
من المسلمين . وراح يخطب الناس فكان فيما قال :
— فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمره فليفعل ،
ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ،
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم ركب — صلى الله عليه وسلم — راحلته بعد الجمعة متوجها
للمدينة وقد أرخى زمامها ولم يحركها وهي تنظر يمينا وشمالا ،
فسأله بنو سالم ، منهم عتيان بن مالك ونوفل بن مالك وعادة بن
الصامت :

— يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعزة والمنعة والثروة .
— انزل فينا فان فينا العدد والعدة والحلقة ، ونحن أهل الحداق
والدرك يا رسول الله . كان الرجل من العرب يدخل هذه البحيرة
خائفا فيلجأ إلينا .

فقال لهم عليه السلام خيرا وقال :
— خلوا سبيلها فانها مأمورة .

وابتسم لهم وقال :

— بارك الله فيكم .

وانطلقت القصواء حتى وردت بنى بياضة ، فسأله زياد بن
ليبد وفروة بن عمرو أن ينزل فيهم وقد أخذوا بزمام الناقة ،
فقال عليه السلام :

— دعوها فانها مأمورة .

ووردت دار بنى ساعدة ومنهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو
وأبو دجاجة ، فسألوه أن ينزل فيهم فقال :

— خلوا سبيلها فانها مأمورة .

فانطلقت حتى مرت بدار عدي بن النجار حيث مات أبوه
ونزلت به أمه وهو صغير ، فأخذوا بزمام الناقة وقالوا :

— نحن أخوالك ، هلم إلى العدة والمنعة والعزة مع القرابة ،

لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله .

— لا تجاوزنا ليس أحد من قومنا أولى بك منا لترابتنا .

— دعوها فانها مأمورة .

فانطلقت حتى بركت في محل من محلات بنى النجار عند دار
بنى مالك بن النجار وعند باب أبي أيوب الأنصارى ، فلم ينزل عنها

— صلى الله عليه وسلم ، ثم وثبتت وسارت غير بعيد ورسول الله

— صلى الله عليه وسلم — واضح لها زمامها ، ثم التفتت خلفها ورجعت

إلى مبركها فبركت فيه وتجلجلت ووضعت باطن عنقها وصوتت

من غير أن تفتح فاها . وجعل جبار بن صخر من بنى سلمة
ينخسها رجاء أن تقوم فينزل عليه السلام في دار بنى سلمة فلم تفعل .
فنزل عنها — صلى الله عليه وسلم — وأخذته الذي كان يأخذه
عند الوحي . وسرعان ما سرى عنه فراح يتلو :

— « رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (١) . رب
أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . رب أنزلني منزلا مباركا
وأنت خير المنزلين . رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين »
هذا إن شاء الله يكون المنزل .

بركت القصواء عند مريد لغلामين يتيمن من بنى النجار في
حجر معاذ بن عفراء . وهما سهل وسهيل ابنا عمرو . بركت في
مكان الدار التي بناها تبع للنبي المنتظر يوم أن جاء إلى المدينة ليقتل
أشرافها أخذوا بثأر ابنه الذي اغتيل فيها غدرا . ولم يمنعه من الانتقام
إلا خبر أن من اليهود قالوا له : إنها مهاجر نبي مرتقب عظيم الشأن
من أرادها بسوء حاق به البوار . فرق قلبه وبني تلك الدار لتكون
هدية من تبع إلى النبي الذي سيهاجر إليها من أمام السيف المسلول
ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب ، بركت القصواء
حيث كان ينبغى أن تبرك : كانت مأمورة فأرشدت إلى المكان .

وقال أبو أيوب الأنصاري للرسول عليه السلام :

— إئذن لي أن أنقل رحلك .

فأذن له ، واحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته ، وجاء
أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده . وراح الأنصار

يتنافسون أيهم يؤوى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فقال :
— المرء مع رحله .

وخرجت حديرات من بنى النجار بالدفوف يقلن :
نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جوار
فخرج إليهن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال :
— أتعجبوننى ؟

— نعم يا رسول الله .

— وأنا والله أحبكم .

كان عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج ، وكان يلوم قومه أحيانا على ما ينشب بينهم وبين الأوس من عداوات فهو يحب أن يسود الوفاق بين الحيين لأنه يطمع في أن يكون ملكا على المدينة .

واصطلح الأوس والخزرج على أن يتوجه فيعصبوه بالعصاة رمز تتويجه والخضوع له ، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جاء إلى المدينة قبل أن ينصب ملكا فانفض الأنصار من حوله وأقبلوا على رسول الله عليه السلام فرحين مستبشرين سامعين طاعينين ، فورم لذلك أنف ابن أبي بن سلول ، وامتلا قلبه حنقا على الرجل الذي جاء ليحرمه من تحقيق حلمه الذي ظل يداعبه سنين .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرف مكانة عبد الله ابن أبي بن سلول في قومه ، فعرج عليه وأراد النزول عليه لكيلا يتفاقم مرض قلبه . ولكن عبد الله بن أبي لم يستطع أن يحكم حقيقة شعوره فقال لرسول الله عليه السلام في غلظة :

— اذهب إلى الذين دعوك وانزل عليهم . .

فقال سعد بن عباد لرسول الله عليه السلام :

— يا رسول الله لا تجد في نفسك من قوله ، فند قدمت علينا

والخزرج تريد أن تملكه . .

وعاد عليه السلام إلى دار أبي أيوب ، وما كاد يستقر حتى

تذكر أهلهم الذين تركهم في مكة أم كلثوم وفاطمة الزهراء وأم أيمن وأسماء بن زيد بن حارثة وسودة بنت زمعة . واستشعر شوقا إليهم فبعث زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليقدموا إلى مكة ويعودا بالأحبة الذين يملئون حياته بأرق المشاعر وأنبel الإحساسات .

ولما نزل عليه السلام في بيت أبي أيوب نزل في السفلى وأبو أيوب وأم أيوب في العلو ، وقد رأى أبو أيوب في ذلك حرجا فأتى النبي صلوات الله وسلامه عليه وقال :

— يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فإظهر أنت وكن في العلو ونزل نحن ونكون في السفلى .

— يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا ومن يغشانا أن نكون في سفلى البيت .

فظل أبو أيوب وامرأته في العلو يمشيان على أطراف أصابعهما حتى لا يؤذيان نبي الله عليه السلام ، حتى انكسر ملح (جرة كبيرة) لهما فيه ماء ، فقاما بقطيفة لهما ما لهما لحاف غيرها ينشفان بها الماء تحوفا أن يقطر على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيؤذيه .

وكانا يصنعان له العشاء ثم يبعثان به إليه ، فاذا رد عليهما فضلة تيمم أبو أيوب وأم أيوب موضع يده فأكلا منه يبتغيان بذلك البركة ، حتى بعثا إليه بعشائه وقد جعلاه فيه بصلا . فردده ولم ير أبو أيوب ليده فيه أثرا فجاءه فزعا فقال :

— يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ؟

— فأني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي .
(أحدث غيري) ، فأما أنتم فكلوه .
فأكلاه ولم يصنعوا له طعاما فيه بصل أو ثوم .

كان أسعد بن زرارة قد بنى مسجدا في مربد سهل وسهيل حيث بركت القصواء ، وكان يصلي فيه بالناس قبل أن يقدم رسول الله عليه السلام المدينة . وكان المسجد جدارا مجردا ليس عليه سقف وقبلته إلى بيت المقدس ؛ ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صار يصلي فيه .

وكان المهاجرون قد تحولوا من قباء حيث نزل نبي الله عليه السلام ، وقد تنافس فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان ، فما نزل أحد من المهاجرين على أحد من الأنصار إلا بقرعة بينهم ، فكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم . وضاق المسجد بهم فرأى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه أن يبني مسجده ، فعرض أبو أيوب على الرسول عليه السلام . أن يأخذ تلك الأرض ويغرم لليتيمين سهل وسهيل قيمتها . فأني رسول الله عليه السلام .

ودعا الغلامين فساومهما بالمربد فقالا :

— نبيه لك يا رسول الله .

فأني أن يقبله منهما هبة . وأرسل إلى ملاء من بني النجار فجاء أسعد ومعاذ وأبو أيوب ومعهم سهل وسهيل ، فجاءوه —

صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم :

— ثامنوني بحائطكم هذا .

— لا يا رسول الله ، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله .

فأبى أن يأخذه إلا بالثمن ، وابتاع الأرض بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر .

وكان في موضع المسجد نخل وحفر ومقابر للمشركين ، فأمر بالنخل أن يقطع وبالحفر فسويت وبالقبور فنبشت وأمر بالعظام أن تغيب : وكان بالمربد ماء ينشع ويظهر من الأرض فسبروه حتى ذهب ، ثم أمر باتخاذ اللبن فراح المهاجرون والأنصار يضربون الطوب .

وأسس رسول الله عليه السلام المسجد وأسسوا معه ، فجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وفي جانبيه مثل ذلك فهو مربع ، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم بنوه باللّسن .

وجعل رسول الله عليه السلام ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول :

— اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرين ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

وقال قائل من المسلمين يرتجز :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللّسن فقال :

— يا رسول الله قتلوني ، يحملون على ما لا يحملون .

فمسح رسول الله عليه السلام شعر رأس عمار بيده وكان
جعدا وقال :

- ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الغثة
الباغية (١) .

وجعلت سوارى المسجد من جذوع النخل ، وارتفاع جدره
قدر قامة . وقال رسول الله عليه السلام لأصحابه :
- ابنوا لى عريشا كعريش موسى ، ثمامات وخشبات وظلة
كظلة موسى ، والأمر أعجل من ذلك .
- وما ظلة موسى ؟

- كان إذا رفع يده بلغ العرش (السقف) .
واستمر نبي الله عليه السلام ينقل اللبن فى ردائه وهو يقول :
لا هم إن الأجر أجز الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
وعافهم من حر نار ساعة فانها لكافر وكافرة
وزخر صدره الشريف بالشكر لله فصار يقول :
هذا الجمال لا جمال خير هذا أبر ربنا وأطهر
وأين ما حمل من خير من تمر وزبيب من اللبن الطاهر الذى
يبنى به مسجد يذكر فيه اسم الله ويسبح فيه بحمده ويقدم له ؟
وكان عثمان بن مظعون رجلا مترفا ، فكان إذا حمل اللبنة
يجافى بها عن ثوبه لئلا يصيبه التراب ، فان أصابه شئ من التراب
تففضه . فنظر إليه على بن أبى طالب وأنشد يقول مداعبا عثمان بن
مظعون :

(١) قتل عمار بن ياسر وهو يقاتل مع على كرم الله وجهه جيوش معاوية .

لا يستوى من يعمر المساجد يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن التراب حائدا

وجعلت قبلة المسجد إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب :
باب في مؤخره وباب الرحمة وباب كان يدخل منه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ويقال له باب عثمان ، لأنه كان يلي دار عثمان
ابن عفان .

وأقبلت فاطمة الزهراء ومن خرج معها ، وفيهم عبد الله بن
أبي بكر ومعه عيال أبي بكر وزوجته أم رومان وعائشة وأختها
أسماء زوج الزبير بن العوام . وكانت عائشة وأمها على بعير في محنة ،
وكانت أسماء حاملا بابنها عبد الله بن الزبير . فلما أشرفوا على
المسلمين خف رسول الله عليه صلوات الله وسلامه إلى أهل بيته
يستقبلهم باشا ويغمرهم بحبه وحنانه . وأنزل أبو بكر عياله بالسنع
وهو سعيد أن يجمع الله شملهم . وبات يرقب أسماء فقد أتمت
شهور حملها .

وولدت أسماء ولدها ثم وضعت في حجر رسول الله — صلى الله
عليه وسلم . فدعا بتمرة فمضغها ثم حنكه بتلك التمرة ثم دعا له
وبرك عليه والزبير بن العوام ينظر وقد غمرته السعادة . فابنه
عبد الله كان أول مولود للمهاجرين ولد في يثرب ، وقد فرح به
المسلمون فرحا شديدا .

وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أول مولود ولد للمسلمين
في الحبشة . واتفق أن النجاشي ولد له مولود يوم ولد عبد الله هذا
فأرسل إلى جعفر يقول له :

— كيف سميت ابنتك ؟

— سميته عبد الله .

فسمى النجاشي ابنه عبد الله وأرضعته أسماء بنت عميس مع ابنها عبد الله فكانا أخوين في الرضاع ، وقد استمرت المراسلات بينهما لما شبا عن الطوق بتلك الأخوة من الرضاع .

وكانت أم رومان أم عائشة بنت أبي بكر وعبد الرحمن ، وكانت أم أسماء بنت أبي بكر لا تزال على دين قومها ، فجاءت إلى المدينة لتزور ابنتها وهي تحمل هدية فأبّت أسماء أن تلقاها وردت عليها هديتها . وبلغ ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأمر أسماء أن تؤوى أمها وتقبل هديتها .

وجعل في المسجد محلا مظلا يأوى إليه المساكين يسمى الصفة . فسمى أهله أهل الصفة ، وكان — صلى الله عليه وسلم — في وقت العشاء يفرقهم على أصحابه ويتعشى معه طائفة ، وكانهم يجالسهم . ويأفئهم .

— واستتبت الحياة في المدينة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وصحبه . وكان عليه السلام يرجو أن يدخل الأوس والخزرج في دين الله جميعا وأن يؤلف الله بين قلوبهم ليصبحوا بنعمة الله إخوانا . حتى يتفرغ ليلبغ رسالات ربه للناس كافة دون أن يشغل بأعداء في قلب المدينة التي اصطفاها الله لتكون مركز الإشعاع ومنبع النور . فما إن قيل له عليه السلام « يا رسول الله لو أتيت عبد الله بن أبي بن سلول ليكون ذلك سببا لإسلام من تخلف من قومه » ، حتى انطلق عليه الصلاة والسلام راكبا حمرا ، وانطلق

المسلمون يمشون معه . فلما أتاه النبي — صلى الله عليه وسلم —
قال له عبد الله :

— إليك عني ، والله لقد آذاني نثن حمارك .

فقال رجل من الأنصار :

— والله لحمار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أطيّب ريحا

منك .

فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه ، فغضب لكل واحد
منهما أصحابه فكان بينهما ضرب بالحريد والأيدى والنعال ،
فنزل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلتوا فأصلحوا بينهما فإن
بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله .
فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب
المقسطين (١) » .

قام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطب يوم الجمعة في مسجده فاذا بالطبل يدوى في جنبات المدينة ، فمال بعض المصلين على بعض وقالوا :

— قدمت غير دحية الكلبي .

وخرج بعض المصلين للشراء من طعام تلك العير والتفرج عليها ، وخرجت بعض النساء من دورهن للتفرج على دحية الكلبي والنظر إلى وجهه لفرط جماله ، فقد كان إذا قدم يخرج أهله للقاءه بالطبل واللهو فيخرج الناس مهطعين إلى العير التي اشتهرت باللهو والتجارة .

واستمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في خطبته :

— كل ما هو آت قريب ، لا بعد لما هو آت ، لا يعجل الله لعجلة أحد ولا يخف لأمر من الناس ، يريد الناس أمرا ويريد الله أمرا ، فما شاء الله كان لا ما شاء الناس ، وما شاء الله كان ولو كره الناس ، لا مبعد لما قرب الله ، ولا مقرب لما بعد الله ، ولا يكون شيء إلا بأذن الله .

ورجع بعض الذين انفضوا ليصلوا صلاة الجمعة خلف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان الإسلام حديث عهد بالمدينة ولم تكن أركانه قد ثبتت بعد في نفوس الناس ، فأنزل

— الهجرة

الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين (١) » . ليرشد الذين اصطفاهم لنصرة نبيه إلى السلوك القويم ، ويغرس في نفوسهم الشرائع حتى يصبحوا قادرين على حمل أشرف رسالة حملها بشر .

واستوخم المهاجرون هواء المدينة ولم يوافق أمرجتهم ؛ فقد كانت المدينة معروفة بالوباء ، وكان إذا أشرف على وادها أحد نهق نهيق الحمار فقد كان ذلك في زعمهم يجعل الوباء لا يضره . وكان ممن أصابهم الحمى أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة وبلال ، فراح الرسول عليه السلام يعود أصحابه ، فدخل على أبي بكر فقال له :

— كيف تجدك ؟

فأشدد أبو بكر :

كل امرئ مصبَّح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
ثم دخل — صلى الله عليه وسلم — على بلال فقال :
— كيف تجدك يا بلال ؟

فراح بلال يقول متشوقا إلى مكة :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وجوى إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يدون لى شامة وطفيل
اللهم العن شعبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من
أرضنا .

ثم دخل عليه الصلاة والسلام على عامر بن فهيرة فقال :
— كيف تجددك يا عامر ؟

فقال عامر :

إني وجدت الموت قبل ذوقه إن الحبان خنقه من فرقه
واستمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يعود أصحابه ،
وكان يحزنه أنهم ضعفوا حتى كانوا يصلون من قعود ، فأراد أن
يرفع من روحهم المعنوية فقال — صلى الله عليه وسلم :
— اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم .
فتجشموا المشقة وصلوا قياما .

وأشفق على أصحابه فنظر إلى السماء وقال :

— اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد .

وراح يدعو الله أن ينقل الوباء عن المدينة ، فاذا بها تعود أصح .
بلاد الله . وصدقت النبوة التي قالت : من تحت رجله تزول
الحمى .

وأصبح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبلة أفكار سلمان
الفارسي : إنه ترك الأهل والأوطان للبحث عن الحقيقة . وقد
فقد حريته وقاسى قسوة الرق في سبيل الحقيقة : وهو يريد
حقيقة لازيف فيها . حقيقة يطمئن لها الفكر والقلب معا . إن وجه
محمد بن عبد الله يتم عن صدق يجذب القواد إليه . وإن ما يتلو من

القرآن يسمو على كل ما قرأه سلمان في الكنائس وفي كتب الأولين فهو يرفع سامعه إلى السموات العلا ليدق أبواب الملكوت وينتشي بفيض الرحمة ويمتلئ بآثار الحكمة . ولكنه لا يريد أن يتسرع أو يخطو خطوة قبل أن يكون على يقين من أنه على الطريق ، إنه أي أن يأكل الصدقة وهذه واحدة ولكن لا يزال هناك تجربتان أخريان ، فراح يجمع شيئاً ثم جاء به فقال له :

— إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها .

فأكل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منها وأمر أصحابه فأكلوا معه ، فقال سلمان في نفسه :

— هاتان ثنتان .

ولم تبق إلا الحجة الثالثة خاتم النبوة . فالذى ينتظره وخرج من بلاده يهيم على وجهه في الأرض من أجله « أثر سلطانه على كنفه » . فكيف يحتمل سلمان ليرى ذلك البرهان ؟

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد نزل في قباء في دار عمرو بن عوف في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف ، ونزل على بن أبي طالب لما قدم من مكة مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم . وأنه رأى امرأة مسلمة لا زوج لها يأتيتها إنسان في جوف الليل يضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطئها شيئاً معه فتأخذ ، فانطلقت على إليها فسالها فقالت :

— هذا سهل بن حنيف قد عرف أي امرأة لا أحدي ، فاذا أمسى غدا على أولئك قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال احتطبي بهذا .

فعرف على ذلك لسهل بن حنيف ، وكانت إقامة على بقاء
ليتين ثم انطلق بعدهما رسول الله عليه السلام ومن معه إلى المدينة
لينزل دار أبي أيوب الأنصاري . وكان كلثوم بن الهدم أول من
توفي من المسلمين ، فخرج رسول الله عليه السلام يشيعه سلمان
الفارسي قد تبع الجنائزة وقد جعل عينيه على الرسول عليه السلام .
حتى إذا ما بلغت جنازة كلثوم بقيع الفرقد مقبرة أهل المدينة جلس
عليه السلام في أصحابه ، فأقبل عليه سلمان وعليه شملتان ، فسلم
عليه ثم استدار ينظر إلى ظهره لعله يرى الخاتم الذي وصف له ،
فلما رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — استدبره عرف أنه
يستثبت في شيء وصف له ، فالتقى ردائه عن ظهره فنظر سلمان
إلى الخاتم فعرفه ، فأكب عليه يقبله ويبكي ، فقال له رسول الله
— صلى الله عليه وسلم :

— تحول .

فتحول فجلس بين يديه ، فقص عليه حديثه منذ حبسه أبوه
في بيته كما تحبس الجارية من فرط حبه إياه واجتهاده في المجوسية
حتى كان قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تحبو ساعة ، وكيف
مر بكنيسة وسمع أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكيف اهتدى إلى
أن النصرانية خير من المجوسية ، وكيف اتفق مع الأنصاري على
الهرب إلى الشام أصل الدين الذي فتن به وما كان بينه وبين أسقف
النصاري السبي يدمشق وما كان بينه وبين الأسقف الصالح الذي
جعلوه مكان الأسقف السبي الذي رجموه .
وراح سلمان يقص قصة خروجه إلى الموصل للبحث عن

الحقيقة ورسول الله عليه السلام يصغى إليه وقد لاح البشر في وجهه .
وروى سلمان في انفعال ما كان بينه وبين صاحبه في نصيين وكيف
أن نور اليقين لم يشرق في قلبه طوال سياحته في الأرض ، فهو
يطلب اليقين ولا شيء دونه ، وكيف انتقل إلى عمورية واكتسب
فيها حتى كانت له بقرات وغنيمة .

ثم راح يروى ما كان بينه وبين صاحبه وقد ترقق الدمع
في عينيه ، قال :

- قلت لصاحبي : وبم تأمرني ؟ قال : أى بنى ، والله
ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به
أن تأتبه ، ولكنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم
عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مهاجرة إلى أرض بين حرتين (١)
بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة
وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مر بي نفر من
كلب تجار فقلت لهم احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي
هذه وغنيمتى هذه ، قالوا نعم ، فأعطيتهموها وحملوني معهم ،
حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودى عبدا ،
فكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف
لى صاحبي ولم يحقّ فى نفسى ، فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له
من بنى قريظة من المدينة فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله
ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي فأقمت بها .

(١) العرة كل أرض ذات حجارة سود .

واستمر سلمان يقص على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديثه ، ثم أعلن إسلامه بعد أن عثر على ضالته ؛ الحقيقة الناصعة التي لا ريب فيها . فكان سلمان سابق الفرس كما كان بلال سابق الحبشة وصهيب سابق الروم .

وذاق سلمان حلاوة الإيمان ، وكان فؤاده يهوى إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فهو يستشعر سعادة عارمة كلما كان بقربه وفراغا مقيتا كلما بعد عنه . ولولا الرق الذي يكبله ما فارق حبيبه أبدا ولعاش في رحاب محبته وعلمه وحكمته وخلقه العظيم .

وأحب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سلمان ، ورأى أن من الخير لسلمان وللإسلام أن يكون ذلك الذي وهب حياته عن طيب خاطر لله بقربه على الدوام ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم ؛

- كاتب صاحبك يا سلمان ؛ لعل الله يرقق قلبه . فيعتقك .

فذهب سلمان يفاوض صاحبه على أن يعمل له ما يتفقان عليه لقاء عتقه وفك رقبتة من نير الرق الأليم ، وكان صاحبه يهوديا جشعا فطلب منه أن يحجي له ثلاثمائة نخلة بالحفر والغرس وأربعين أوقية من الذهب . وحز ذلك في نفس سلمان فمتى يستطيع أن ينجز الحفر والغرس لثلاثمائة نخلة ، وإن استطاع ذلك فمن أين له المال ؟ إن ذلك سيبعد أمنيته الغالية أن يكون في صحبة حبيبه ورسوله وهاديه إلى الطريق المستقيم ، ولكنه لم يكن هناك مفر من توقيع ذلك الاتفاق ، فكاتب صاحبه على ذلك الظلم المبين .

وعلم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بأمر هذه المكاتب

فقال لأصحابه :

— أعينوا أخاكم .

فراحوا يعينون سلمان بالنخل ، الرجل بثلاثين ودية (فراخ النخل الصغار) ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية ، والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت له ثلاثمائة ودية ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم : — اذهب يا سلمان ففقر لها (احفر) ، فاذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي .

وغدا سلمان يحفر ، وطفق أصحابه يحفرون معه والعرق يتفصد منهم ، حتى إذا فرغوا جاء سلمان الرسول عليه السلام فأخبره ، فخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — معه إليها ، فجعلوا يقربون إليه الودي ويضعه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيده ، حتى فرغوا ، وقد كانوا جميعا مقبلين على العمل مستبشرين ، وكان الرسول عليه السلام أكثرهم إقبالا على العمل على الرغم من شواغله الكثيرة في المدينة ، فقد كانوا جميعا يجاهدون في سبيل تحرير رقبة مؤمنة ليعود صاحبها حرا كما ولدته أمه ، فليست الحرية عندهم أن ينعموا وخدمهم بالحرية ، بل أن يسعد بها كل الناس .

كان سلمان قد غرس بيده ودية واحدة وغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرهما ، فعاشت كلها إلا التي غرسها سلمان ، فأدّى سلمان النخل وبقى عليه المال ، فمن أين لسلمان بأربعين أوقية من الذهب ؟

كان المجتمع الجديد في مدينة الرسول يصهر ليكون خير أمة

أخرجت للناس ، وكان الرسول عليه السلام أسوة حسنة لأصحابه ،
فراح يعلمهم التعاون على البر والتقوى وأن السعادة الحقة هي
إسعاد الغير ، فراح يعمل ليساهم في دين سلمان ، وغدا الآخرون
يعملون ليوفروا أربعين أوقية من الذهب لتعود لسلمان إنسانيته
التي سلبها تجار الرقيق غلاظ الأكباد :

وما كان ذلك أمرا ميسورا ، فاستمر محمد عليه السلام وصحبه
يجاهدون لتحقيق حلم سلمان ، فيعملون ويدخرون ، وإن حياة نبي
الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه في المدينة كلها جهاد في
سبيل إرساء قواعد رفعة البشرية جميعا .

بنى مسجد الرسول في المدينة ليكون مقر الأمة الإسلامية الجديدة ، جماعة الله التي تسهر على مبادئ الإسلام ونصرة المظلوم وحماية الحار ، يكلوها الله بعين رعايته فهي تعيش لله وفي الله وبالله ، ويسوس أمورها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا لأنه سيد من سادات قریش من ذوى المنعة والقوة والسلطان ، ولا لأنه من الغزاة المغاوير الذين أدانوا الأمم بسطوة السيف والإرهاب ، ولا لأنه من الزعماء السياسيين الذين يستخدمون الدهاء ويمنون الناس بالأمانى حتى يستحوذوا على الرقاب ، بل لأنه جاءهم برسالة من ربه انشروا لها صدورهم وأنارت باليقين أفئدتهم ، فكان رسول الله عليه السلام راعى رسالة السماء يقود جماعة الله باسم الله ، يربط بين قلوبهم جميعا بالإيمان بالله ، على استعداد على الدوام لأن يجود الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأتباعه بأرواحهم في سبيل نصرة الله ، رجاء فيما بينهم يوثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة .

ودخل نبي الله عليه السلام دار زيد بن سهل زوج أم أنس ابن مالك وأرسل يستدعى أصحابه من المهاجرين والأنصار ليؤاخي بينهم على المواساة والحق ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام ليكون بتلك المواخاة الاتحاد المنبشود لقيام أمة قوية قادرة

على الصمود في وجه الأعداء المحيطين بها من كل جانب ، وليقضى على سوس الفرقة الذي ينخر في عظام أى نظام حتى ينهار :

وجاء عثمان بن مظعون أخوه — صلى الله عليه وسلم — من الرضاعة ومن جعله أميرا على المسلمين الذين هاجروا أول مرة إلى الحبشة وزوج خولة بنت حكيم التى عرضت عليه أن يتزوج سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبى بكر ، وكانت خولة قد شكت أن زوجها يقوم الليل ويصوم النهار قد هجر الدنيا وغالى في الإعراض عنها ، فقال — صلى الله عليه وسلم — له :

— يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا ، أما لك بي أسوة ؟ والله إن أخشاكم لله وحدوده لأنا .

وأقبل خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار فقال عليه السلام :

— إني محدثكم بحديث فاحفظوه وعوه وحدثوا به من بعدكم :
إن الله تعالى أصطنى من خلقه خلقا ، ثم تلا : « الله يصطنى من الملائكة رسلا ومن الناس (١) » . وإني أصطنى منكم من أحب أن أصطفيه وأواخى بينكم كما آخى الله تعالى من الملائكة . قم يا أبا بكر .

فقام فجثا بين يدى رسول الله عليه السلام فقال :
— إن لك عندى يدا الله يجزيك بها ، ولو كنت متخذًا خليلا لا تتخذتك خليلا فانت منى بمنزلة قميصى من جسدى .
ودعا — صلى الله عليه وسلم — خارجة بن زيد وكان صهرا

لأبي بكر ، كانت ابنته تحت أبي بكر ، وقال عليه السلام لمن عندنا
— تأخروا في الله أخوين أخوين .

وأخى بين أبي بكر وخارجة بن زيد ، ثم قال :
— ادن يا عمر .

فدنا فقال عليه السلام :

— قد كنت شديد البأس علينا يا أبا حفص فدعوت الله
يقرب بك الدين أو بأبي جهل ، ففعل الله ذلك بك وكنت أحبه
إلى الله :

وأخى بين عمر وعثمان بن مالك ، وبين أبي رويم الخثعمي
وبين بلال ، وبين أسيد بن حضير وبين زيد بن حارثة وكان أسه
من أحسن الناس صوتا بالقرآن وكان أحد العقلاء أهل الرأي
وأخى بين أبي عبيدة وبين سعد بن معاذ ، وأخى بين عبد الرحمة
ابن عوف وبين سعد بن الربيع . وقد هزت الأريحية سعد
الربيع فقال لابن عوف :

— يا عبد الرحمن ، إني من أكثر الأنصار مالا فأنا مقاسمك
وعندي امرأتان فأنا مطلق لإحدهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها .
فقال له عبد الرحمن :

— بارك الله لك في أهلك ومالك .

كان عرضا من سعد بن الربيع وكان رفضا مهذبا من عبد الرحمة
ابن عوف ، فعبد الرحمن تاجر من أنجح تجار العرب ، وك
أول ما قال بعد أن هاجر إلى المدينة : « أين مكان الصفاق ؟
يسأل عن السوق فهو خبير بالأسواق ، قادر على أن يكس

ما يحتاج إليه دون أن يكون كلاله على أحد ، وكان قادرا على أن يتخذ له زوجة من الأنصار دون أن يطلق سعد بن الربيع إحدى زوجتيه ليتزوجها . فأبو بكر الصديق تزوج بنت خاتمة بن زيد قبل أن يؤاخي رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وتزوج المهاجرون من بنات الأنصار ، ولم يحدث أن طلق أحد من الأنصار إحدى زوجاته ليتزوجها رجل من المهاجرين كما زعم بعض الإخباريين .

وآخى — صلى الله عليه وسلم — بين جعفر بن أبي طالب وهو غائب بالحبشة وبين معاذ بن جبل ، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب الأنصاري ، وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ولم يكن سلمان قد أعتق بعد . وجاء سلمان لأبي الدرداء زائرا فرأى أم الدرداء قد أهملت نفسها ولاح في وجهها القمر فقال لها :
— ما شأنك ؟

— إن أخاك ليس له حاجة في شيء من الدنيا .

فذهب سلمان إلى أبي الدرداء فقال له :

— إن لربك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولجسدك عليك

حقا ، فأعط كل ذي حق حقه .

فذهب أبو الدرداء إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — يروي له

ما كان من سلمان ، فإذا بالنبي صلوات الله وسلامه عليه الذي

يقول إن الرهبانية لم تكتب علينا يؤيد ما قال سلمان ، وإذا بأبي

الدرداء يعود إلى أهله لياخذ بنصيبه من الدنيا كما يأخذ بنصيبه

من الآخرة .

ومات أبو إمامة أسعد بن زرارة والمسجد بيني أخذته الذبحة ،
فحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حزنا شديدا عليه ،
وجاء بنو النجار وقالوا لنبي الله عليه السلام :
— اجعل لنا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم .
وكره أن يخص بذلك بعضهم دون بعض فقال لهم :
— أنتم أخواني وأنا نقييكم .

فتمضى بذلك على المطامع التي بدأت تتحرك في صدور سادات
بنى النجار وأحمد أنفاس الفتنة ، ورضى بنو النجار جميعا أن
يكون رسول الله الحبيب نقييهم ، وكان ذلك من مفاخرهم .
إنه عليم بالذات البشرية يعرف كبة ، يعالج نزواتها ويطمئن
القلوب القلقة ويعيد النفوس النافرة إلى جادة الطريق في لين أشبه
بالسحر المبين .

وبلغ السخف باليهود والمنافقين أن قالوا لو كان نبيا لم يمت
صاحبه فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :
— بئس الميت أبو إمامة ! اليهود ومنافقو العرب يقولون ،
لو كان نبيا لم يمت صاحبه ! ولا أملك لنفسى ولا لصاحبي من
ذلك من شيء .

وجاء الناعي يحمل إليه موت أخيه من الرضاعة عثمان بن مظعون
فوجد عليه وجدا شديدا ، وانطلق إلى داره فألقاه مسجى قد أسبل
جفنيه على عينيه إلى يوم الدين ، فمال عليه وقبله فسالت دموع
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على خدى عثمان بن مظعون .
وجعل النساء يبكين فراح عمر يسكنهن ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم :

— مهلا يا عمر .

ثم راح عليه السلام يخاطب النساء :

— إياكن ونعيق الشيطان ، ومهما كان من العين فمن الله
ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان .

وقالت امرأته خولة بنت حكيم :

— طبت ، هنيئاً لك الحنة أبا السائب .

فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة غضب
وقال :

— ما يدريك ؟

— يا رسول الله مارسك وصاحبك .

— وما أدرى ما يفعل بي .

فأشفق الناس على عثمان ونزل بأفئدتهم خشوع . ورهبة ،
فالأمر لله إن شاء غفر وإن شاء عذب وإلى الله ترجع الأمور .

وغسل عثمان وكفن ، وسارت الحنازة إلى البقيع لدفن أول
من مات من المهاجرين في مقابر الأنصار لتتم الوحدة بين المسلمين
أحياء وأمواتا . وقبر عثمان وأمر — صلى الله عليه وسلم — أن يرش
قبره بالماء ، وأمر رجلا أن يأتية بحجر ، فأخذ الرجل حجرا
ضعف عن حمله ، فقام إليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
فحسر عن ذراعيه ثم حمله ووضع عند رأس القبر وقال :

— أتعلم به قبر أخى ، وأدفن إليه من مات من أهلى .

وانتشر المهاجرون والأنصار فى الأرض يبتغون من فضل الله

وقد أَلَفَ اللهُ بين قلوبهم ، وكان الأنصار لا ييخلون بشيء لإرضاء المهاجرين وتوفير الراجة لهم ، فجاء المهاجرون إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقالوا له :

— يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مؤاساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير ، كفونا المؤنة وأشركونا في المهنة ، حتى لقد خشيننا أن يذهبوا بالأجر كله .
— لا ، ما أنثيتم ودعوتم لهم .

كان الناس يجتمعون للصلاة لتحين موابقتها . فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة ، وكان ناس من المسلمين تفوتهم صلاة الجماعة لانشغالهم فى أعمالهم عن تحين موابقت الصلاة . فراح عليه السلام وأصحابه يتشاورون كيف يجمع الناس للصلاة ، فقليل له :

— انصب راية عند حضور الصلاة . فاذا رآها الناس آذن بعضهم بعضا .

فلم يعجبه ذلك . فذكر له القرن وهو بوق يدعو به اليهود لصلاتهم . فكرهه - صلى الله عليه وسلم - وقال :

— هو من أمر اليهود .

فذكر له الناقوس الذى يدعو النصارى به لصلاتهم . فقال :

— هو من أمر النصارى .

— لو رفعنا نارا فاذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة .

— ذلك للمجوس .

فقال عمر :

— أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم :

(الحجرة)

— لقد هممت أن أبث رجالا ينادون الناس بحين الصلاة .
وقد هممت أن أمر رجالا تقوم على الآطام ينادون المسلمين بحين الصلاة .

ثم أمر بلالا أن ينادى للصلاة ، فقام بلال يقول :
— الصلاة جامعة ... الصلاة جامعة .

فجاء الناس من الدور ومن الأسواق ليصلوا خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ودخل عبد الله بن زيد لينام فطاف به وهو بين نائم ويقظان
رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده ، فقال ابن زيد :
— يا عبد الله أتبيع الناقوس ؟

— وما تصنع به ؟

— ندعوه به إلى الصلاة .

— أفلا أدلك على ما هو خير لك ؟

— بلى .

— تقول : الله أكبر : الله أكبر . الله أكبر ، الله أكبر .
أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمدا
رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله . حي على الصلاة ، حي على
الصلاة . حي على الفلاح ، حي على الفلاح . الله أكبر الله أكبر .
لا إله إلا الله .

ثم استأخر عنه الرجل غير بعيد ثم قال :

— وتقول إذا قامت الصلاة : الله أكبر الله أكبر . أشهد أن
لا إله إلا الله . أشهد أن محمدا رسول الله . حي على الصلاة حي على

النجاح . قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . الله أكبر الله أكبر .
لا إله إلا الله .

واستيقظ عبد الله وهو في قمة انفعاله ، إنه يذكر رؤياه
حتى إنه يظن أنه كان يقظان غير نائم . وحاول أن يهدي من جيشان
عواطفه وأن يترث حتى يصبح ولكنه لم يستطع الصبر على ما رأى .
فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما رأى . فقال
له عليه السلام :

— إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى . فقم مع بلال فائق عليه
ما رأيت فليؤذن به . فإنه أنلدى صوتاً منك .

. وجاء بلال إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال له :

— قم فانظر ما أمرك به عبد الله بن زيد فافعله .

فجعل عبد الله يلقى عليه الأذان ويؤذن بلال به . وكان عمر
ابن الخطاب في بيته ، فلما مس الأذان أذنيه ارتسم العجب في وجهه ،
فخرج يجر رداءه وهو في دهشة من أمره . حتى إذا ما جاء رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — يسأله خبر الأذان وعلم بما رأى
عبد الله قال :

— والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى

عبد الله بن زيد .

— فله الحمد .

وانشرفت صدور المسلمين لما سمعوا الأذان في التجر ،
وخرجوا إلى المسجد مستبشرين . أما اليهود فقد انقبضت أفئدتهم
ونزل بهم هم ثقيل . فمند أن هاجر النبي عليه الصلاة والسلام

إلى المدينة حسدوه وخافوا أن يجمع كلمة الأوس والخزرج فلا تكون لهم طاقة بهم ، إنهم ألقوا إليه أسماهم وعرفوا أنه ما جاء إلا بالحق ولكن غرور بعضهم قد دفعهم إلى تكذيبه ومحاولة النيل منه ؟

لما سمع عبد الله بن سلام برسول الله — صلى الله عليه وسلم — عرف صفته واسمه وزمانه الذي كانوا يترقبونه . فكان مسرعا لذلك صامتا عليه . حتى قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة . فلما نزل بقاء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبره بقدمه وعبد الله بن سلام في رأس نخلة له يعمل فيها . وعمته خالدة بنت الحارث تحته جالسة . فلما سمع الخبر بقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كبر . فقامت له عمته حين سمعت تكبيره :

— خبيك الله ! والله لو كنت سمعت موسى بن عمران قادما ما زدت !

— أى عمه . هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه .
بعث بما بعث به .

— أى ابن أخى . أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟

— نعم .

— فاذاك إذا .

فخرج إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأسلم . ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا ، وكنتم إسلامه من يهود .

وذهب حيي بن أخطب أبو صفية وأخوه أبو ياسر ، وكانا من أكبر اليهود وأعظمهم ، إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءا من العشي فذهبت صفية لاستقبالهما وكانت من أحب ولد أبيها إليه وإلى عمها أبي ياسر ، لم تلقهما قط مع ولد لهما إلا أخذها دونه . فلم يلتفت إليها واحد منهما مع ما بهما من الغم . والتفت أبو ياسر إلى أخيه حيي بن أخطب :

— أهو هو ؟

— نعم والله .

— أتعرفه وتثبته ؟

— نعم .

— فما في نفسك منه ؟

— عداوته والله ما بقيت .

وعجبت صفية في نفسها . إنهما ليعرفانه وإنه لهو هو فلماذا يتفقان على عداوته ما دام نور الحق قد لاح للبصائر ، وما دام قد ثبت أنه النبي الذي كانوا ينتظرون ! إن اليهود قد وقر في نفوسهم أنهم وحدهم الناس وأن الله اصطفاهم لتكون النبوة فيهم دون سائر البشر ، فإذا ما أقرروا برسالة محمد بن عبد الله عليه السلام فإن ذلك يقضى على زعم الاصطفاء ، وما كان ذلك ليرضى الذين عبدوا أنفسهم غرورا .

وجاء عبد الله بن سلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

فقال له :

— يا رسول الله إن يهود قوم بهت (باطل) ، وإني أحب أن

تدخلني في بعض بيوتك وتغيثني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي . فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .

فأدخله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلّموه وسألوه ، ثم قال لهم :
— أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟
— سيدنا وابن سيدنا وجبرنا وعالمنا .
فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم فقال لهم :

— يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجلدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته . فأني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقّه وأعرفه .
وثارت الدماء في عروق اليهود ولاح في وجوههم الغضب والانفعال فقالوا :
— كذبت .

وراجوا يعددون مساوئ ابن سلام من قالوا فيه منذ لحظات .
إنه سيدهم وعالمهم . فالتفت ابن سلام إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :
— ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ؟

وأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بكتابة كتاب بين المهاجرين والأنصار وموادة يهود وإقرارهم على دينهم ، فهو يريد عليه السلام أن يستقر السلام في المدينة حتى يستطيع أن يبلغ

رسالات ربه في قبائل العرب ، وألا يؤلب عليه أعداء في الداخل
قد يتحالفون مع قريش ذات يوم للقضاء عليه وعلى دين الله .
وقد كان الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد
النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم وحقق
بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس : المهاجرون
من قريش على ربعتهم (أمرهم الذي كانوا عليه) يتعاقلون بينهم
وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم (الديات) الأولى
وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلمهم الأولى وكل طائفة
تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على
ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف
والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم
الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل
طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت
على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها
بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون
معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين
المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (المثل بالدين والكثير
العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . وأنه لا
يُخالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وإن المؤمنين المتقين على من بغى

منهم أو ابتغى دسيسة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين . وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن . وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدانهم . وإن المؤمنين موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله عز وجل إلا على سواء وعدل بينهم . وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضا . وإن المؤمنين بيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله عز وجل . وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وإنه لا يُجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على قومه . وإن من اعتبط (قتل يلاجناية توجب القتل) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود (قصاص) به إلا أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا القيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما جاء في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه . وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوقع (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف . ألا من ظلم وأثم فانه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته .

وإن جفثنة من بنى ثعلبة كأنفسهم . وإن لبنى الشظنة مثل ما ليهود بنى عوف . وإن البر دون الإثم . وإن موالى ثعلبة كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم . وإنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد ، وأنه لا يشحجز على تأرجرج . وإنه من قتل فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . وإن الله على أبر هذا (على الرضا به) . وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وإن النصر للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وإن الحار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه لا تجار حرمة إلا باذن أهلها . وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله . وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره . وإنه لا يبار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين -

على كل أناس- حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس
مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحسن .
وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وإن الله على
أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون
ظالم ولا آثم . وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من
ظلم وأثم . وإن الله جاز لمن بر واثق ، ومحمد رسول الله .

ذاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طعم الراحة بعد السنين الطويلة التي أمضاها في مكة منذ أن بعث إلى أن هاجر ، وهو هدف الاضطهاد والسخرية والتكذيب ، ولولا أن الله كتب على نفسه أن يعصم رسوله من الناس لنجح أعداؤه في قتله ، فما أكثر ما حاولوا أن يلقوا عليه صخرة أو يطعنوه بخنجر أو يصبوا سهما إلى فؤاده . ولكن الله كان ينزل الرعب في قلوبهم ، فكانوا يحجمون عن اغتياله مفزوعين ويدورون على أعقابهم تكاد قلوبهم أن تخرج من ذلك المجهول الذي يغمرهم بخوف شديد .

وفي الليلة التي قرر أن يهاجر فيها إلى ربه أحاط بداره سادات قريش ومن كل قبيلة فتى شاب جليد نسيب وسيط فيهم . وفي يد كل فتى منهم سيف صارم ليضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فيستريحوا منه . ويتفرق دمه في القبائل جميعا فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا . وما دار بخلداهم أن الذي كتب على نفسه عصمة رسوله قادر على أن يستنقذه منهم . فأنخذ على أبصارهم عنه فأنسل من بينهم دون أن يروه .

وجاء إلى المدينة فإذا بأَنْصاره والمهاجرين يستقبلونه استقبالا مفعما بأَنْبل مشاعر البشرية . وإذا بهم جميعا سامعين طائعين فرحين مستبشرين خاضعين لقانون الله يستشعرون حرية روحية

ترفعهم عن الزوات ورغبات الجسد وتطهر نفوسهم من الكراهية والبغضاء والحسد ، فإذا باءت نفوسهم التي كانت تنزح قد أصبحت تفيض حبا . وإذا بالحياة تشرق بالآمال ويصير لها معنى بعد أن كانت عجلة الوجود الكثيرة تدور في فراغ إلى الأبد .

وصارت شريعة الرب هي حياة المدينة . فإذا ما نزل من السماء أمر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدع له المسلمون جميعا . إنه لما قدم نبي الله عليه السلام كان أهلها من أنخبث الناس كيلا . فلما أنزل الله تعالى : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين (١) » . تغير الحال عقب أن قرأ عليه السلام في السوق ما أوحى إليه : فأصبح المدنيون من أفضل أهل الأرض كيلا .

إنه عليه السلام قد كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم ، وقد صار بذلك الكتاب صاحب الكلمة العليا في المدينة .

وما كان يعكر صفو تلك الأيام إلا ذلك الغرور الذي يملأ جوانح اليهود : فقد سمعوا به أول ما سمعوا يوم أن بعث قريش إليهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ليسألاهم عن محمد فهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم من علم الأنبياء : فلما جاءهم قالوا لها : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ،

فانه قد كان لهم حديث عجب ؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هي ؟ فأنزل الله آيات أصحاب الكهف : وأنزل آيات ذى القرنين . وقال تعالى فيما سأله عنه من أمر الروح : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (١) » . وقد بلغ يهود ما أنزل الله . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قالت أحبار اليهود :

— يا محمد أرأيت قولك : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .
إيانا تريد أم قومك ؟
— كُلاً .

وظهرت الدهشة في وجوه المغرورين المفتونين بتوراة الله التي امتزجت بأساطير البابليين وقالوا :
— فانك تتلوفيا جاءك : إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء .
— إنها في علم الله قليل . وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

فأنزل الله تعالى فيما سأله عنه من ذلك : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم (٢) » . ولم يقتنع الذين عبدوا أنفسهم غرورا أن علمهم من علم الله قليل !

كان الحوار دائرا بينه عليه السلام وبين يهود مذ وطئت قدماه أرض المدينة . وكان الوحي ينزل عليه فيما يسألونه عنه . جاءه

ذات يوم ناس منهم فقالوا :

— صف لنا ربك .. فإن الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا من
أى شىء هو ؟ ومن أى جنس هو ؟ أذهب هو أم نحاس أم فضة ؟
وهل يأكل ويشرب ؟ ومن ورث الدنيا ومن يورثها ؟
كانوا يتحدثون في صلف كأنما كانت عندهم خزائن علم الله ،
وما خطر لهم على بال أن صفات الله التي نزلت على موسى عليه
السلام قد اعتورها ما اعتور التوراة في أرض السبي ، وأنهم
لما كانوا مهزومين مخذولين في بابل راخوا يصورون إلههم يهوه
إله صحرانيا قاسيا يحب سفك الدماء ويبارك الخديعة والغش
والبهتان ، إله قد صاغته أمانيتهم فهو لنس إسرائيل وحدهم دون
الناس .

فأنزل الله على رسوله عليه السلام : « قل هو الله أحد . الله
الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (١) » .
فبهتوا وانصرفوا يفكرون في حوار آخر يعاونهم على إطفاء
ذلك النور الذي غمر المدينة . والذي يوشك أن يغمر كل ما حولها .
كان رسول الله عليه السلام راضيا بإشراق نور الله في المدينة
وبما لى هو وأصحابه فيها من أمن واستقرار . وكان في بغض
أوقات راحته يسرح خياله يفكر في الطاهرة سيدة نساء قريش .
فهو لا ينسى أبدا مواساتها إياه وخضانتها للإسلام وما قاست
من أهوال في سبيل نصره دين الله . وكان يتمنى أحيانا لو أنها
كانت إلى جواره تشهد تحقيق حلمها الذي رأت فيه الشمس تنحدر

إلى دارها لتشرق منه على العالمين . وسرعان ما يفيق من شروده
ليستغفر ربه فما شاء الله كان .

وكان رسول الله عليه السلام يرجو أن يهدي الله اليهود إلى
الإسلام . فلما نطق عبد الله بن سلام بشهادة الحق طمع عليه السلام
في إسلام يهود بني قينقاع ، فأرسل أبا بكر إلى فيحاص بن عازوراء
بكتاب وكان انفرد بالعلم والسيادة على يهود بني قينقاع بعد إسلام
عبد الله بن سلام . وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأبي
بكر :

— لا تفتت على بشيء حتى ترجع إلى .

وجاء أبو بكر إلى فيحاص ودفع إليه بكتاب رسول الله —
صلى الله عليه وسلم . فراح فيحاص يقرأ الكتاب فإذا بنى الله عليه
السلام يأمرهم بالإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله
قرضاً حسناً . فلما انتهى فيحاص من قراءة الكتاب قال :

— يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا وما يستقرض
إلا الفقير من الغنى . فإن كان حقاً ما تقول فإن الله إذا فقير ونحن
أغنياء .

فثارت الدماء في عروق أبي بكر فضرب وجه فيحاص ضرباً
شديداً . وهم أن يضربه بالسيف لولا أن تذكر ما قاله له رسول الله
صلوات الله وسلامه عليه لما دفع إليه الكتاب .

وجاء فيحاص إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشكا أبا بكر
فقال — صلى الله عليه وسلم — لأبي بكر :

— ما حملك على ما صنعت ؟

— يا رسول الله إنه قال قولا عظيما . زعم أن الله عز وجل فقير وأنهم أغنياء ، فغضبت لله تعالى .
وقال فيحاص :
— والله ما قلت هذا .

وأنزل الله على عبده تصديقا لأبي بكر : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين (١) » .

ونزل في أبي بكر الصديق وما بلغه في ذلك من الغضب :
« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور . (٢) » .
كان اليهود يعتقدون أن الرسالة فيهم لأنهم شعب الله المختار . فلما جاء النبي الأمي من الأمم نال ذلك من كبريائهم وقوض أوهامهم . ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — العداوة بغيا وحسدا وضغنا . وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن بقى على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث . إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فتظاهروا بالإسلام ونافقوا في السر وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبي — صلى الله عليه وسلم — وجحودهم الإسلام .

وكانت عداوتهم خفية لم يجهروا بها كما جهر بها في مكة
أبو جهل بن هشام وأبو سفيان بن حرب وأمّية بن خلف والنضر
ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط وكفار قریش . بينا كانت أحبار
يهود هم الذين يسألون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويتعنونه
ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل . فكان القرآن ينزل فيهم
فيما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام كان
المسلمون يسألون عنها .

وكان شاس بن قيس شيخا قد أسن وولى من أحبار اليهود .
عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم . قد مر على
نفر من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الأوس
والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من
الفتنهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان
بينهم من العداوة في الجاهلية . فقال في نفسه :

— قد اجتمع ملأً بنى قبيلة بهذه البلاد . لا والله ما لنا معهم
إذا اجتمع ملوهم بها من قرار .

فأمر فتى شابا من يهود فقال له :

— اعمد إليهم فاجلس معهم . ثم اذكر يوم بعث وما كان
قبله وأنشدكم بعض ما كانوا تناولوا فيه من الأشعار .

كانت المعركة التي دارت بين الأوس والخزرج يوم بعث
مريرة حصدت فيها رعويس . وقد قام شعراء الأوس قيس بن
الحطيم وأبو قيس بن الأسلت بدور عظيم في تأجيج نار الحماصة
في صدور قومهم . ونهض حسان بن ثابت وابن أبي ربيعة وشعراء

— الهجرة —

الخزرج للرد على مزاعم شعراء الأوس . فما إن جلس الشاب اليهودى بين الأنصار حتى راح ينشد شعر أبى قيس بن الأسلت :
على أن فجعته بذى حفاظ فعادوني له حزن رصين
فاما تقتلوه فان عمرا أعض برأسه عضب (١) سنين (٢)
وغدا رجال من الأوس ورجال من الخزرج ينشدون أشعار شعرائهم . فتنازع القوم وتفاخروا حتى تواتب من الحين على الركب أوس بن قيطي أحد بنى حارثة بن الحارث من الأوس . وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج . فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه :

— إن شئتم رددناها الآن جلدعة .

فغضب الفريقان جميعا وقالوا :

— قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة . السلاح السلاح .

وابتسم اليهودى الشاب فى خبث واستبشار . فقد خدعه وهمه فظن أنه أفسد بين قلوب ألف الله بينها . وأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لن ينجح فى رأب الصدع الذى نجح هو فى أن يشقه فى جدار الوحدة التى تمت بين الأوس والخزرج .

وخرج الأوس والخزرج إلى الظاهرة وقد لبسوا السلاح . وقبل أن تنشب المعركة بلغ ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال :

— يا معشر المسلمين الله الله . أبعدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وكرمكم به وقطع به عنكم أمر

الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم ؟
فعرّف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا
وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً . قد أطفأ الله
عنهم كيد شاس بن قيس ، فأُنزل الله تعالى في شاس بن قيس
وما صنع : « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد
على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن
تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (١) » .

كان قيس بن الخطيم شاعر الأوس وكان حسان بن ثابت شاعر
الخزرج . فلما هدت حرب الأوس والخزرج قبل الهجرة تذكر
الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته فيهم فتأمرؤا وتواعدوا قتله .
فخرج عشية من منزله في ملاءتين يريد مالا له ببستان في المدينة .
حتى مر بأطم بنى حارثة . فرمى من الأطم بثلاثة أسهم ، فوقع
أحدها في صدره . فصاح صيحة سمعها رهطه فجاءوا فحملوه إلى
منزله . فلم يروا له كفئاً إلا أبا صعصعة يزيد بن عوف بن مدرك
النجاري . فاندس إليه رجل حتى اغتاله في منزله فضرب عنقه
واشتمل على رأسه . فأتى به قيساً وهو بآخر رمق فألقاه بين يديه
وقال :

— يا قيس قد أدركت بثأرك .

فقال قيس وهو مجود بآخر الأنفاس :

— عضضت بأيرأبيك إن كان غير أبي صعصعة !

— هو أبو صعصعة .

وأراه رأسه .

كانت هذه هي حال الأوس والخزرج قبل أن يهاجر إليهم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وقبل أن يؤلف الله بين قلوبهم . وكانت أهداف أعداء الإسلام أن تخل البغضاء في قلوب الحيين مكان ما نزل فيها من الحب . ولكن رسول الله عليه السلام كان يقف بالمرصاد لمثل هذه المحاولات يقضى عليها قبل أن تتفاقم وتشتد .

وكان عليه السلام أعرف الناس بالطبيعة البشرية . فلم يأمر الناس أن يمحووا من ماضيهم ما قال شعراؤهم في أيامهم من فخر ، بل كان يسمع تلك الأشعار ثم يذكرهم بما أكرمهم الله لما شرح صدورهم إلى الإسلام وألقى في قلوبهم أنوار اليقين .

إن أضحابه في مكة التمسوا منه أن يقص عليهم لما طال حديثه عليه السلام عن الدين وهو في المدينة لا يريد أن تمل قلوب الأنصار . فكان يصغى إلى أشعارهم ويسمع منهم أنباء الغابرين . فقد جلس عليه السلام ذات يوم في مجلس ليس فيه إلا خزرجي . ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم الأوسى :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعنمة وحشا غير موقف راكب
فأنشده بعضهم إياها . فلما بلغ إلى قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدي بالسيف مخراق لأعيب
فالتفت إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :

— هل كان كما ذكر ؟

فشهد له ثابت بن قيس بن شماس وقال له :

— والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد خرج إلينا يوم سابع
عمرسه عليه غلالة وملحفة موروّسة (مصبوغة بالأصفر) فجالد كما
ذكر .

كانت نسائم الدعة تهب رخاء على مدينة الرسول : وكان ذلك
من رحمة الله على المؤمنين حتى يلتقط المهاجرون أنفاسهم قبل أن
ينخوضوا المعارك التي سيغمر بعدها نور الإسلام العالمين .

كان كسرى الثانى قد شن الحرب على بيزنطة ، وغزا قواد
الفرس جهات من آسيا الصغرى واستولوا على الرها وأنطاكية ودمشق
ثم بيت المقدس حيث انتزعوا الصليب وبعثوا به إلى المدائن ،
ثم استولوا على الإسكندرية وأجزاء أخرى من مصر .

وكان شهر براز (خنزير الدولة) أعظم قواد الجيش الإيراني ،
فتقدم فى آسيا الصغرى وضرب حصارا على القسطنطينية ، ولكنه
لم يكن يملك الوسائل لنقل عسكره إلى الساحل الأوروبى للفسفور
فعسكر فى مكانه ينتظر ما تأتى به الأيام .

وأدار ذلك النصر رأس كسرى الثانى فسمى نفسه : « الرجل
الحالد بين الآلة والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت
الدائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل » . وسمى
أبرويز (المظفر) فقد كان نصره على الروم نصرا عظيما لم يتهيا
ملك من ملوك إيران مثله .

وكان كفار قريش ورسول الله — صلى الله عليه وسلم —
وأصحابه بمكة يتابعون أخبار الحرب الدائرة بين الفرس والروم ،
وكان هوى قريش مع الفرس وهوى النبی عليه السلام وأصحابه مع
الروم لأنهم أهل كتاب ، فلما جاءت أنباء انتصار الفرس فرح كفار
مكة وشمّتوا ، فلقوا أصحاب النبی — صلى الله عليه وسلم — فقالوا :

- إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم .

وشق ذلك على الرسول عليه السلام وأصحابه ، فأنزل الله تعالى : « ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين . (١) » . وقامت مشادة بين أبي بكر الصديق وأمّية بن خلف حول ذلك التأكيد ، فتراهن الرجلان وأكد أبو بكر أن الروم ستنتصر على الفرس قبل انقضاء ست سنين . وراحت السنون تمر وكسرى يظلم الشعب ليملأ خزائنه . ولما كان حقودا شديد الشك فإنه كان ينتهز الفرص ليقتل من يشك فيه من الذين أخلصوا في خدمته ويستجيب لأوهام منجميه . إنه سمع من منجميه وكهانه أن منيته آتية من قبل نيمروز أحد خدامه المخلصين . فأجال الرأي في علة ليقتهل بها فلم يجد له عثرة وتذمم من قتله لما علم من طاعته إياه ونصيحته له ونجويته مرضاته . فرأى أن يستبقه ويأمر بقطع يمينه ، ثم بعد أن حرمه من شغل أعظم مناصب الدولة يعوضه منها أموالا عظيمة ، ولكن نيمروز استحلف المملك أن يجيب طلبه والتمس منه أن يأمر بضرب عنقه ليمحي بذلك العار الذي لزمه ، فضربت عنقه وأصبح كسرى عدوا لدودا لمهرمزرد ولد نيمروز .

واستمر كسرى في اغتيال خدامه المخلصين ، فزدين النصارى كان من أسرة تملك أراضى واسعة في كرخا بيت سلوق (كركوك

حاليا) وكانت تشغل منصبا كبيرا فى الإدارة المالية . وقد بلغ يزيد بن هذا منصب واستربو شانسالار فكان عليه تسلم العصور واصطحاب العسكر فى الحروب لمراعاة مصالح الخزانة فى الغنائم وتحصيل الخراج ، وكان يصدر للخزانة ألف قطعة ذهبية كل يوم . وكان يدافع بحماس لا يقل حرارة عن قضية النصارى ، وشيد فى جميع البلاد الكنائس والأديرة على صورة بيت المقدس السهاوى . وكان محبوبا من كسرى كما أحب فرعون يوسف بل أكثر منه . وحينما غزا الفرس بيت المقدس أرسل يزيد بن إلى المدائن غنائم عظيمة ، وكان من أنفس الآثار عند النصارى جزء من الصليب المقدس وقد أودعه الملك مع عظيم الاحترام فى بيت المال الحديد الذى أنشأ له بناء فى العاصمة .

وصلب يزيد بن يهود القدس الذين انتهزوا الفرصة للانتقام من النصارى فأشعلوا النار فى الكنائس وصادر أملاكهم وأقام بعض ما تهدم من الكنائس . ولكن العطف الذى تمتع به الواستربو شانسالار لم يدم . فقد راح كسرى يتحين الفرص لقتله .

وكان بين كسرى وقائده شهربراز عداء خفى . وقد أرسل كسرى إلى شهربراز أثناء محاربته الروم ثلاثة كتب ظهر منها نية القتل فامتنع عن الحضور إليه وانضم الملك الروم وحارب معه .

وعادت أنظار العالم تتجه مرة أخرى إلى الحرب الطاحنة التى تدور بين أعظم إمبراطوريتين فى الأرض . كانت إمبراطورية الفرس قد طعنت نفسها بخنجر ظلم كسرى لشعبه قبل أن تطعنها الإمبراطورية الرومانية الطعنة القاتلة . كانت قد انتحرت من

الداخل قبل أن ينتفض هرقل ليطرد الغزاة من الأراضي التي دنسوها بأقدامهم . إنه نفخ في شعبه روحا دينية واستثار فيهم ماضيهم المجيد فراحت الفياق الرومانية تتقدم وهي تحمل النسر الروماني نحو الشرق لتستخلص من أيدي الفرس الصليب المقدس .

واستعاد هرقل آسيا الصغرى وتقدم طاردا جيوش كسرى في أرمينية وأذربيجان ، وراح شهربراز القائد الفارسي الذي كان يخشى غدر كسرى يرسم لهرقل الطريق إلى النهروان . فدعا كسرى رجلا من النصاري كان جد كسرى قد أنعم على جده واستنقذه من القتل أيام مزدك وكان معه أصحابه الذين استجابوا له ، وأرسل كسرى ذلك النصراني إلى شهربراز بعضا مجوفة فيها رسالة كلف بها شهربراز باحراق دار ملك الروم وقتل المقاومة وسبي الذرية ونهب الأموال .

ومضى النصراني فلما عبر النهروان سمع أجراس الكنائس تدق فعز عليه أن يعين ملك الفرس على ملك الروم المسيحي ، فأتى بابه وأخبره بقصته ثم دفع إليه العصا ، فغضب هرقل وحسب أن شهربراز قد خدعه فنأدى الناس بالرحيل وخرج لا يلوى على شيء .

وكان المسلمون في المدينة يتبعون أخبار الحرب الضروس التي اشتعل أوارها بين الفرس والروم وكان الفرح عملاً جوارحهم كلما جاءتهم أنباء انتصارات هرقل . وكان أبو بكر الصديق أكثرهم فرحا فانه راهن أمية بن خلف يوم أنزلت : « ألم . غلبت الروم .

فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين (١) » :
على أن نصر الروم سيتم فى مدى ست سنين ، وها هو ذا وعد الله
أوشك أن يتم فالنصر الرومانى يطوى الأرض فى طريقه إلى النهروان :
وجاءت الأنباء أن هرقل لم يعبر النهر بل نادى الناس بالرحيل ،
فحزن المسلمون لذلك الانسحاب المفاجئ . إلا أن إيمان أبى بكر
بنصر الروم القريب لم يتزعزع فقد كان على ثقة بربه وبما ينزل من
السماء . إن الله تعالى قد قال إن الروم سيغلبون فى بضع سنين فإن
كان هرقل قد رأى أن ينادى بالرحيل فلعل ذلك لحكمة ، وسيعيله
الكرة وسيقتصر على الكافرين .

كانت الدنيا بأسرها تتجه بأنظارها إلى الإمبراطوريتين
العظيمتين المسيطرتين على مصائر العالم . وما لفت نظر أحد فى
ذلك الحين ذلك التطور الهائل الذى طرأ على المجتمع المدفون .
ولو تنبأ متنبئ بأن الفئة المؤمنة القليلة الملتفة حول رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — ستقوض الإمبراطوريتين العظيمتين قبل
عشرين سنة من ذلك الوقت لكان هدفا طيبا لسخرية الساخرين
وهزاء المستهزئين .

لم يكن على وجه الأرض من يدور بخلده مثل تلك الأحلام ،
فقد كانت غاية آمال المسلمين أن يهزم هرقل الفرس ويتحقق وعد
الله إلا رجلا واحدا كان على ثقة من أن أتباعه الفقراء الذين لا
يمجدون قوت يومهم سيحكمون ممالك الدولتين العظيمتين ، إنه
محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . فقد أوحى الله إليه « لا إكراه في الدين (١) » . « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر (٢) » . وكان أنصاره يحاورون جيرانهم اليهود محاولين أن يقنعوهم بالتي هي أحسن بالدخول في دين الله طائعين . وقد ذهب معاذ بن جبل وبشر بن البراء إلى جيرانهم اليهود وقالوا :

— يا معشر يهود . اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ونحن أهل شرك وكفر ، وتخبرونا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال سلام بن مشكم من عظماء يهود بني النضير :
— ما جاءنا بشيء نعرفه . ما هو الذي كننا نذكره لكم .
فأنزل الله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (٣) » .
وانطلق رسول الله عليه السلام ومعه عمر بن الخطاب إلى

(٢) الفاشية ٢١ - ٢٢

(١) البقرة ٢٥٦

(٣) البقرة ٩٨

مالك بن الصيف وكان رئيسا على اليهود ، وكان سمينا ، فغدا
رسول الله عليه السلام يحاوره ومالك يرد في عجرفة واستعلاء
وغلظة . فقال له عليه السلام :

— أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله
يبغض الحبر السمين ، قد سمعت من مالك الذى تطعمك اليهود .
فضحك القوم ، فغضب مالك والتفت إلى عمر فقال في ثورة
انفعاله :

— ما أنزل الله على بشر من شيء .

فأنزل الله تعالى : « وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل
الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى
نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم
ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون (١) » .
وسمع اليهود ما أنزل الله فملئوا غضبا . فلولا ما قال مالك
ابن الصيف ما ألزمهم القرآن الحججة ولما كانت هناك فرصة للطعن
عليهم واتهامهم بالعبث في التوراة . فانطلقوا إلى مالك والغيط
ياكل أغنلتهم فقالوا له :

— ما هذا الذى بلغنا عنك ؟

فقال مالك بن الصيف ليبرر سقطته :

— إنه أغضبني .

أينكر نزول التوراة على موسى لأنه أغضبه ؟ ! أينكر
الوحى الذى قامت عليه اليهودية لأنه سخر منه ؟ ! إنه جعلهم

سخرية جبرائيل الذين كانوا ينظرون إليهم في إجلال لأنهم أهل الكتاب الأول . فإذا بقي لهم من شرف يتيهون به على العالمين إذا ما أقروا ذلك الخبر السمين الذي قال في لحظة غضب : « ما أنزل الله على بشر من شيء » على زعمه ؟

إنه قول رئيس طاش ليه في لحظة غضب فقيوض كل تراشهم ، فحق عليه أن ينزع من الرئاسة ليمسحوا ما لطخهم به من عار ، فنزعوه من الرياسة وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف .

وراح اليهود يسألونه — صلى الله عليه وسلم — عن أشياء ليلبسوا الحق بالباطل . وما كانوا يسألون عن حوهر الدين فالدين كان قد فسد على أيدي الفريسيين والصدوقيين الذين جعلوا من سماحة الأديان نواحي قاسية تافهة ما أنزل الله بها من سلطان .

وكانوا يهابونه ويرتجفون فرقا مما ينزل عليه . وكان بعضهم يفضل ألا يسأله لئلا يسمعه ما يكره أو يجيبه بما يزعزع ثقته في دينه أو يؤكد له أنه النبي الأُمِّي الذي كانوا يستفتحون به على غطفان والأوس والخزرج فينصرون .

وكان فريق منهم يهون الجدل فكانوا يذهبون إليه يسألونه في كل ما يخطر لهم على بال . كانوا يسألونه : متى الساعة إن كنت نبيا ؟ فأُنزل الله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلى بغة يسألونك كأنك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .

وجاء يهوديان إليه عليه السلام فسألاه عن قوله تعالى :
ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فقال — صلى الله عليه وسلم — لهما :
— لا تشركوا بالله شيئا . ولا تزنوا . ولا تقتلوا النفس التي
حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا .

واستمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يتلو عليهما وصايا
موسى عليه السلام واليهوديان يصغيان إليه في دهش وهما يعجبان
من أين له هذا العلم . حتى إذا ما انتهى من حديثه قالوا في انفعال :
— نشهد أنك نبي .

— ما بمنعكما أن تسلما ؟

— نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود .

وجاء يهود إليه يجادلونه ويسألونه عن خلق السموات والأرض .
فقال لهم إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على
العرش . فقالوا له :

— قد أصبت . لو أتممت : ثم استراح .

فأنزل الله تعالى : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما
في ستة أيام وما مسنا من لغوب (١) » . فلما سمع يهود هذه الآيات
تقاصرت أنفسهم وأحسوا أن ذلك النبي يخالفهم في كثير من الأمر
وإن مخالفته إياهم تريح الأبواب . ولولا تعصبهم الأعمى وغرورهم
الذي أسدل الحجب على بصائرهم لآمنوا به ، فمن ذا الذي يطمئن
قلبه إلى إله ينال منه التعب بعد خلق السموات والأرض فيستريح ؟
إن محمدا عليه السلام قد نفي عن الله فكرة التعب سبحانه وتعالى عما

يصفون ، وإنه الحق لولا ما تحقق الصدور .

وكان أحبار اليهود أكثر الناس عداوة للمؤمنين . ولكن بعضهم قد شرح الله صدورهم للإسلام فنطقوا شهادة الحق دون أن يخشوا بطش يهود ، فقد قدم إلى المدينة حبران من أراضى الشام لم يعلما بمبعثه — صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهما للآخر : — ما أشبه هذه بمدينة النبي الخارج في آخر الزمان .

وما استقر بهما المقام حتى أخبرا بمهاجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — ووجوده في تلك المدينة ، فذهبا إليه فلما رأياه قالاه : أنت محمد ؟

— نعم .

— نسألك مسألة إن أخبرتنا بها آمنا بك .

— أسألائي .

— أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله .

فأنزل الله عليه :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بايات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

أتى الحبران إليه سمعهما فاذا بما يتلو عليهما ينفذ إلى سويدهما

قلبيهما فيستشعران بأنوار تشيع في جوانبهما وبطمأنينة عجيبة
تنزل بأفئدتهم وبرحمة من الله تغمرهما . فإم يستطيعا أن يكتما
إيمانهما فأعلنا أسلامتهما وشهدا بأنه النبي الأُمي الذي يعرفونه
كما يعرفون أبناءهم . الذي يجلدونه مكتوبا عندهم وبشرت به
الأنبياء .

وجاءه عليه السلام الذين أولعوا بالجلد من اليهود فقالوا له :
— كيف تقول إنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل
وتشرب ألبانها وكان ذلك محرما على نوح وإبراهيم حتى انتهى
إلينا في التوراة . فنحن أولى الناس بإبراهيم منك ومن غيرك .
فقال لهم عليه السلام : إن إسرائيل (يعقوب) هو الذي حرم
على نفسه بعض الطعام قبل أن تنزل التوراة . فسألوه عليه
السلام :

— أي طعام حرم إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة ؟
— أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون
أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لله
لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرم من أحب الشراب إليه وأحب
الطعام إليه . فكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب
إليه ألبانها ؟

— اللهم نعم .
كان بيعقوب عرق النسا وكان إذا طعم ذلك حاج به . فنذر
لله ليحرم من أحب الطعام إليه وأحب الشراب وما كان ذلك تشرعا
من الله . وما حرم الله ذلك على أنبيائه كما زعموا من قبل أن تنزل

التوراة ، وقد أنزل الله في ذلك : « كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون . قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١) » .

وأنزل الله تعالى ردا على زعمهم بأنهم أولى الناس بابراهيم : « يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين . » (٢) .

وفغر يهود أفواههم دهشة . لكأنما كان ذلك شيئا جديدا لم يسمعوا به من قبل وإن كان حقيقة واقعة . فابراهيم قد كان قبل أن يكون موسى عليه السلام والسيد المسيح وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، فكيف يمكن أن يكون يهوديا أو نصرانيا وما كانت اليهودية أو النصرانية قد جاءتا إلى الوجود ؟ !

إنهم قالوا إنهم أولى الناس بابراهيم وهو يقول إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا حق وذاته الكريمة ، وهذا من الممكن أن يجادلوه فيه ولكن فيم يمترون ؟ إن كانوا من نسل إسحاق فيهو من نسل إسماعيل وإن قالوا إنهم أبناء السيدة وهو من نسل الحارثية

فهل الأديان الحقة تفرق بين البشر ؟ كلكم لآدم وآدم من تراب .
فمن شاء أن يفتخر فليفتخر بالتراب !
كانوا يحاجونه وكان القرآن ينزل بما يفهمهم ويثير دهشتهم ،
ولو أنصفوا أنفسهم ما جادلوه ولكن غرورهم كان يدفعهم إلى
إثارة الحوار بينهم . وبينه فما تنزل الآيات بالحق من ربه حتى
يطرقوا مدحورين .

وجاء يهود إليه وقالوا :

— يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة زنيا بعد إحصان ؟

فقال لهم — صلى الله عليه وسلم :

— ما تجلبون في التوراة ؟

— دعنا من التوراة فقل لنا ما عندك .

فأفتاهم بالرجم فأنكروه . فلم يكلمهم رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — حتى أتى بيت مدارسهم « الكنيس » فقام على الباب
فقال :

— يا معشر يهود ، أخرجوا إلى أعلمكم .

فأخرجوا إليه عبد الله بن سوريا وأبا ياسر بن أحطب ووهب

ابن يهود فقالوا :

— هؤلاء علمائنا .

فقال عليه السلام :

— أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجلبون في

التوراة على من زنى بعد إحصان ؟

— يعير ويجنب .

وسكت شاب أمرد أبيض أعور ، إنه ابن صوريا . فالتفت إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له :
- أنشدك الله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى .
وفلق البحر ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ، والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن ؟
- نعم .

فوثب عليه سفلة اليهود فقال :
- خفت إن كذبت أنه ينزل علينا العذاب .
وراح اليهود يحاولون الوقيعة بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يقولون للأنصار :
- لا تنفقوا أموالكم على هؤلاء فانا نخشى عليكم الفقر .
فأنزل الله تعالى : « الذين يبخلون ويأمررون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (١) .
وكان اليهود إذا كلموا النبي - صلى الله عليه وسلم - قالوا :
- راعنا سمعك واسمع غير مسمع .
ويضحكون فيما بينهم ، فلما سمع المسلمون منهم ذلك ظنوا أن ذلك شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم ، فصاروا يقولون ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - ففطن سعد بن معاذ لما رأى اليهود يقولون ذلك وهم يضحكون أن القول بلسان اليهود سب قبيح للنبي عليه السلام ، فغضب غضبا شديدا فقال لليهود :

— يا أعداء الله عليكم لعنة الله . والذي نفسى بيده إن سمعتموها
من رجل منكم يقولها لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأضربن
عنقه بالسيف .

— ألسم تقولونها ؟ !

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا
انظرونا واسمعوا للكافرين عذاب أليم (١) .

وما كانوا يكفون عن الهزء والسخرية والجدل وإن نزلت
فيهم آيات بينات تلزمهم الحجة وتنال من كبريائهم وتطعن غرورهم
وتكشف جهل ورثة الكتاب الأول والعلم الأول : فقد طال عليهم
الأمم فقتست قلوبهم .

وجاء — صلى الله عليه وسلم — جماعة من اليهود بأطفالهم فقالوا له :
— يا محمد هل على أولادنا هؤلاء من ذنب ؟
— لا .

— والذي تحلف به ما نحن إلا كهيتهم : ما من ذنب نعمله
بالليل إلا كُفِر عنا بالنهار وما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنا
بالليل .

فأنزل الله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله
يزكي من يشاء ولا يُظلمون فتيلا . انظر كيف يفترون على الله
الكذب . وكفى به إثما مبينا » (٢) .

ورأى أحبار اليهود أن محاجتهم لمحمد عليه السلام لا تعود
عليهم إلا بالخسائر المبینة . فعمدوا العزم على أن يبذلوا كل

جهودهم ليثنوه عن الطريق القويم . فاجتمع ابن سوريا وشاس بن قيس وكعب بن أسيد وقالوا :

— نبعث إلى محمد لعلنا نفتنه في دينه .

فجاءوا إليه — صلى الله عليه وسلم — فقالوا :

— يا محمد قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرانهم ، وإن اتبعناك اتبعك كل اليهود وبيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم فنؤمن بك .

كانوا يحدثونه لكأنما كان سياسيا من محترفي السياسة الذين يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة ، فعرضوا عليه عرضا يسيل لعاب أى رجل من رجال الدنيا . فما طلبوا منه أكثر من أن يصدر حكما لمصلحتهم ثم يؤمن اليهود جميعا به . إنه عرض يدير رأس أى طامع فى الرئاسة أو الزعامة ، ولكنه كان رسول رب العالمين قد بعثه ليعلم الناس مكارم الأخلاق ، لا يحيد عن الحق وإن وقف وحده فى وجه الدنيا بأسرها ، فلم يأبه لعرضهم الدليل ولم يقبل أن يخالف ضميره ليكسب تأييد اليهود وتصدقهم ، وماذا يهمه من اليهود ما دام الله معه يؤيده ويبارك خطاه ويشرح صدور الصالحين بأنوار اليقين ؟ فأبى ذلك عليهم فنزل قول الله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يغنون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١) .

كان الحوار مشبوب الأوار بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبين أبحار اليهود ، وكان أشراف الأوس والخزرج الذين لم يشرح الله صدورهم للإيمان يكتمون البغضاء في قلوبهم للرسول عليه السلام وكانت تبدو أحيانا في أفواههم . وذات يوم ركب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى سعد بن عبادة يعود من شكوى أصابته على حمار عليه إكاف فوقه قطيفة فدية مخططة بحبل من ليف ، وأردف — صلى الله عليه وسلم — أسامة بن زيد خلفه ، فمر بعبد الله بن أبي بن سلول وهو في ظل حصنه وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — استنكف من أن يجاوزه حتى ينزل فنزل فسلم ثم جلس فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر ، وعبد الله ابن أبي رافع رأسه لا يقبل عليه كبرا قد أطبق شفثيه لا ينبس بكلمة ، حتى إذا فرغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مقالته قال ابن أبي :

— يا هذا إنه لأحسن من حديثك هذا إن كان حقا ، فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ومن لم يأتك فلا تغشه به ولا تأتبه في مجلسه بما يكره منه .

فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين :

— بل فاغشنا به وأتنا في محالسننا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله ما نحبه وما أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

مَنْ لَمْ يَكُنْ مَوْلَاكَ تَخْصُمُكَ لَمْ تَزَلْ
تَذَلُّ وَيَصْرَعُكَ الَّذِينَ تَصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي (۱) بِغَيْرِ جَنَاحِهِ
وَلَا يَنْ جُزْ يَوْمًا رِيْشَهُ فَهُوَ وَاقِعٌ
فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَدَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ
عَبَادَةَ وَفِي وَجْهِهِ مَا قَالَ عَدُوُّ اللَّهِ . فَقَالَ سَعْدُ :
- وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئًا ، لَكَأَنَّكَ
سَمِعْتَ شَيْئًا تَكْرَهُهُ .
- أَجَلٌ .
ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ ابْنُ أَبِي فَقَالَ :
- يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَفَقَ بِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَنَا اللَّهُ بِكَ وَإِنَّا لَنُنْظِمُ لَهُ
الْحُرُزَ لِنَتَوَجَّهُ ، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّكَ قَدْ سَلَبْتَهُ مَلَكًا .

(۱) الْبَازِي : طَيْرٌ مِنَ الْجَوَارِحِ .

كان للبغايا أشهر سقيفة في يثرب . فكان شباب القبائل العربية يخرجون في قوافل قومهم المنطلقة إلى المدينة وقد شغلت رءوسهم بفتيات سادات الأوس والخزرج واليهود صاحبات الرايات الحمر ، فقد كن من الفرس والروم والشام والحبشة والعرب . وكان لعبدالله ابن أبي بن سلول إماء من كل جنس يكرههن على الزنا لياخذ أجورهن فأنزل الله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » (١) . فزاد ذلك في عداوة ابن أبي بن سلول لرسول الله عليه السلام . فان كان محمد صلوات الله وسلامه عليه قد حرمه من الملك لما جاء إلى المدينة فانه يحرض الإماء على ألا يستعجن لكرغبات ساداتهن إذا ما أكرهوهن على البغاء . ولو سمعن قوله وتمردن على العمل لنضب أهم موارد ثراء أعظم أشراف أهل المدينة .

ورأى عبد الله بن أبي بن سلول أن قومه قد دخلوا في الإسلام ، فان بقي على دينه فانه يعزل نفسه عن الأحداث الحارية في المدينة ويفقد شرفه فيهم . أما إن دخل فيما دخلوا فيه فهو يحافظ بذلك على مكانته ويكون قريبا من الأحداث مما ييسر له الكيد للإسلام والمسلمين وانتهاز أية بادرة ضعف ليثب عليه ويستعيد حلمه القديم

ألا وهو وضع التاج على رأسه ليصبح صاحب الكلمة العليا في المدينة .

وأسلم عبد الله بن أبي بن سلول ليكون رأس المنافقين .
أما أبو عامر بن عمرو بن صيفي الراهب فأُتي إلا الكفر بعد أن لبس المسوح وطاف بالأرض يتنسم أخبار النبي الأُمي الذي أظلم زمانه ، فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة جاءه فقال له :-

— ما هذا الدين الذي جئت به ؟

— جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

— فأنا عليها .

— إنك لست عليها .

— بلى . إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها .

— ما فعلت . ولكني جئت بها ييضاء نقية .

— الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا .

— أجل ، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به .

وانصرف الراهب وقد وطن النفس على تكذيبه .

السلام ومناصبته العدا . فقال عليه السلام :

— لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق .

وانضاف إلى يهود رجال من الأوس والخزرج أظهروا

الإسلام رياء . فكانوا يجلسون إلى رسول الله — صلى الله عليه

وسلم — ثم ينقلون حديثه للمنافقين ساخرين مستهزئين . وكان

منهم نبتل بن الحرث فانه جلس إليه عليه السلام ثم ذهب إلى

حيث كان المنافقون وقال لهم وقد لوى شفته السفلى استخفافا :
— إنما محمد أذن ، من حدثه بشيء صدقه .

فأنزل الله تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو
أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين
آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » (١) .
كان نبتل رجلا جسيما مسترخي الشفتين ثائر شعر الرأس أحمر
العينين ، كبده أغلظ من كبده الحمار ، وكان ذا وجهين يجلس إلى
الرسول عليه السلام بوجهه ويقبل على المنافقين بوجه آخر ، فكان
إذا ما جلس إليهم هون من شأن رسول الله صلوات الله وسلامه
عليه . وقد كشف أمره القرآن وقال رسول الله فيه :

— من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث .
وقامت خصومة بين بعض رجال ممن يمدعون بالإسلام وبين
رجال من المسلمين ، فرأى المسلمون أن يمشوا بنخصومتهم إلى
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأبى المنافقون ودعوهم إلى
الكهان حكام أهل الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل فيهم : « ألم تر
إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك
يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد
الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله
وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا
أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا
إلا إحسانا وتوفيقا . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض

عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (١) .

وأسلم من أجبار يهود نفاقاً رجال آمنوا بأن الإسلام أمتن من أنه يهاجموه صراحة فدخلوا فيه ليكيدوا له ويكونوا كالسوس ينخرون في قواعد في غفلة من أهله لعله ينهار يوماً فيحققون ما عجز عنه أعداؤه السافرون .

كانوا يحاولون أن يشككوا في القرآن معتمدين على أنهم أهل الكتاب الأول والعلم الأول مستغلين التوراة التي كتبت في ررض السبي ليفتنوا المسلمين عن دينهم . فلما ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سليمان بن داود في المرسلين قال بعض أجبارهم :
— ألا تعجبون من محمد . يزعم أن سليمان بن داود كان نبياً ، والله ما كان إلا ساحراً .

وكانوا معذورين في زعمهم فالتوراة التي بين أيديهم ما كانت ترى في سليمان أكثر من ملك بنى الهيكل ثم مات كافراً . إنهم زوجه ألف جارية وصوروه ملكاً غارقاً في الشهوات كسلوك الفرس الذين أذلهم في المنفى . فلما ذكره القرآن في المرسلين وكرمه وأكد أن الله سخر له الريح ومنحه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده سخروا من ذلك القول . وما وجدوا فيما فعله سليمان عليه السلام

إلا السحر المبين !

كانوا يحلمون وهم في المنفى في بابل بالملك أكثر من النبوة والرسالة . فقد أتى بختنصر على ملكهم بينا النبوة كانت لا تزال فيهم . فأكثرُوا من الحديث عن داود الملك وسليمان الملك في توراتهم التي كتبوها بأيديهم ليعبروا عن آمالهم وأمانيتهم وليبشوا في الشعب الدليل روح الأمل بعودة سلطانهم . فلما جاء محمد عليه السلام بالحق كان ذلك الحق غريبا عليهم ، فراحوا يقصون على المسلمين أقاصيص التوراة ليفسدوا الدين القيم وليقفوا في وجه انتشاره الذي أذهلهم وأقص مضاجعهم :

وقالوا له :

— أخبرنا عن الروح .

قال عليه السلام :

— أنشدكم بالله وبأيامه عند نبي إسرائيل هل تعلمونه جبريل ، وهو الذي يأتيني ؟

— نعم . ولكنه يا محمد لنا عدو وهو مَلَك إنما يأتي بالشدة وبسفلك الدماء . ولولا ذلك لاتبعناك .

فأنزل الله عز وجل : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بأذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين . ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون . أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين

أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون « (١) » .

وراجت الأيام تمر والحوار دائر بين محمد عليه السلام واليهود والكافرين والمنافقين ، والقرآن ينزل من السماء ليلزم الجميع الحجة ويبين لهم ما فيه يختلفون . وأهل الكتاب في دهشة من أمر ذلك الأسمى الذي لم يقرأ في كتب الأولين ويعجبون من أين له هذا العلم الغزير ، ولولا أن طمس الله على قلوبهم لانقادوا له طائعين سامعين مجبيين . ومرو أبو ياسر بن أخطب برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يتلوا فاتحة البقرة : « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٢) فوقف وقد شغل ذهنه بما سمع . فأتى أخاه حي بن أخطب في رجال من يهود فقال :

— تعلموا والله ، لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه :

« ألم . ذلك الكتاب » .

فقالوا في عجبه :

— أنت سمعته ؟

— نعم .

فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله —
صلى الله عليه وسلم . فقالوا له :

— يا محمد ، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك : « ألم .
ذلك الكتاب » ؟

— بلى .

— أجهلك بها جبريل من عند الله ؟

— نعم .

— قد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بسّين لنبي منهم ما مدة ملكه
وما أكل أمته (طول مدتهم) غيرك .

والنت حيي بن أخطب إلى من معه فقال لهم :

— الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون ، فهذه إحدى
وسبعون سنة ؛ أفندخلون في دين إنما مدة ملكه وأكل أمته إحدى
وسبعون سنة ؟

ثم أقبل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— يا محمد ، هل مع هذا غيره ؟

— نعم .

— ماذا ؟

— المص (١) .

— هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون

والميم أربعون والصاد تسعون ، فهذه إحدى وستون ومائة سنة ،
هل مع هذا يا محمد غيره ؟
— نعم « الر » (١) .

— هذه والله أثقل وأطول . الألف واحدة واللام ثلاثون
والراء مائتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومئتان ، هل مع هذا غيره
يا محمد ؟

— نعم « المر » (٢) .
— هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون
والميم أربعون والراء مئتان . فهذه إحدى وسبعون ومئتا سنة .
وصمت قليلا ثم قال :

— لقد لُبِسَ علينا أمرُك يا محمد ، حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت
أم أكثرًا ؟

ثم قاموا عنه ، فقال أبو أيسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن
معه من الأخبار :

— ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد ، إحدى وسبعون
وإحدى وستون ومئة وإحدى وثلاثون ومئتان وإحدى وسبعون
ومئتان ، فذلك سبعائة وأربع وثلاثون سنة .
— لقد تشابه علينا أمره .

وكانت صفية بنت حيي بن أخطب تصفى إلى حديث أبيها
وعمها أني ياسر فإذا به يدور حول محمد عليه السلام على الدوام .

(٢) يونس ١

(٣) الرعد ١

وإذا به يقطر حقدًا و ضغينة على الرجل الذي جاء يدعو إلى المحبة والسلام . إنها تحمس عطفنا على رسالته بل حماسة إلى دعوته . وإن همسا غريبا يهجم في أغوار أغوارها أن سيكون لها شأن في حياة النبي عليه السلام . ولو رفعت عن بصيرتها حجب الغيب لرأت نفسها زوجة للرسول صلوات الله وسلامه عليه وتلحق قلبها سرورا وتهللت بالفرح بأن من الله عليها بأن تصبح أم المؤمنين .

وإني الموسم فخرجت قبائل العرب إلى سوق مجانية ليبتاعوا
ويبيعوا ويذبحوا الذبائح ويتقربوا إلى آلهتهم لتبارك لهم في تجارتهم .
وراح أهل مكة يتأهبون لاستقبال الحجيج ، فغدا العباس بن
عبد المطلب يضع الأحواض في كل مكان ويملؤها بالماء فهو
صاحب السقاية . وجعل عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام
وحكيم بن حزام وسادات قريش يعدون الطعام لفقراء الناس ،
وخرجت القوافل من مخازن التجار لتنساب إلى أسواق مجانية
وعكاظ وذى عجل .

وتأهب أبو سفيان ليسير بقريش إلى حيث يخرج الناس فهو
سيدهم وقاضيهم وصاحب الكلمة فيهم بعد أن طوى الزمن سادات
بنى هاشم . إنه تاجر يحب الغنم دائما وأن يكسب من صلاته بالناس ،
لا يعنيه الدين بل كان ما يهجه من أمره الحياء والسلطان ، وقد ساءه
أن يفلت محمد عليه السلام منهم يوم أن هاجر إلى المدينة واشتد
غيبظه لا لأنه كان يخشى ألا تعبد اللات والعزى في الأرض إذا
ما ظهر دين محمد بن عبد الله ، بل لأنه كان يعلم علم اليقين خطورة
محمد عليه السلام على تجارة قريش إذا ما دانت له يثرب .

وراح أبو العاص بن الربيع يتأهب للخروج بتجارته مع قومه
وزينب بنت محمد عليه السلام تعد لزوجها ما يصلحه وقد لاح الأسى

في الهجرة

في وجهها . إنها شهدت شهادة الحق منذ أول يوم عاد فيه أبو القاسم إلى داره من غار حراء بعد أن هبط عليه الوحي . وكانت ترجو أن يؤمن أبو العاص بالدين القيم فهو كريم الخلق اشتهر بين قومه بالأمين كما اشتهر بذلك أبوها من قبل . ولكن أبا العاص ظل على دين قومه ولم يحاول أن يردّها عن الإسلام .

كان أبو العاص نعم الزوج وكانت زينب تبذل كل جهد لإرضاء ابن الخالة : ولكن كثيرا ما كان اختلاف العقائد يقوم حائلا بين أن ترفرف السعادة الكاملة بمناحيها على الدار : فخالتها هالة بنت خويلد وكل أهل البيت كانوا على وثنيتهن بينما كانت هي تعبد الله وحده وتسبحه بكرة وأصيلا .

وتحسست بيدها القلادة التي قدمتها الطاهرة إليها هدية يوم زفافها فاذا الذموع ترقرق كاللآلئ في مقلتيها ، فطيف أمها لا يغيب عن خيالها أبدا . فان كانت خديجة أم المؤمنين قد أصبحت في الغابرین فان صوت خالتها هالة كان يبعث القشعريرة في بدنها كلما مس أذنيها ثم يوقظ ذكريات سيدة نساء قريش من مرقدّها ، فقد كان صوت حاضنة الإسلام وصوت أختها من معدن واحد ، له نفس الجرس والنبرة وتأثيره العميق في نفوس سامعيه .

أحسّت يوم أن ماتت أمها أن نبيع الحنان قد غاص فعذبتهما لوعة الأسى . ولكن أباهما العظيم غمرها بحبه الكبير فمسح على نفسها بالرحمة وأذهب عن فؤادها الشجن ، وكانت زيارتها لبيت أبيها عليه السلام تجعلها تستشعر أنها ليست وحيدة في دنياها ، فوجودها بين أخيها هند ابن أبي هالة وأختها أم كلثوم وفاطمة

الزهراء وابن عمها على بن أبي طالب وريبب أبيها زيد بن محمد
وزوجه أم أيمن ونساء المسلمين كان يقوى روحها ويشد أزرها .
كانت في بيت زوجها قلقة على الرغم من حبه وعطفه ورعايته ،
فهي مؤمنة يحيط بها الكافرون . بينا كانت في بيت أبيها مطمئنة
راضية مستبشرة . فهي في منبع النور ترشف مع الآخرين في سعادة
روحية رحيق الإيمان المختوم .

وكانت تتلوي من الألم كلما سمعت باضطهاد قومها لأبيها
الكريم ، وسرعان ما يذوب العذاب إذا ما أشرق عليها نبي الله
عليه السلام بابتسامته العذبة وغمرها بعطفه السابغ ، فتسمو فوق
الآلام وتنزع ذاتها إلى أفراح الروح وتستشعر خصب الوجود .
كانت سعادتها مستمدة من القرب منه والنظر إليه وإلقاء سمعها
إلى الحكمة التي تتدفق من بين شفثيه ، فيتألق نور العقل وتربو
طمأنينة النفس وتتحلر الذات من كل القيود لتهم مستبشرة في
عالم الملكوت . فلما بلغها أن أباه قد هاجر إلى يثرب فرارا بدينه
أحست كأن قلبها ينصهر ونزل بها حزن ثقیل وهرعت إلى داره
شاردة اللب قلقة منزعة مضطربة . لا تملك من أمرها إلا أن
تذرف الدموع .

إنها ضمت أختيها أم كلثوم وفاطمة إلى صدرها وهي تجاهد
آلام نفسها ، فإذا يخيل إليها أنها ترى من خلال دموعها خديجة
أم المؤمنين مقبلة من مخدعها ، فانتفضت انتفاضة سرت إلى
العزیزتين الغاليتين اللتين احتوتهما في حضنها فارتفع نحيبهما .
فاقبلت أم أيمن وفي أثرها ابنها أسامة بن زيد قراحت تسمح عنهن

الأحزان وتقول إن لقاء الأجنة قريب .

وجاء زيد بن حارثة وحمل ابنتي رسول الله عليه السلام أم كلثوم وفاطمة وحمل زوجه أم أيمن وولده أسامة حب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخرج بهم . وخرج معه عبد الله ابن أبي بكر وقد حمل أسماء وعائشة بنت أبي بكر وأمها أم رومان وأهل بيت الصديق . فأحست زينب وحشة قاسية في مكة فهي لا تستطيع أن تلحق بالمسلمين ، فهي في كنف رجل كريم وإن ظل على دين آبائه .

وباتت غريبة في مكة فلم يعد معها من المسلمين إلا المستضعفين الذين عجزوا عن الهجرة أو الذين حبسوا لثلايهاجروا إلى الرسول . وكان عزائوها الوحيد إقبال العباس عليها بأبناء النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كانت تلك الأنباء تخفف لوعة الفراق وتدسس في النفس الأمل . وإن كانت إذا ما خلت بنفسها تعجب من أين تأتي العباس بن عبد المطلب بأخبار ابن أخيه ؟

وكانت إذا ما هزها الحنين إلى أبيها وأخواتها تخرج من دار زوجها أبي العاص بن الربيع وتنطلق إلى دار خديجة لتمد الطرف إلى البيت الذي شهدت فيه أسعد الأيام وحملت له أعذب الذكريات فتستشعر كأنما تلثم بعينها في حنان وانفعال رمز الأمان والآمال وكثر الوجود . ففي تلك الدار تفتحت عيناها على النور مرتين ، يوم أن ولدت ويوم أن ولدت من جديد لما جاء أبوها العظيم من الغار يحمل رسالة السماء .

وكانت إذا ما أرقها الشوق واستبد بها الحنين تسعى إلى قبر

«الطاهرة أم المؤمنين تبث روحها ما عمور في صدرها من إحساسات .
وتغسل أحزان نفسها بالدموع ، ثم تنقلب إلى أهل أبي العاص
ابن الربيع تعيش بينهم على أمل أن يهدي الله زوجها ويشرح
صدره للاسلام فيهاجران إلى أبيها الكريم ويتحقق الحلم الكبير .
وخرجت قوافل مكة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب وقد
حمل زوجته هند بنت عتبة في هودج . وخرج أبو العاص بن
الربيع مع الخارجين وهو يقود جملا عليه هودج فيه زينب بنت
محمد عليه السلام . وغدت زينب تتلفت فاذا بجميع سادات قريش
في القافلة : أبي الحكم بن هشام وعتبة بن أبي ربيعة وأخيه شيبة
وأمية بن خلف وأخيه أبي وحكيم بن خزام والوليد بن المغيرة وخالد
ابن الوليد والعاص بن وائل وعمر بن العاص وأبي لهب بن عبد
المطلب والأسود بن عبد يغوث والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج
والسائب بن صبيح وعقبة بن أبي معيط والحكم بن أبي العاص .
ولم يغب عن الركب إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه
ومن هاجر معه من المسلمين . فخنقت زينب العبرات وهاجت
الدمعرات فظلت في شروء حزين حتى طاف بها طائف رحيم راح
يهمس في أغوار نفسها أن ما من رجل من هؤلاء الرجال إلا وله
ابن أو قريب قد هاجر مع أبيها العظيم . فان كان محمد عليه السلام
قد غاب اليوم عن القوم فقد غاب أيضا فلذات الأكباد والأحباب ،
وإن كان قد مسها قرح فقد مس القوم قرح مثله . إلا أنها على الرغم
من أحزان قلبها مستبشرة بهجرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بينا
القوم أدلة قد كفر الأبناء بالآله والآباء وفضلوا عليهم عدوهم المبين .

وحطت قريش الرحال في سوق مجنة . السوق التي تشوق إليها بلال بن رباح في مهجره فقال :

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل ؟
كانت زينب بنت محمد عليه السلام تستشعر نفس الإحساس فقد كانت تتساءل في نفسها عما إذا كان سيأتي يوم يملأ فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه وصحبه هذه البطاح ، ويزكرون الله ويسبحون بالعشي والإبكار ؟ وراحت ترقب في أسي ما يمارس القوم من شعائر الجاهلية وتعجب في عين ذاتها لقومها الذين عميت قلوبهم في صدورهم عن الهوى والرشاد .

وكانت تستشعر غربة ووحشة وإن جلست إلى هند بنت عتبة وصويحباتها اللاتي أمضت طفولتها وشبابها معهن . وما كانت تنعم بالراحة والحرية والأنس إلا إذا كانت مع أم الفضل امرأة العباس . فقد كانت تغذى جفاف عواطفها بغيث حنانها وحلاوة إيمانها الصادق العميق . وكانت تتهلل بالفرح لما ترى أم الفضل تجاهد في غرس مبادئ الإسلام النقية في أغوار فؤاد ابنها عبد الله بن عباس .

وتصرمت أيام مجنة فتدفق الناس إلى سوق عكاظ من الوهاد والنجاد والدروب والوديان والجلال . ونزلت القبائل على مياهها ومراعيها تحب راياتها ، وتأهب سادات قريش للحكم بين الشعراء . وقد صار أبو سفيان بن الحارث ابنه عم النبي وشبيهه وتربه الذي لم يفارقه أبدا قبل الإسلام وشاعر قريش من أشهر الحكام . وكانت زينب تستشعر أسي كلما وقعت عينها عليه فكيف

غاب عن لب الشاعر الأريب الصديق أن يهتدى إلى جوهر الإسلام
وإعجاز القرآن ؟

وامتدت الأبصار إلى الشعراء وهم يتوجهون إلى القبة التي
ضربت للناطقة الذبياني ، وغدا الناس يذكرون أسماءهم . لقد
وردوا جميعا إلى عكاظ ولم يغب عنهم إلا حسان بن ثابت شاعر
الخزرج ، فقد أسلم الشاعر الذي كانت تفتح له قصور ملوك
الغساسنة ويقدم إليه أفضل الأطعمة والمشروبات وتشنف أذنيه
أشهر المغنيات ، وفضل أن يكون بالقرب من رسوله الكريم الذي
أخرجه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام . وكان المسجد المتواضع
في عينه أعظم من كل قصور الحيرة والشام ، وكان حديث نبي الله
عليه السلام في نفسه أروع من كل ما سمع من الشعراء في كل
الأسواق .

وأقبل هودج مسوم فالتجته الأنظار إليه فما جاء إلى عكاظ
من قبل هودج قد جعلت له علامة يعرف بها ويميز ، وهبطت
الخنساء منه . وعرف سبب تمييزها لهودجها فهي تعاظم العرب
بمصيبتهافي أبيها عمرو بن الشريد وأخوها صخر ومعاوية ابني عمرو .
إن الناس ليدكرون تلك الأيام التي كان عمرو بن الشريد
يمسك فيها يدي ابنه صخر ومعاوية في المواسم ويقول :

أنا أبو خيرى مضر ومن ينكر فليعتبر

ولم ينكر أحد فقد كان صخر بن عمرو شريفا في بني سليم
حليما جوادا شجاعا ، وكان أخوه معاوية من أشهر فرسان القبائل
في الجاهلية .

وكان عمر معاوية قصيرا ، ففي موسم من مواسم عكاظ لقي
جارية جميلة عند هاشم بن حرملة فدعاها إلى نفسه فامتنعت ،
فقتله هاشم بن حرملة لما خرج غازيا يريد بنى مرة وبنى فزارة في
فرسان أصحابه من سليم .

ودخل الشهر الحرام من السنة التالية لقتل معاوية فخرج
صخر بن عمرو حتى أتى بنى مرة بن عوف بن ذبيان وهو على
فرسه الشفاء فقال :

— إني أخاف أن يعرفوني ويعرفوا غرة الشفاء فيتأهبوا .
فسود غرتي ، فلما أشرفت على أدنى الحى رأوها فقالت فتاة
منهم :

— هذه والله الشفاء .

فنظروا فقالوا :

— الشفاء غراء وهذه بهم .

فلم يشعروا إلا والخيل دوائس فاقتتلوا فقتل صخر دريدا
ووقف على ابني حرملة فاذا أحدهما به طعنة في عضده وقال لها :

— أيكما قتل أخى معاوية ؟

فسكتا فلم يجبرا إليه شيئا .

فقال الصحيح للجريح وكان هاشم بن حرملة :

— ما لك لا تجيبه ؟

— وقفت له فطعنني هذه الطعنة في عضدى وشد أخى عليه
فقتله : فأينا قتلت أدركت تأثرك ، إلا أنا لم نسلب أخاك .
— فما فعلت فرسه الشفاء ؟

— ها هي تلك خذها .

— فهل كفتموه ؟

— نعم في بردين أحدهما بخمس وعشرين بكرة .

— فأروني قبره .

فأروه إياه ، فلما رأى جزع عنده ثم قال :

— كائنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعي . فوالله ما بت منذ

عقلت إلا واترا أو موتورا أو طالبا أو مطلوبا ، حتى قتل معاوية
فما ذقت طعم نوم بعده .

ولم يكنف صخر بما ظفر من نصر وقتل أخذا بثأر أخيه .
إنما مضى بالتبكيل بأعدائه فغزا بقومه وترك الحبي خلوا ، فاهتبلت
غطفان الفرصة فأغارت على سليم ، ولكنها كانت واهمة في
تقديرها فمن بقي من غلمان سليم استطاعوا أن يقتلوا من غطفان نفرا
وانهزم الباقون ، فنالت سليم نصرا مزدوجا ، نصرا بزعامة صخر
ونصرا بقهرها غطفان حينما أغارت عليهم .

ولم يقنع صخر بانتصاراته فأصر على أن ينكل بأسد حليفة
غطفان ليكون نصره عاما شاملا ويشقى غليله من هؤلاء الحلفاء
الذين وقفوا يشاركون بني غطفان القتال ، فجمع الجموع وأغار
على بني أسد بن خزيمة فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديدا ، فارتضى
أصحاب صخر عنه وطعن طعنة في جنبه وثبت في الزال ، فعاد
إليه أصحابه فأصاب غنائم وسبيا وأخذ بديلة فتزوجها ، فلما
صار إلى أهله تعالج من الطعنة فتتأ من الجرح امثل اليد ، فأضناه
ذلك حولا .

وسأل سائل امرأته :

— كيف صخر اليوم ؟

— لا ميت فينمى ولا صحيح فيرجى :

ومات صخر متأثراً بجرحه ، وجاءت الخنساء إلى الموسم
ترثى الأحبة فانطلقت إلى قبة الشعراء ، فخف الناس إليها وقد
ألقوا إليها سمعهم فراحت تنشد :

أعني جودا ولا تجمدا	ألا تبكيان لصخر الندى ؟
ألا تبكيان الجريء الجميل	ألا تبكيان الفتى السيدا ؟
طويل النجاد رفيع العما	د ساد عشيرته أمردا
إذا القوم ملوا بأيديهم	إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذى فوق أيديهم	من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ما عاظم	وإن كان أصغرهم مولدا
ترى المجد يهوى إلى بيته	يرى أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفتته	تأثر بالمجد ثم ارتدى

وكانت زينب بنت محمد عليه السلام تصفى إلى رثاء الخنساء
لأنحوبها فتحس بالألفاظ تقطر جزعا ، ولا جرم فالخنساء ترى في
موت الأحبة نهاية الحياة والعدم فهي على دين قومها . ولو أن
ديار سليم عن يسار المدينة فأهلها كانوا مشغولين عن النور الذى
بزغ فيها بالحروب الطاحنة الدائرة بينهم وبين جيرانهم ، فلو أن
بنى سليم دخلوا في الدين القيم لوجدت الخنساء فيه خير العزاء ،
ولمسح عن قلبها الحزن والشجن .

وأقبل العباس بن عبد المطلب على ابنة محمد عليه السلام وطفق

يقص عليها أنباء المهاجرين إلى المدينة وما شجر بين الرسول عليه السلام وبين يهود من حوار . وهي مقبلة عليه تصغى في اهتمام حتى إذا ما انتهى من حديثه قالت له :

— ومن أين لك كل هذه الأنباء ؟

— من حجاج المدينة .

ومر أبو سفيان بن حرب بهما فقال له :

— ما وراءك يا أبا الفضل ؟

فانطلق العباس وأبو سفيان يتحدثان وزينب ترقب عم أبيها وهي شاردة حائرة لا تدري أكان العباس على دين قومه حقاً أم اعتنق الإسلام وكنتم إسلامه لأمر أهم من إعلانه ، فكل ما يفعله العباس في مكة وفي الأسواق إنما يؤكد للعين الفاحصة أنه عين رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وأذنه على أعدائه وأعداء الدين .

كان الجدل دائرا بين الفريسيين والصدوقيين في يثرب قبل أن يهاجر إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاليهود قد أغرموا بالمناقشات الدينية أينما وجدوا وفي أى موضوع سمعوا حتى إن تفسيرات التوراة كانت أكذاسا - وقد اختلفوا في الحرام والحلال اختلافا شديدا فكانت الفرق اليهودية وكانت أماكن دراستهم عامرة بالحوار الذى لا طائل تحته . فلما جاء رسول الله عليه السلام إلى المدينة وجدوا في مناقشته فرصة طيبة للمارسة هوايتهم الحبيبة وإظهار ما عندهم من علم وكانوا يعتقدون أنه علم من عند الله ، وما خطر لهم على قلب أنه قد تأثر بأساطير الشعوب لما طال عليهم العهد فامتزج بعلم الله أوهام البشرية ومعتقدات الجاهلية .

كانوا يسألونه وكان القرآن يرد عليهم ردودا قاطعة مفحمة ، فكانوا يندحرون وهم يعجبون ثم يجمعون أنفسهم ويعاودون اللقاء السؤال في إثر السؤال لعله يخطئ يوما فيقيم اليهود عليه الحجة فينفض أنصاره من حوله ، دون أن يدخلوا معه في معركة حربية سافرة .

جاءوه يسألونه :

— بمن تؤمن من الرسل ؟

.. آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوفى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١) .
كانوا يريدون أن يعترضوا على إسماعيل ولكنهم خافوا أن يكذبهم من أسلم من اليهود . فإسماعيل قد ورد ذكره في التوراة وقد بشر الملك أمه بأن سيحمله أمة عظيمة : أما عيسى عليه السلام فما جاء له في التوراة من ذكر ، فقد نزلت على موسى عليه السلام قبل أن يولد المسيح بمئات السنين فجحدوا نبوته وقالوا :
— لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به .

فأنزل الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » (٢) .
— يا محمد أأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه : وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟
كان على علم بما طرأ على التوراة من تبديل وأن أحبارهم قد غيروا فيها ، أضافوا إليها وحذفوا منها فقال :
— بلى ولكنكم أحدثتم وجعلتم ما فيها بما أخذ عليكم من الميثاق وكنتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من أحداثكم .
— فانا نأخذ بما في أيدينا ، فانا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك .

فأنزل الله تعالى فيهم : « .. يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ولا يزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأمن على القوم

الكافرين « (١) .

— يا محمد أما تعلم مع الله إلها غيره ؟

— لا إله غيره بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو .

فأنزل الله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإئني برىء مما تشركون . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (٢) .

— أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به حق من عند الله ؟ فانا

لا نراهم متسقا كما تتسق التوراة .

كانت التوراة تقص القصص الذى كتب فى أرض المنفى ، تقص قصة نوح لما سكر وتعرت عورته وقصة لوط لما اضطجع مع ابنته . وقصة داود لما انتزع من قائده أوريا زوجته غدرا ، وقصة سليمان لما كفر . وقصة إستر مع إمبراطور الفرس وكيف أن عمها مردخاى قدمها محظية إلى البلاط الفارسى وإذا بكتاب التوراة يرفعونها إلى مرتبة القداسة ؛ أما القرآن فما كان عملا أدبيا من خيال قاص أو شاعر بل كان من عند الله ينبض بالحكمة وينطق بالحق فهو كتاب منير مبين لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فقال لهم رسول الله عليه السلام :

— أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا به ما جاءوا به .

— يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟
— أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وإني لرسول الله ،
تجدون ذلك مكتوبا عندكم في التوراة .

— يا محمد فان الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه
على ما أراد . فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا
جئناك بمثل ما تأتي به .

فأنزل الله تعالى : « قل إئن اجتمعت الإنس والجن على أن
يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيراً » (١) .

واستمر اليهود في الخذل والمناقضون في النفاق ، ففي ذات يوم
خرج عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه فاستقبلهم نفر من أصحاب
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال عبد الله بن أبي :
— انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم .

فذهب فأخذ بيد أبي بكر فقال :

— مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله
فى الغار ، الباذل نفسه وماله .

ثم أخذ بيد عمر فقال :

— مرحبا بسيد بنى عدى بن كعب الفاروق القوى فى دين الله
الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد على فقال :

— مرحبا بابن عم رسول الله وتخته سيد بنى هاشم ما خلا

رسول الله .

ثم افترقوا فقال ابن سلول لأصحابه :

— كيف رأيتموني فعلت ؟ فاذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت .

فأنتوا عليه خيرا ، فأُنزل الله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين : يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير » (١) .

وسمع يهود هذه الآيات البيّنات فأحسوا قهرا فما نزل مثلها

فى التوراة . وأبوا أن يعترفوا بما فى نفوسهم ورأوا أن يسخروا منها
قبل أن تسحر الناس ببلاغتها فقالوا :

— الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال .

فأنزل الله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا
ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم
وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضلل به كثيرا
ويهدى به كثيرا وما يضلل به إلا الفاسقين » (١) .

وضاقت صناديد اليهود حرجا بما أنزل الله ولكنهم يجادلون
بطبعهم قد ملأ الغرور جوانحهم فراحوا يضحكون ويقولون :
— ما يشبه هذا كلام الله .

فإذا ما انصرفوا قال الرجل منهم لصهره ولدوى قرابته ولمن
بينهم وبينه رضاع من المسلمين :

— اثبت على الدين الذى أنت عليه وما يأمرك به . وهذا
الرجل فإن أمره حق .

كانوا يعترفون فى نجواهم للأنصار أن أمر محمد عليه صلوات
الله وسلامه حق ، فإذا ما لقوه طفقوا به يستهزئون ،
فأنزل الله فيهم : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت
عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا
بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا
بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا
الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع

الراكعين . أثمأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (١) .

وكان سلمان الفارسي يختلف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحبه فقد كانوا يعملون لجمع المال الذي يحرر سلمان من رقه . وكان سلمان لا يفتأ يتحدث عن عبادة أصحابه في الدير واجتهادهم ويقول :

- يا رسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك . ويشهدون أنك تبعث نبيا .

فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

- يا سلمان هم من أهل النار .

فأظلمت على سلمان الأرض فأنزل الله تعالى :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) .

فأحس سلمان كأنما كشف عنه جبيل .

وكان المنافقون يحضرون المسجد يسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم . فاجتمع يوما منهم في المسجد ناس فرآهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتحدثون بينهم بأقصى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمرهم أن يخرجوا ، فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بني النجار

وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية . فأتخذ برجله يسجبه حتى
أخرجه من المسجد وهو يقول :

— أخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة ؟ !

ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وديعة أحد بني النجار
فلبيه بردائه ثم نثره نثرا شديدا ولطم وجهه وأخرجه وهو يقول له :

— أوف لك منافقا خبيثا ! أدراجك (ارجع من الطريق التي

جئت منها) يا منافق من مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وقام معمرة بن حزم إلى زيد بن عمرو وكان رجلا طويل
الliche فأخذ بلحيته فقاده بها قودا عنيفا حتى أخرجه ، ثم جمع
عمارة يديه فلدمه (١) بها في صدره لدمة خر منها فقال :

— خدشتني يا عمارة .

— أبعدك الله يا منافق . فما أعد الله لك من العذاب أشد من

ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وقام أبو محمد مسعود بن أوس من بني النجار إلى قيس بن
عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاما شابا ولا يعلم في المنافقين شاب
غيره ، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه .

وقام عبد الله بن الحارث من بني المخدرة رهط أبي سعيد الخدري
إلى الحارث بن عمرو وكان ذا مجمه ، فأخذ بمجمته فسجبه بها
سجبا عنيفا على ما مر به من الأرض حتى أخرجه ، فقال له :

— لقد أغلظت يا بن الحارث .

— إنك أهل لذلك — أي عدو الله — لما أنزل فيك . فلا تقربن

مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإنك نجس .
وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوى بن الحارث
فأُخرجهُ إخراجاً عنيفاً وقال :
— غلب عليك الشيطان وأمره .
وأُخرج المنافقون من مسجد الرسول إخراجاً عنيفاً ، فقاد
أصبحت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

كان أبو بكر قد نزل بالسنح من ضواحي المدينة على خارجة ابن زيد من بني الحارث من الخزرج ، وتزوج الصديق حبيبة بنت خارجة . ولما كان قد أنفق ماله في تحرير الإماء والعبيد الذين هداهم الله إلى الإسلام ليخلصهم من اضطهاد ساداتهم فقد ذابت ثروته ، فراح التاجر المكي يعمل في الزراعة مع خارجة مزارعة في أرضه ؛ فقد لقن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن العمل عبادة ؛ فأقبلوا على العمل مستبشرين .

ونزل الزبير بن العوام بيثرب وكان فقيراً ما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير جملة الذي يستقى عليه وغير فرسه ، فكانت زوجته أسماء بنت أبي بكر تقوم بعلف فرسه ، فإذا ما فرغت منها خرجت تملأ الماء ثم تعود لتصلح دلوها الجلدة أو لتعجن ، وما كانت أسماء تحسن أن تحبز فكانت تبسعين بجارات لها من الأنصار ليخزن لها وقد كن جارات صدق ، فإذا ما انتهت أعمال البيت انطلقت إلى أرض الزبير التي أقطعها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي على ثلثي فرسخ من الدار لتعمل بها . حتى إذا ما مالت الشمس للمغيب عادت إلى دارها لتحتضن أبنها عبد الله . وكانت أسماء تعرف شدة غيرة زوجها فكانت تتحاشى كل ما يثيره ، فإذا ما ذهبت لزيارة أبيها وأخواتها في السنح كانت

تخرج في صحبة الزبير . وكانت تمد بصرها إلى عائشة فكانت تراها رقيقة حلوة نامية وإن كانت ذات ولع باللعب والمرح .

ووقعت عينا أبي بكر على ابنته ذات العينين الواسعتين والقدمين الصغيرتين والشعر الجعد . فاذا بفكرة تزويجها تحتل رأسه . إنها كانت مخطوبة لجبير بن مطعم بن عدى ثم خطبها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يكن عليها ، وانطلق الصديق من السخ حتى أتى رسول الله عليه السلام فقال له :

— ما يمنعك أن تبني بأهلك ؟

— الصداق .

فأعطاه أبو بكر اثنتي عشرة أوقية ونشا . فبعث بها رسول الله عليه السلام إلى دار أبي بكر فغمر أم رومان فرح شديد ، وهل هناك أمنية أغلى من أن يتزوج رسول الله صلوات الله عليه ابنتها ؟ وكان الشهر شوال . وفتحت دار أبي بكر بالسنع لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — واجتمع إليه رجال ونساء من الأنصار ، فجاءت أم رومان إلى عائشة وهي في أرجوحة بين نخلتين فأنزلتها من الأرجوحة وفرقت شعرها ومسحت وجهها بشيء من ماء ، ثم أقبلت تفقدها حتى وقفت بها عند الباب وهي تنهج حتى سكن بعض نفسها : ثم أدخلتها الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن :

— على الخير والبركة وعلى خير طائر .

فأسلمتها أم رومان إليهن وأصلحن من شأنها ، ثم دخلت بها إلى حيث كان رسول الله عليه السلام فإذا به جالس على سرير

وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فأجلستها في حجر رسول الله عليه السلام ثم قالت :

— هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك .

فوثب الرجال والنساء فخرجوا ، وبني عليها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نهارا في بيتها فما تحرت جزورا ولا ذبحت شاة ، حتى أرسل إليهم سعد بن عبادة بحفنته التي كان يرسلها وبقدح من لبن ، فشرب النبي — صلى الله عليه وسلم — بعضه وشربت عائشة باقية .

كان زواجا بسيطا يتساق مع بساطة حياة محمد صلوات الله وسلامه عليه . ولكنه ربط بين رسول الله وصاحبه الذي ضحي بماله وراحته وتجارته في سبيل قضية الإسلام وانتشار الدعوة في الآفاق . وكان أبو بكر على ثقة من أن ابنته ستجد السعادة في بيت صديقه العظيم الذي يكلم من السماء .

وحملت عائشة إلى دار الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — التي كانت ملتصقة بمسجده ، وكانت في تلك الدار سودة بنت زمعة السيدة البدينة التي ما كان أحد يحس وجودها . ففاطمة الزهراء وأم كلثوم وعلى بن أبي طالب وهند بن أبي هالة ابن خديجة أم المؤمنين كانوا ينظرون إليها على أنها سيدة مسنة مؤمنة فقدت عائثها فجاءت إلى بيت نبي الله عليه السلام لتخدمه وتسهر عليه ، أما وجود عائشة في الدار فكان شيئا آخر يختلف كل الاختلاف عن وجود بنت زمعة !

كانت عائشة صغيرة السن ولكنها كانت تعرف مكانتها في

دار رسول الله عليه السلام . فكانت لا ترى في سودة بنت زمعة
مهمة لها في قلب الرسول عليه السلام بل كانت ترى فيها سيدة
ترعى شئون الدار .

وذات يوم أعدت عائشة طعاما ودعت رسول الله إليه فجلس
بينها وبين سودة . وقدمت عائشة لسودة شيئا منه فاعتذرت
سودة بأنها لا تحبه . فقالت لها عائشة إنها ستلطخ به وجهها إن
لم تأكل . فأعادت سودة الاعتذار . فقامت عائشة ولطخت به
وجه سودة فضحك النبي عليه السلام ولم يقل شيئا . وابتسمت
سودة فغاية أمانيتها أن تدخل الفرحة على قلبه صلوات الله وسلامه
عليه :

كانت حياته عليه السلام كفاحا واضطهادا وأحزانا وكدا ونصبا
وما كان فيها شيء بهيج . حياة قاسية قسوة الصحراء : فكانت
عائشة الواحة التي يلوذ بظلها الظليل من هجير الحياة . وغدت
السيدة الصغيرة تبذل كل ما في طاقتها لإسعاد زوجها الطيب الرحيم
الأمين الذي لا يدخر وسعا لإسعاد كل البشر .

وبدا أن عائشة تحتل مكانة الظاهرة وسيدة نساء قريش في قلب
رسول الله عليه السلام ، فتحركت الغيرة منها في قلوب بنات
الرسول وأبناء خديجة . ففاطمة الزهراء التي عرفت منذ موت
أمها بأهم الرسول لحديها عليه استشعرت أن بنت أبي بكر قد نزلت
بقلب أبيها منزلة خديجة . وأنها صارت تشاطرها حب أبيها
وتقاسمها عطفه الكبير ، فما كانت بقادرة على أن تقبل عليها بقلب
سليم .

وكان هند بن أبي هالة يستشعر بالأسى يعتصر فؤاده كلما وقعت عيناه على عائشة . كان على زين من أن أمه وأم المؤمنين جميعا خديجة بنت خويلد هي حب الرسول عليه السلام الكبير . فلما بنى على العذراء بنت أبي بكر وغمرها بخنانه دبت الغيرة منها في قلب ابن خديجة وربيب الرسول .

وكان على بن أبي طالب قد شب في كنف خديجة . فان كانت فاطمة بنت أسد أمه فما عاش في أحضانها قدر ما عاش بين ذراعي سيدة نساء قريش وأم المؤمنين ، فهو لا يطيق أن يرى امرأة أخرى في دار ابن عمه الحبيب تتخذ مكان السيدة الطاهرة التي أحبها من كل قلبه .

ورأت عائشة حب النبي لابنته وقيامه لها إذا حضرت وإقباله عليها وشدة حبه إياها فكانت تغار من ذلك الحب النبيل . وإن كانت تكتم حقيقة مشاعرها وتطوى عليها صدرها حتى لا تغضب الرجل الذي أحبته بكل خلجة من خلجات فؤادها .

وكان نبي الله عليه السلام يحب ربيبه وابن عمه على بن أبي طالب . حبا عظيما ، وما كان يكم ذلك الحب بل كان يعلنه على الملأ في كل مناسبة . وقد ساء عائشة أن يكون لعل نصيب كبير في قلب زوجها فكانت تحس نحوه بنفس ما يستشعره الزبير بن العوام نحو ربيب الرسول عليه السلام وابن عمه ، فقد مر برسول الله مع الزبير في بني غنم فرأى رسول الله عليا على مقربة منه فضحك له وضحك على يحييه ، ورأى الزبير تهلل أسارير ابن أبي طالب فأحس شيئا في صدره عبر عنه بقوله :

— لا يدع ابن أبي طالب زهوه !
فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مدافعا عن حبيبه
هريبيه وابن عمه :

— إنه ليس به زهو . ولتقاتلنه وأنت له ظالم .
وكانت الغيرة أبرز صفات الزبير . ففي ذات يوم حملت
أسماء بنت أبي بكر النوى من أرض زوجها الزبير على رأسها
وانطلقت إلى الدار . وفي الطريق قابلت رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — ومعه نفر من الأنصار . ورأى النبي حملها فأشفق عليها
فشاء أن يحملها على راحلته خلفه فهي أخت زوجته وابنة صديقه
وزوجة ابن عمته : فهتف :
— أسماء .

ثم قال لبعيره : « إبخ . إبخ » لينبخ بعيره . ولكن أسماء لم
تتقدم . تذكرت شدة غيرة الزبير . فعرف رسول الله أنها استحييت
أن تسير مع الرجال فمضى ولم يلتفت خلفه : ومضت أسماء حتى
بلغت الدار تحمل النوى على رأسها وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها .
وأقبل الزبير فقالت له :

— لقيني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعلى رأسي النوى
ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب فاستحييت منه وعرفت
غيرتك .

— والله لحملك النوى كان أشد على من ركوبك معه .
وبلغ أبا بكر ما تقاسيه ابنته من مشاق وما تقوم به من
أعمال فبعث إليها بخادم تكفيها سياسة الفرس ، فقرحت فرحا

شديدا لكأنما قد أعتقها أبوها .
ونبتت بذور الغيرة التي تنبت في كل بيت في صدور أهل
البيت ، وستعدها الأيام لتنمو وتشتد حتى تتحكم في أخطر حقبة
من التاريخ .

كان وحده في غار حراء ولم يكن معه إلا ربه الذي ينجيه .
 وفي ليلة من ليالى رمضان التي كان يتحنث فيها أضاعت الأنوار
 جنبات الغار ونزل الروح الأمين عليه بوحي الله : فانقلب إلى
 أهله يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

وأمر أن ينذر عشيرته الأقربين فخرج إليهم ليس معه سيف
 ولا أنصار . وكان كل ما معه دعوة كلف بها وتأيد من الله ،
 فدخل في الدين دون إكراه من شرح الله صدره لأنوار اليقين
 وكفر به من طمس الله على قلوبهم : واستمر بضع عشرة سنة
 ينذر بالدعوة بغير قتال .

كان يأتيه أصحابه بمكة ما بين مضروب ومشجوج وثائر
 فيقول لهم :

— اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال .

ونفذ صبر بعضهم فجاءه جماعة منهم عبد الرحمن بن عوف
 والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون وسعد بن أبي وقاص وقد
 نزل بهم أذى كبير من المشركين فقالوا :

— يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمننا صرنا
 أذلة : فأذن لنا في قتال هؤلاء .

— كفوا أيديكم عنهم .

لم يأمره الله إلا بالإنذار والصبر على الأذى والكف عن
المشركين . وراح القرآن يتحدث عن الفتح فيسخر الكافرون من
ذلك القول . فأُنزل الله تعالى : « ويقولون متى هذا الفتح إن
كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم
ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » (١) .

وانتشر الإسلام في مكة دون سلاح بل على الرغم من الأسلحة
التي أشهرت في وجهه . واضطر المسلمون إلى أن ينزفوا بدينهم
من وجه الاضطهاد إلى الحبشة ثم إلى المدينة . واستقر أمره - صلى
الله عليه وسلم - بعد الهجرة وكثر أتباعه فقد دخل الأنصار في
دين الله عن رضا وقدموا محبته عليه السلام على عبة آبائهم وأبنائهم
وأزواجهم . وأصر المشركون على الكفر والتكذيب واشتد كيد
اليهود للإسلام في المدينة . وبدأ أن الركون للسلام قد يقوض
الدولة الفتية التي تكونت من المهاجرين والأنصار وأنها مهددة
بالغزو من الخارج أو بالطعن من الداخل طعنة تزهق الروح التي
أشرقت في أرض المهجر بنور الله ، فكان لابد أن يسان ذلك
المجتمع الذي سيحمل رسالة النور إلى العالمين ، فأوحى الله إلى
عبده : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله
لا يحب المعتدين » (٢) .

وأذن الله تعالى لنبيه عليه السلام ولأصحابه في قتال من قاتلهم
وبدأهم به . وكرهت جماعة القتال بعد أن استقروا في المدينة وشق
ذلك عليهم وكان منهم من جاء إلى الرسول عليه السلام في مكة

يستأذنه في قتال المشركين . فقال لهم عليه السلام آنذاك : كفوا أيديكم عنهم . فأنزل الله تعالى فيهم : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتىلا » (١) .

وأذن الله للذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق بالقتال ووعد بتصرهم . فأنزل تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز » (٢) : فخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالمهاجرين ليس فيهم أنصارى . كانوا سبعين رجلا من أصحابه ليعترض عيرا لقريش وبني ضمرة . لعله يستولى على ما يعوض بعض ما صادره الكافرون من أموال المهاجرين .

كانت قريش قد استولت على دور المهاجرين وعلى أموالهم وتجارهم ، وقد حبست المستضعفين من المسلمين عن الخروج إلى يثرب ليلحقوا بأخوانهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . وكان موقفها من المسلمين لا يتفق مع السباحة التي تمارسها مع اليهود والنصارى والمجوس والصابئين .

فقد كان أصحاب الديانات يمارسون شعائهم في مكة في حرية حتى لقد وضع تمثال للعداء وهي تحمل طفلها بين تماثيل آلهتهم ، بينما اضطهد محمد عليه صلوات الله وسلامه وصحبه أشد الاضطهاد وعذبوا أقسى العذاب حتى اضطروا إلى أن يهاجروا فرارا من الأذى الذي يفوق طاقة البشر .

وانطلق المهاجرون في طريق الألباء وقد حمل حمزة بن عبد المطلب اللواء وكان أبيض . وكان أول لواء لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتذكر عليه السلام وهو في الطريق ذلك اليوم الذي كان عائدا فيه من يثرب مع أمه آمنة بعد أن زارا قبر أبيه في دار عدى بن النجار . فقد هبت عاصفة هوجاء كادت تخلع الودج . فمالت أمه عليه واحتوته بين أحضانها لتحميه من الريح الصرصر العاتية . وظلت صابرة على قسوة سفع الرياح حتى سكنت العاصفة وروحها تسرب من بين جنيها . لقد ماتت في الطريق ولم يكن معه إلا أم أيمن . فعحمل الحثة الغالية معه في الودج حتى دخل الألباء ليدفنها هناك بعيدة عن قبر زوجها ، بعيدة عن أهلها ، غريبة في الأرض لن تجد من يزور قبرها .

كانت تلك اللحظات قمة مأساة طفولته فقد ذاق بعدها مرارة اليتيم وإن غمره جده عبد المطلب بحبه وحنانه حتى لحق بأمه آمنة . لقد مر على ذلك عشرات السنين ولكن الذكرى الأليمة حفرت في أعماقه فهو لا يستطيع أن ينسى آلام نفسه وتلك العبرات الحارة التي ذرفها على أمه الراحلة .

وبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودان وهي قرية كبيرة

بينها وبين الألباء ستة أميال . وعرف هناك أن قافلة قريش القادمة من الشام قد رحلت في طريقها إلى مكة وأنها أفادت من قبضته . فنزل بودان ولم يلق كيذا . ولقي سيد بني ضمرة مجدي بن عمر الضمرى فصالحه على ألا يغزوهم ولا يغزوه ولا يكثرُوا عليه جمعا ولا يعينوا عليه عدوا . وكتب بينه وبينهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصرة على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بل بخر صوفة . وأن النبي — صلوات الله عليه وسلامه — إذا دعاهم لنصره أجابوه عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله » .

ورجع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة ليشتد الجدل بينه وبين يهود . وفيما هو في مسجده عليه السلام جاءه أن عيرا لقريش قادمة من الشام فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير ، فأمر عليه السلام أصحابه من المهاجرين بأن يتأهبوا للخروج . فلما سمع بلال أن أمية بن خلف في القافلة ثارت دماؤه في عروقه فهو لا ينسى تلك الأيام التي كان يعذب فيها أمية ، وهو يراه رأس الكفر ويرجو أن يمكنه الله منه ليثأر لما ناله .

واستعمل — صلى الله عليه وسلم — على المدينة سعد بن معاذ وعقد لواءه الأبيض لسعد بن أبي وقاص . ثم خرج في مائتين من أصحابه من المهاجرين خاصة يريد عير قريش ، حتى إذا بلغ بواط وجد أن العير قد مضت فرجع إلى المدينة ولم يلق كيذا .

وراح الرسول عليه السلام يرصد قوافل قريش . فقد أذن الله له ولمن هاجر معه بأن يقاتل الذين أخرجوه من ديارهم بغير حق . وكان غرضه عليه السلام أن يسترد من القرشيين بعض ما سلبوه من أموال المهاجرين .

وجاء رجل إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يخبره أن عيرا لقريش متوجهة للشام قد جمعت قريش جميع أموالها فيها . ثم يبق بمكة لا قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به في تلك العير إلا حويطب بن عبد العزى . وأن في تلك العير خمسين ألف دينار وألف بعير . وفيها أبو سفيان بن حرب وهو قائدها ومنه تسعة وثلاثون رجلا منهم مخزومة بن نوفل وعمر بن العاص . فمخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في مائتين من المهاجرين حتى بلغ العشيرة وقد حمل اللواء عمه حمزة . واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد .

خرجوا على ثلاثين بعيرا يتعقبونها فوجدوا العير قد مضت بل ذلك بأيام ، فنزلوا ليستريحوا قبل أن يرجعوا إلى المدينة . وغدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتفقد أصحابه فوجد على بن أبي طالب نائما هو وعمار بن ياسر وقد سفت الرياح التراب على ابن عمه حتى كادت تغمره ، فجعل عليه السلام يرنو إلى على بن حبيب ثم أيقظه برجله في رفق وهو يقول :

— قم أبا تراب .

وقدم — صلى الله عليه وسلم — من غزوة العشيرة إلى المدينة ، وما انقضت ليالى لم تبلغ العشرة حتى أغار كرز بن حابر الفهري — نهجرة —

على النعم والمواشى التي تسرح للمرعى . فاستعمل عليه السلام على
المدينة زيد بن حارثة وحمل اللواء الأبيض على بن أبي طالب ثم
خرج عليه السلام خلف كرز بن جابر حتى بلغ وادى سفوان من
ناحية بدر . وفاته كرز ولم يدركه ثم قفل راجعا إلى المدينة .
إن الله أذن له بقتال من أخرجوهم ظلما من ديارهم ، وقد
خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في أصحابه من المهاجرين
يزيد غير قريش أكثر من مرة : فإن كانت العير قد مضت قبل
أن يدركها فلن تفلت منه المرة القادمة . ولنصرن الله من ينصره
وإن الله لقوى عزيز .

اطمأنت برسول الله — صلى الله عليه وسلم — داره وأظهر
الله بها دينه وسره بما جمع إليه من المهجرين والأنصار من أهل
ولايته . وأبو قيس بن أبي أنس في مسجده يعبد ربه ، فقد كان
رجلا قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل
من الجنابة وتطهر من الحائض من النساء ، وهم بالنصرانية ثم أمسك
عنها ودخل بيتا له اتخذ مسجدا لا تدخله عليه فيه طامث ولا جنب
وقال : أعبد رب إبراهيم .

وفارق أبو قيس الأوثان وكرهها حتى قدم رسول الله — صلى
الله عليه وسلم — المدينة . فخرج إليه يلقى إليه سمعه لا يبغى إلا
كبد الحقيقة التي عاش ينشدها حتى صار شيخا كبيرا . فلما رتل
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القرآن أحس الشيخ لكائما
أنوار الحكمة تشرق في قلبه ، وأنه قد اقترب من ربه قربا حقيقيا ،
وأن الحجاب الذي كان بين فؤاده والكون قد رفع ، فنظر بعين
بصيرته إلى ملكوت السماء فإذا بالرحمة تفيض عليه ، وإذا بصدرة
ينشرح ، وإذا بحقائق الأمور تتلأأ في عين ذاته . وإذا به يبتدى
إلى أن ما يسمعه هو الحق من ربه فطفرت الدموع من عينيه .
إنه طاف بالأرض في أثر النور ، أصغى إلى أحبار اليهود
ورهبان النصارى وكهان العرب والصابئة والمجوس واقتنى الكتب

وعكف على قراءتها حتى انتهى به الأمر إلى أن دخل بيتا له فاتخذة
مسجدا يعبد فيه رب إبراهيم . فلما مس أذنيه آيات الله أحس بكل
جوارحه أنها من الله وطريق الوصول إليه . وأنها تفوق كل
ما سمعه وما قرأه فهي تعرف سبيلها إلى القلب لتجلوه وتزكيه
وترفع الروح إلى آفاق مشرقة من نفحات رب العالمين .

وكان قلب أبي قيس سليما من الغل والحسد . ولم تكن له
مظالم في الدنيا غير الاهتداء إلى الحق والحقيقة فأعلن في فرح
فياض إسلامه . ولما كان شاعرا فقد راح ينشد بما يعتمل في صدره
من إحساسات :

سبحوا لله شرق كل صباح طلعت شمسسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوى في وكور من آمناات الجبال
وتعلق قلب الشيخ برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأحبه
حبا يفوق حب أبنائه وذويه . وكان يجد سعادة عارمة كلما ذكره ،
فغدا ينظم الأشعار يذكر ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من
لإسلام وما خصهم الله به من نزول رسوله . صلى الله عليه وسلم
عليهم :

لوى في قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينسسه فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وألنى صديقا واطمأنت به النوى وكان له عوننا من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه وما قال موسى إذ أجاب المناديا

فأصبح لا يخشى من الناس واحدا
 بذلنا له الأموال من حل مالنا
 ونعلم أن الله لا شيء غيره
 تعادى الذى عادى من الناس كلهم
 أقول إذا أدعوك فى كل بيعة :
 أقول إذا جاوزت أرضا مخوفة
 فطامع معرضا إن الخوف كثيرة
 فوالله لا يدرى الفتى كيف يتقى
 ولا تحفل النخل المعيمة (١) ربه
 وكان شعراء المسلمين يمدحون رسول الله — صلى الله عليه
 وسلم — بينما كان كعب بن الأشرف شاعر اليهود يهجوهم : والمنافقون
 يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم
 الظفر على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان نفر من اليهود
 يباطنون نفرا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال بعض المؤمنين
 لأولئك النفر من الأنصار :
 — اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا
 يفتنوكم عن دينكم .

فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمهم فأُنزل الله تعالى :
 « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن
 يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاةً » ويحذركم الله
 نفسه وإلى الله المصير « (٢) .

فاجتنب الأنصار ملازمة اليهود ومبايعتهم فزاد ذلك في حقدهم على رسول الله عليه السلام ، فما يأتي المؤمنين بأمر حتى يقولوا : سمعنا وأطعنا . فرأوا أن خير ما يفعلونه أن يكيدوا لرسول الله وللقرآن فتواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقال بعضهم لبعض :

— ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا به في آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه . فإذا فعلتم ذلك يشك أصحابه في دينهم وقالوا : إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم . واطمأنوا إلى ما دبروا ، وقبل أن يمشوا بالفتنة بين المسلمين أوحى الله إلى عبده : « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبص دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم أو يخافوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١) .

وضايق اليهود أن كشف القرآن مكرهم ، ولم يفت في عضدهم أن أطلع الله رسوله عليه السلام على سرهم فقد ظنوا أن بعضهم يمشي إليه بنجواهم فاستمروا في كيدهم لنبي الله . فأتى كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف ووهب بن يهودا وزيد بن ثابت

وفتحاص بن عازوراء وحى بن أخطب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا :

— تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا وأن الله قد عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا به صدقناك .

وسمع ضعاف الإيمان والمنافقون ما قال أشراف اليهود فراحوا ينتظرون آية مادية تراها أعينهم ، ورفت بسمات خبيثة على شفاه أعداء محمد عليه السلام من اليهود والمشركين والمنافقين وترقبوا رد رسول الله عليه السلام على ذلك التحدى الذى ما كان يختلف كثيرا عن تحدى كفار قريش لما سألوه عليه السلام أن يفجر لهم من الأرض عيونا ويجعل لهم جنات وأن يحيل الصفا إلى ذهب نضار ، فإن الله أنزل : « قل إنما الآيات عند الله » (١) . « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (٢) . ليلتو ذلك على كفار قريش ، أما اليهود أهل الكتاب الأول الذين يؤمنون بالوحى فقد أنزل الله تعالى للرد على تحديهم : « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين . فإن كذبوك فقد كذّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » (٣) .

كانوا يحاولون أن يزعموا إيمان المؤمنين بافتراءاتهم ، ولكن

القرآن كان ينزل من فوق سبع سماوات ليكشف كيدهم وينفضح سرهم فيزعزع ثقة بعض اليهود بأشرافهم . فقد قامت خصومة بين رجل من المنافقين وبين يهودى فقال اليهودى :
— انطلق بنا إلى محمد .

فقال المنافق :

— بل نأتى كعب بن الأشرف .

كان اليهودى يعلم أن محمدا عليه السلام لن يجور عليه ، وكان المنافق على يقين أن رسول الله عليه السلام لا يقبل الرشوة . بينا يستطيع أن يرشوه كعب بن الأشرف ، ولكن اليهودى أتى إلا رفع الخصومة إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى الرسول فاختصما إليه . ففضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى . فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال :

— نطلق إلى عمر بن الخطاب .

فأقبلا إلى عمر فقال اليهودى :

— اختصمنا أنا وهذا إلى محمد ففضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك ، وتعلق بى فجئت إليك معه .

فقال عمر للمنافق :

— أكذلك ؟

— نعم .

— رويدا حتى أخرج إليكما .

فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه ثم خرج إليهما وضرب

به المنافق حتى برد وقال :

— هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله .
وأنزل الله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما
أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت
وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا .
وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين
يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم
ثم جاءوك يخلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا . أولئك الذين
يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم
قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم
إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول
لوجدوا الله توابا رحيما » (١) .

وكان للمؤمنين مشاكلهم فكانوا يفرعون إلى رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — يلتمسون عنده النصيحة ، فقد جاءه
عبد الله بن رواحة يقول له إن له أمة سوداء وأنه غضب عليها
فلطمها ثم إنه فزع . فقال له النبي — صلى الله عليه وسلم :
— ما هي يا عبد الله ؟

— يا رسول الله هي تصوم وتصلى وتحسن الوضوء وتشهد
أن لا إله إلا الله وأنتك رسوله .
— يا عبد الله هذه مؤمنة .

— فوالذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها .
وأعتق عبد الله بن رواحة شاعر الأنصار أمتة السوداء

وتزوجها : فظعن عليه ناس من المسلمين فقالوا في عجب واستنكار :
— نكح أمة .

وكان ذلك شيئا يخط من كرامة الرجال : ولكن الإسلام
جاء ليرد إلى البشرية كرامتها ، فالتاس جميعا لآدم وآدم من تراب
لا فرق بين حر وعبد ولا أبيض ولا أسود ولا فضل لعربي على
عجمي إلا بالتقوى : فأنزل الله تعالى : « ولأمة مؤمنة خير من
مشركة ولو أعجبتكم » (١) .

وكان مرثد بن أبي مرثد حليفا لبني هاشم فبعثه رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — إلى مكة ليخرج ناسا من المسلمين بها
أسراء فلما قدمها سمعت عناق بمقدمه وكانت خليلة له في الجاهلية :
فلما أسام أعرض عنها فائتته فقالت :
— ويحك يا مرثد . ألا تخلو ؟ !

— إن الإسلام قد حال بيني وبينك وحرمه علينا ، ولكن إن
شئت تزوجتك . إذا رجعت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
استأذنته في ذلك ثم تزوجتك .
— أنت تبرم .

ثم استغاثت عليه وفضحت أمر قدومه فضر به ضربا شديدا
ثم خلوا سبيله ، فانصرف إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
راجعا فاستأذنه في عناق أن يتزوجها ، وكانت ذات حظ من
جمال ، قال :

— يا نبي الله إنها لتعجبني .

فأنزل الله عز وجل : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن (١) »
وكان الأوس والخزرج ينظرون إلى اليهود في إجلال قبل
الإسلام فهم أهل الكتاب والعلم ، فلما من الله عليهم بالإسلام أحس
« الأنصار عزة وراحوا يناقشون جيرانهم في ثقة فما آتاهم الله من
فضله يفوق ما عند اليهود من بقايا دين قويم وأساطير الشعوب .
وأحس اليهود أن القرآن قد رفع من شأن حلفائهم الذين كانوا
يسرعون إليهم في حل مشاكلهم وبدلهم تبديلا ، فتحركت غيرة أهل
الكتاب فقالوا للمسلمين :

— نحن أهدى منكم ، نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن
أولى بالله منكم .

أول قال المسلمون :

— نحن أهدى منكم وأولى بالله ، نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا
يقضى على الكتب التي قبله . فأنزل الله تعالى : « ليس بأمانيتكم
ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله
وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو
أحس دينا لمن فأنزل الله تعالى : « ولا يظلمون الجنة ولا يظلمون نارا . ومن أحسن دينا
من أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله
إبراهيم خليلا » (٢) .

وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبد الله بن جحش ابن عمته في رجب : عند رجوعه من غزوة سيفوان التي بلغ فيها مياه بدر . وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد . وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا : وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم ، وعكاشة بن محصن ابن حريثان أحد بني أسد بن خزيمه حليف لهم . ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان حليف لهم . ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . ومن بني عدى بن كعب عامر بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف أحد بني تيم حليف لهم ، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم . ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال :

— سمعا وطاعة .

ثم قال لأصحابه :

— قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة
أرصد بها قريشا حتى آتية منهم بخبر . وقد نهاني أن أستكره أحدا
منكم فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينتقل ومن كره ذلك
فليرجع . فإما أنا فهاض لأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم .
فمضى ومعه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد .

وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له
بخران ، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيرا لهما كانا
يتعقبانه ، فتحلفا عليه في طلبه .

ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ،
فمرت به غير لقريش تحمل زبيبا وأدما (جلدا) وتجارة من تجارة
قريش فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة
وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى بني
المغيرة .

فلما رأى القوم عبد الله بن جحش والذين معه هابوهم ،
فاشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد خلق رأسه ، فلما رآوه
اطمانوا فقد حسبوا أن المسلمين قد قدموا للعمرة وقالوا :
— نعمتار ، لا بأس عليكم منهم .

وتشاور عبد الله بن جحش وأصحابه فيهم وذلك في آخر يوم
من رجب ، فقال القوم :
— والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن

منكم به . ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام .
فردد القوم وهابوا الإقدام عليهم . ثم شجعوا أنفسهم عليهم
وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم . فرمى
واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر
عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان . وأفلت القوم نوفل بن
عبد الله فأعجزهم .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعرير والأسيرين حتى
قدموا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة ، فلما علم
ما كان منهم قال :

— ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام .
فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما
قال ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سقط في أيدي القوم
وظنوا أنهم قد هلكوا ، وراح إخوانهم من المسلمين يعنفونهم فيما
صنعوا . وماجت المدينة ونشط اليهود يوقظون الفتنة حتى إذا خلوا
بأنفسهم تعلقوا بالأوهام وراحوا يتفائلون وهم أهل الكتاب الأول
ويقولون :

— عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله . عمرو عمرت
الحرب . والحضرمي حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله وقدت
الحرب .

وتهللت أسارىهم فالفأل يؤكدهم أن الحرب واقعة وأن نهاية
محمد بن عبد الله قد دنت وهي الأمنية التي تزلت بسواد أفئدتهم ،
فما فضح نفاقهم مثل قرآن محمد .

وثار سادات قريش ومشوا إلى من بق من المسلمين في مكة وقالوا في غضب :

— قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم .
وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال .
— إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان .

وأكثر الناس في ذلك المهاجرون والأنصار ويهود المدينة وكفار قريش ، فأنزل الله على رسوله : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (١) وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف ، وتهلل عبد الله بن جحش وصحبه بالفرح فقبض رسول الله صلوات الله وسلامه عليه العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإننا نخشاكم عليهما ،
فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

فبعث بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان لم يعودا مذ أضلا بعيرا لهما وتخلفا في طلبه ، فلما قدما قبل عليه السلام فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان .

وكان الحكم وهو في أسره يصغى إلى ما يتلى من القرآن .

فيستشعر كأنما أنوار اليقين تفيض في نفسه وأن رقة تكتنفه حتى إن الدموع تبلل روحه قبل أن تطفر من مقلتيه ، إنه يرتفع إلى ما فوق السماوات ليهيم في ملكوت الله ، إنه يحس في قرارة نفسه أنه خلق من جديد وأنه ملئ حكمة وأن الحجب قد رفعت عن عين بصيرته فاهتدى إلى جوهر الحقيقة وحقيقة الذات ، فلم يستطع إلا أن يشهد شهادة الحق وأن يعلن على الملأ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

أسلم الحكم بن كيسان وأقام عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأما عثمان بن عبد الله فلمحق بمكة وقلبه يقطر حقدًا على المسلمين الذين أسروه وأخذوا فديته ينتظر الأيام ليثار لما ناله .
وتجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه من كرب شديد حين نزل القرآن ، فطمعوا في الأجر فقالوا :

— يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين ؟

فأنزل الله عز وجل فيهم : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » (١) وكانت العير أول غنيمة للمسلمين فراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتشم الفئء وهو سعيد ، فقد أقيمت أيام النصر بعد سنين الاضطهاد والتعذيب ، وغدا عبد الله بن جحش ينشد حين قالت قريش قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسروا الرجال :

تُعسِدون قتلا في الحرام عظيمة
صدودكم عما يقسول محمد
وإخراجكم من مسجد الله أهله
فإنا وإن عبرتمونا بقتله
سقمينا من ابن الحضرمي رماحنا
دما وابن عبد الله عثمان بيننا
وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
وكفر به والله راء وشاهد
لثلا يرى لله في البيت ساجد
وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
بنخلة لما أوقد الحرب واقد
ينازعه مُغلٌّ من القدِّ عاند (١)

(٢) القد : شرك يقطع من الجلد . وعاند : سائل بالدم لا ينقطع .
(الهجرة)

الوحي ينزل من السماء وكتاب الوحي يكتبون القرآن على
العُسْب (جريد النخل) والخاف (صفائح الحجارة) والرقاع
والأديم وعظام الأكتاف والأقناب ، ورجال من المهاجرين يبعثون
بما أنزل الله على رسول الله إلى المستضعفين من المسلمين بحكمة الذين
حبسوا عن الهجرة ، فكانت آيات الله ترتل في الدور سرا وسرعان
ما تنتشر في الحرم

وكان الحوار دائرا بين المسلمين ويهود المدينة ، فلما رأى
اليهود رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعصلي إلى بيت المقدس
ويجعل الكعبة خلفه قالوا مستهزئين :
— نخالفنا محمد ويتبع قبلتنا .

وكانت استراحوا لهذه الحجة فغدوا يقولون للمسلم
— لو لم نكن على هدى ما صليتم لقبلتنا فاقتديتم بنا فيها !
وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحب في قرارة نفسه
أن يستقبل الكعبة محبة لموافقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .
إنه لما كان في مكة كان يتجه إلى بيت المقدس والكعبة أمامه ،
أما بعد أن هاجر إلى المدينة صار إذا استقبل صخرة بيت المقدس
يستدبر الكعبة ، فشق ذلك عليه وزاد في ضيقه قول كفار قريش
للمسلمين :

— لم تقولون نحن على ملة إبراهيم وأنتم تتركون قبلته وتصلون إلى قبلة اليهود ؟

وود رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن الله سبحانه وتعالى صرفه عن قبلة اليهود . فكان إذا صلى إلى بيت المقدس يكثر من النظر إلى السماء ويدعو الله في ابتهاج أن يوليه قبلة يرضاها . فبينما كان يصلي الظهر بأصحابه في بني سلمة وأتم ركعتين نزل خبر بل فإشار إليه أن صل إلى الكعبة . فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة فاستدار من خلفه . فلما أتم الصلاة جعل يتلو على المصلين ما أنزل عليه : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون » (١) .

وخرج عباد بن بشر وكان صلى مع رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — ومر على قوم من الأنصار يصلون العصر وهم راكعون فقال :

— أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل البيت .

فتحولوا نحو الكعبة .

وبينا الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال :

— إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها .

وقام رجال على أبواب المساجد ينادون :

— إن الصلاة قد وجهت نحو الكعبة .

فاستداروا إلى الكعبة فرحين . فقد كان ذلك الأمر فراقا بينهم .

وبين اليهود .

واجتمع قوم من كبار اليهود يتشاورون في ذلك الأمر الخطير .

فلو أنهم لم يؤمنوا بمحمد عليه السلام ورسالته فأتجأه إلى قبلتهم

إقرار منه بعظمة تلك القبلة وقداستها وهو اعتراف ضمنى باليهودية .

وعلو مكانتها وفضلها على الديانات كلها . أما أن يتخذ الكعبة قبلة

ففى ذلك رفع الكعبة على بيت المقدس وقد يجعل ذلك أفئدة العرب

تهوى إلى دينه . فرأوا أن يبذلوا الجهود ليعيدوه إلى قبلته الأولى

ليستردوا لقبلتهم مكانتها في نفوس العرب وليفتنوه ليعلم الناس أنه

— صلى الله عليه وسلم — في حيرة من أمره ، فجاءوا إليه وقالوا له :

— يا محمد . ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم

أنك على ملة إبراهيم ودينه . ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها تنبعك

ونصدقك .

وانتظروا أن يتحول مرة أخرى إلى بيت المقدس ليعلنوا على

الملا أن يساوم في دينه . فأنزل الله عليه : « ولئن أتيت الذين

أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما

بعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك

من العلم إنك إذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما

يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولكل وجهة هو موليها

فاستبقوا الحيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » (١) .

وطاش لب اليهود فقد ردت فتنهم إلى نحورهم . فلن يخول محمد عليه السلام قبلته مرة ثانية إلى بيت المقدس . وقد استبشر المسلمون والكافرون العرب بأن محمدا وصحبه قد اتجهوا إلى قبله إبراهيم ، فأراد اليهود أن يهونوا من شأن الكعبة فقالوا :
— بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء .
وفي الأرض المقدسة .

وفرحوا بهذه الحجة ولكن القرآن نزل بآيات تؤكد فضل الحرم : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » (٢) .

وضاق اليهود بحجج القرآن الدامغة فقالوا للمسلمين :

— والله إن أنتم إلا قوم تفتنون .

فأنزل الله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى

حراط مستقيم» (١) *

وقالت الصحابة له :

— يا رسول الله لقد ذهب منا قوم قبل التحول فهل يقبل منا

بعضهم ؟

— مات قبل أن نحول قبل البيت رجال فلم ندر ما تقول فيهم ؟

فأنزل الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء

على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت

عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت

لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله

بالناس لرءوف رحيم » (٢) .

وبعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر في شعبان من السنة

الثانية للهجرة فرض صوم رمضان أو الإطعام عن كل يوم مسكينا

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب

على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معدودات فمن كان منكم

مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدين

طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم

إن كنتم تعلمون » (٣) .

فكان من شاء صام ومن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا ، ثم

كان إيجاب صوم رمضان عينا بقوله تعالى : « شهر رمضان الذي

أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن

شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون» (١).

وكانوا ينوون الصيام عقب الإفطار مباشرة ، فإذا نام أحدهم فلم يستيقظ إلا بعد الغروب فما كان يتناول شيئاً بل يستأنف الصيام . وذكر لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن بعض أصحابه سقط مغشياً عليه بسبب الصوم فسأله عليه السلام عن ذلك فأخبره أنه أهل حرث وأنه جاء لينظر ما تعمله له زوجته ليتعشى به فغلبته عينه فنام فلم يستيقظ إلا بعد الغروب فلم يتناول شيئاً .

وواقع عمر بن الخطاب أهله بعدما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ بيكي ويلوم نفسه ، فأتى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : — يا رسول الله أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخاطئة . إنى رجعت إلى أهلى فوجدت رائحة طيبة فسولتلى نفسى فجامعت أهلى — ما كنت جديراً بذلك يا عمر .

فقام رجال فاعترفوا بمثله فنزلت : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للباس لعلهم يتقون » (٢) :

الحرب مستمرة بين بيزنطة وفارس والقتال مشوب بين الدولتين حتى الموت ، كانت دولة الفرس قد اكتسحت دولة الروم ونهبت بيت المقدس وغزت مصر ووقفت الجيوش الفارسية تفرع أبواب القسطنطينية بمساعدة الآفار ، وكانت دول العالم ترقب ذلك الصراع في اهتمام وقد تشتتت العواطف بين الإمبراطوريتين العتيدتين ؛ كانت بعض الدول هواها مع هرقل إمبراطور الروم وبعضها هواها مع كسرى الثاني شاهنشاه إيران الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال . صاحب الصيت الذائع الذي يصحرو مع الشمس والذي يهب عينيه للنيل .

وفرح كفار قريش أيام كان الرسول عليه السلام بمكة ، لما تقدمت جيوش فارس حتى بلغت البوسفور . وقالوا للمسلمين إن انتصار حلفائهم من الوثنيين عيدة النار على أهل الكتاب لخير دليل على أن النصر سيكون حليف قريش على من شقوا عصا الطاعة من أصحاب ابن أبي كبشة الذين كفروا باللات والعزى وجعلوا للكون إلها واحدا في الأرض وفي السماء .

وقد شق ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله تعالى : «الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم

سيغلبون . فى بضع سنين .. » (١) . فسخر سادات قريش مما أنزل الله حتى ثارت مشادة بين أبى بكر الصديق وأمىة بن خلف بلغت أن تراهن الرجالان على تحقيق هذه النبوءة .

وراحت الأيام تمر وجيوش الفرس مرابطة حول أسوار القسطنطينية . وأمىة بن خلف وسادات قريش يستهزئون بأبى بكر كلما مروا به وأبو بكر واثق من تحقيق وعد الله . ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزيده ثقة على ثقة ويقول له إن بضع سنين بين ثلاثة وتسعة .

وتصرمت سنوات وبلغ اضطهاد الكافرين للمسلمين غايته ، فهاجر المسلمون إلى يثرب . وقد استؤنفت الحروب الطاحنة بين الإمبراطوريتين وغدت أنباء انتصارات الروم تغد على مكة والمدينة . فكان المسلمون يستبشرون بوعد الله بينا كان كفار قريش ويهود المدينة فى كمد ، فالقرشيون يخشون أن تتحقق نبوءة محمد فيزعزع ذلك إيمان أهل مكة بالهتيم ويجعل أفئدتهم تميل إلى إله أبى القاسم الذى تنبأ له بذلك النصر أيام كان الحديث عن نصر الروم ضربا من الخيال . أما اليهود فكانوا يهتفون هرقل من كل منوهم فهو يضطهدهم أشد الاضطهاد منذ تلك النبوءة التى أكدت له أن ملك الروم سيزول على أيدي شعب مختون ، فلم يجد غير اليهود هدفا لقسوته وانتقامه فمن ظن أنهم المعاول التى ستقوض صرح الإمبراطورية والحفاظ على سيقتلص أمامها ظل النسر رومانى على الأرض .

وراح الجيش الرومانى الذى أعاد تنظيمه طيرىوس ومورىقيوس
يتقدم بقيادة هرقل نحو الشرق ويغزو مصر ويستولى عليها ، ويقابل
المصريون استرداد الروم لبلادهم بفتور . فإن كان الروم مسيحيين
والمصريون مسيحيين أيضا إلا أن المصريين كانوا نساطرة وكان
الروم يعاقبة وكان كل فريق يكن للآخر بغضا دفتنا .

وتقدم النسر الرومانى نحو بيت المقدس ففرح المؤمنون ،
مغان هى إلا وثبة واحدة ويستولى هرقل على المدينة المقدسة ويتحقق
وعد الله . وكان أبو بكر يتהלل بالفرح ويتمنى . لو أنه كان بمكة
ليرى وجوه الذين سخرؤا منه لما راهن أمية بن خلف على أن نصر
الروم أكيد .

واشتد الجدل بين يهود المدينة وبين المسلمين حول الحرب
الدائرة بين كسرى الثانى وهرقل . فقد راح اليهود يؤكدون أن
الروم سيتقهقرون مدحورين بعد حين ، فكسرى يجمع جيوشه
من أطراف إمبراطوريته ليرد هرقل عن المدينة المقدسة ويتعقبه
حتى عقر داره ، بينما كان المسلمون يرون أن نصر هرقل قريب ،
وقد أكثرؤا من تلاوة سورة الروم .

كانت الإمبراطورية الفارسية تترنج ، فكسرى بمظالمه وتحقيره
وعداوته لقواده وحقده الدفين على كل من يرتفع له شأن فى
مملكته قد طعن دولته فى قلبها بنحجر مسموم . إنها انتحرت من
الداخل قبل أن يدهمها هرقل بجيوشه . انهزمت قبل أن تنشب
المعركة ويدور القتال بعد أن قضى كسرى بأفعاله على عزيمة
الرجال . وقد وضحت الحقيقة سافرة لعين المسلمين فأيقنؤا أن

اندحار الفرس قريب .

وود أبو بكر لو ينطلق إلى مكة ليقف على رءوس كفار
قريش يستهزئ بهم كما استهزءوا به من قبل ، ولكن ذهاب الصديق
إلى أعداء الله ورسوله لم يكن مأمونا وإن كان بعض الأنصار
بشدون الرحال إلى الحرم في جوار أصحابهم من أهل مكة .

كان أمية بن خلف ينزل على سعد بن معاذ بالمدينة إذا ذهب
إلى الشام في تجارته ، وكان سعد ينزل على أمية إذا ما وفد إلى مكة ،
وقد قدم سعد معتمرا فنزل على أبي صفوان فقال له :

— انظر لي ساعة خلوة لعل أطوف البيت .

— انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفلت الناس انطلقت و مت .

كان أمية بن خلف من رءوس الكفر وكان سعد بن معاذ من
وجوه المسلمين والأنصار ، فدار بينهما حوار و ذكرت أنباء
الحرب الضروس بين الفرس والروم . ولا شك تذكر أمية بن خلف
ذلك الرهان الذي كان بينه وبين أبي بكر الصديق ولكنه أبى أن يسلم
أن النصر سيكون حليف الروم ، فلا تزال المدينة المقدسة تقاوم
ولم تسقط بعد في أيدي هرقل .

وخرج أمية بن خلف وسعد بن معاذ قريبا من نصف النهار ،
فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل فقال في عجب ودهشة :

— من هذا الذي يطوف ؟ !

— أنا سعد بن معاذ .

— أطوف بالكعبة آمنا وقد أوتيت محمدا وأصحابه وزعمتم أنكم

تنصرونهم وتعينونهم ؟

والتفت أبو جهل إلى أمية بن خلف وقال :
— أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما .
فتخاصما وسعد يرفع صوته بقوله :
— أما والله لئن منعني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه :
طريقك على المدينة .
وأحس أبو جهل الخطر فخفف من غلوائه ، وصار أمية
يقول لسعد :

— لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي .
وجعل أمية يسكت سعدا وظل سعد في ثورته فقال لأمية :
— إليك عني . فإني سمعت محمدا — صلى الله عليه وسلم —
يزعم أنه قاتلك .
فنزل الرعب بقلب أمية بن خلف وقال وعيناه لا تثبتان على
شيء :

— إياي ؟ !

فقال سعد بن معاذ دون أن تختلج فيه خالحة :

— نعم .

— بمكة ؟

— لا أدري .

وصمت أبو جهل على مضض فهو يعرف أن تجارة قریش
إلى الشام لا بد أن تمر بالمدينة ، فإذا ناصب سعد بن معاذ العداء
فسيجر المتاعب على قومه . وسار أمية بن خلف إلى داره وهو شارد
حزين في وجهه قلق وفي قلبه فزع ، فلما رجع إلى امرأته قرأت

فى وجهه ما يعتمل فى صدره فقالت له :

— ما بك ؟

فقال فى صوت خافت مضطرب :

— ما تعلمين ما قال أخى اليربى ؟

— وما ذاك ؟

— زعم أنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى .

وطاف بالمرأة خوف شديد وقالت فى همس كان موقعه فى

نفس أمية أقسى من هزيم الرعود :

— فوالله ما يكذب محمد .

وجثم على الدار الرعب وراحت القلوب تنبض بالفرع .

سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في غير قريش . إنها العير التي خرج عليه السلام في طلبها حتى بلغ العشيرة ووجدها سبقتة بأيام ، فلم يزل يترقب قفولها حتى إذا ما جاءت الأنباء برجوعها دعا المسلمين للخروج وقال :

— هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن تنفلكموها .

فأجاب ناس واثقون بآخرون فظنهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يلق حربا ، ولم يحتفل لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل قال :

— من كان ظهره (أى ما يركبه) حاضرا فليركب معنا .

ولم ينتظر ما كان ظهره غائبا عنه .

ولما خرج - صلى الله عليه وسلم - إلى بدر قالت له أم ورقة بنت نوفل :

— يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك أمرض مرضاكم لعل الله يرزقني الشهادة .

— قرى في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة .

وراح أبو سفيان حين دنا بالعير من أرض الحجاز يتحسس

الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فقد لقي رجلا فأخبره أنه — صلى الله عليه وسلم — قد كان عرض لعيره في بدايته وأنه تركه مقبلا ينتظر رجوع العير . فخاف خوفا شديدا فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالا لياقي مكة ، فخرج ضمضم سريعا إلى مكة ليستنفر قريشا ويخبرهم أن محمدا قد عرض لعيرهم هو وأصحابه .

وكانت مكة غارقة في الصمت تطوف بها أحلام ، وكانت عاتكة بنت عبد المطلب غارقة في النوم فرأت عمة النبي رؤيا أفرعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له :

— يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أظفعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فآتم عني ما أحدثك .

فأقبل عليها العباس فقالت له :

— لن أحدثك حتى تعاهدني أن لا تذكرها فإنهم إن سمعوها آذونا وأسمعونا ما لا نحب .

فعاهدها العباس فقال لها :

— ما رأيت ؟

— رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا فانفروا يا لغمد لمصارعكم في ثلاث ؛ ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها . ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل أرفضت (تفتت) ، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلت منها فلقة .

— والله إن هذه لرؤيا ! وأنت فاكتمها ولا تذكرها لأحد .

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقا فذكرها له واستكنمه إياها . فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث .
نمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها .

فعدا العباس ليطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برويا عاتكة . فلما رآه أبو جهل قال :

— يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فاقبل إلينا .

فلما فرغ أقبل حتى جلس معهم فقال له أبو جهل :

— يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النية ؟

— وما ذاك ؟

— تلك الرويا التي رأت عاتكة .

— ما رأت ؟

— يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأ

نساؤكم ! لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث ،

فستربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقا ما تقول فسيكون ، وإن

تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا أنكم

أكذب أهل بيت في العرب .

ولم يستطع العباس أن يفعل شيئا إلا أن ينكر رؤيا عاتكة ،

ثم تفرقا . فلما جاء المساء وذاع في دور بني عبد المطلب ما كان

بين العباس وأبي جهل لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت

العباس فقالت :

— أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ثم قد تناول

النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عند غير لشيء مما سمعت .

فقال العباس وقد أطرق برأسه :
— قد والله فعلت ما كان منى إليه من كبير . وإيم الله لأتعرضن
له فإن عاد لألفين كسوته .

فغدا العباس في اليوم الثالث من رؤيا عائكة وهو حديد
مغضب يرى أنه قد فاته من أبي جهل أمر يجب أن يدركه منه ،
فدخل المسجد فرآه فمشى نحوه ليتعرضه ليعود لبعض ما قال فيقع
به ، وكان رجلا حقيقا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر ،
فيأذا به يخرج إلى باب المسجد يشتد فقال العباس في نفسه :
— ما له لعنه الله ! أكل هذا فرق منى أن أشاته !

وإذا هو قد سمع ما لم يسمع العباس : صوت ضمضم بن .
عمرو الغفاري وهو يضرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره ، قد
جدع بعيره (قطع أنفه) وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :
— يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة (الإبل التي تحمل البر
والطيب) ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه
لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث .
فشغل العباس عن أبي جهل وشغل أبا جهل عن العباس ما جاء
من الأمر .

فتجهز الناس سراعا وقالوا :
— أبطن محمد وأصحابه أن تكون كبير ابن الحضرمي . كلا
والله ليعلمن غير ذلك . فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث
مكانه رجلا . وخرجت قريش كلها للغزو فلم يتخلف من أشرافها
أحد إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلف وبعث مكانه العاصم
— الهجرة

بن هشام بن المغيرة ، كان قد لعب معه الميسر فخسر كل أمواله ثم لعب على حريته ففقدوها وسار عبدا لأبي لب بعد أن أبت بنو مخزوم أن تدفع أربعة آلاف درهم ثمنا لحرية ابنها الذي ساءت أخلاقه .

وراح أمية بن خلف يرتجف من الرأس إلى القدم ، فقد تذكر في تلك اللحظة ما كان بينه وبين سعد بن معاذ يوم أن قدم سعد إلى مكة معتمرا فنزل عليه ، وما كان بين سعد وأبي جهل من مشادة . وزاحت كلمات سعد بن معاذ ترن في أذنيه رهيبة لكأنما كانت تنمى إليه نفسه : « إليك عنى فأين سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك » .

وأراد أمية أن يطرد ذلك الوهم عن نفسه فانطلق إلى داره ليتجهز ، فإذا بامرأته تقول له :

— أما علمت ما قال أخوك اليثربي ؟ !

إنه يعلم ما قال سعد بن معاذ حق العلم وإنه ليكاد أن يموت من الخوف كلما دوى في أغواره صوت امرأته : « فوالله ما يكذب محمد » . فصمم على عدم الخروج فقال :

— فاني إذن لا أخرج .

وكان أمية شيخا جسيما ثقيلا فذهب إلى الكعبة وقد أراد القعود ، فجاءه أبو جهل يسأله أن يخرج مع الخارجين فاقسم بالله لا يخرج من مكة . فانطلق أبو جهل إلى عقبة بن أبي معيط ليسلطه عليه وكان عقبة سفيها ، فجاء إليه وهو جالس مع قومه بمجرة فيها نخور يحملها حتى وضعها بين يديه ثم قال :

— يا أبا على استجمر فإتما أنت من النساء .

فقال له أمية في غضب :

— قبحك الله وقبح ما جئت به .

ودنا أبو جهل منه وقال :

— يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد

أهل الوادى تخلفوا معك . فسر يوما أو يومين .

وانطلق عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وزمعة بن الأسود وحكيم

ابن حزام إلى هبل بجوف الكعبة يستقسمون بالأزلام . فخرج لهم

القدح الناهى المكتوب عليه « لا تفعل » فأجمعوا على المقام .

فجاءهم أبو جهل وأزعجهم وأعانه على ذلك عتبة بن أبي معيط

والنضر بن الحارث ، فما زالوا بهم حتى دفعوهم إلى الخروج وهم

كارهون .

وفى يومين فرغوا من جهازهم وعزموا على السير . وكانوا

ألفا وقادوا مائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة . وخرجوا

على الصعب والذلول وأميه بن خلف قد عزم على الرجوع بعد

مسيرة يومين أو ثلاثة فهو على يقين من أنه ما يساق إلا لمصارعه ،

وعقبه بن أبي معيط يحث السير يدفعه حقد الدفين على الإسراع

للقضاء على محمد وقد نسي أن محمدا عليه السلام قد أقسم أن يقتله

إذا ما التقى به خارج مكة يوم أن داس على رقبته حتى كادت عباد

أن تخرجا من محجريهما .

وخرجت معهم الفتيات يضربن الدفوف يغنين بهجاء المسلمين .

وعند خروجهم ذكروا ما كان بينهم وبين كنانة بن حرب . فإن ابنا

لحفص بن الأخيف القرشي خرج يبغى ضالة له بضيجنان. وهو غلام حدث في رأسه ذؤابة وعليه حلة وكان غلاما وضيئا نظيفا ، فسر بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوح الكناني وهو سيد بني بكر يومئذ فرآه فأعجبه فقال :

— من أنت يا غلام ؟

— أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشي .

فلما ولي الغلام قال عامر بن يزيد :

— يا بني بكر ما لكم في قریش من دم ؟

— بلى والله إن لنا فيهم لدماء .

— ما كان رجل ليقتل هذا الغلام برؤسجه إلا قد استوفى دمه .

فتبعه رجل من بني بكر فقتله بدم كان له في قریش . فتكلمت .

فيه قریش فقال عامر بن يزيد :

— يا معشر قریش قد كان لنا فيكم دماء فما شئتم . إن شئتم

فأدوا علينا ما لنا قبلكم ونؤدى ما لكم قبلنا . وإن شئتم فإنما هي

الدماء رجل برجل . فتجافوا عما لكم قبلنا ونتجافى عما لنا قبلكم .

— فهان ذلك الغلام على هذا الحى من قریش وقالوا :

— صدق ! رجل برجل .

فلهزوا عنه فلم يطلبوا به ، ولم يعجب ذلك الرضا أخاه مكرز .

ابن حفص . فبينما هو يسير يمر الظهران إذ نظر إلى عامر بن يزيد

على جمل له . فلما رآه أقبل إليه حتى أناخ به وعامر متوشح سيفه .

فعلاه مكرز بسيفه حتى قتله ثم خاض بطنه بسيفه ، ثم أتى بالسيف

مكة فعلقه من الليل بأستار الكعبة .

فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد معلقا بأستار الكعبة فعرفوه ؛ فقالوا :

— إن هذا لسيف عامر بن يزيد . عدا عليه مكرز بن حفص فقتله .

تذكرت قريش كل ذلك بعد أن تجهزت للخروج لقتال محمد وصحبه : فخافوا غدر كنانة فقالوا :

— إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا .

وراح الذين يريدون عدم الخروج يحاولون أن يثنوا القوم عن عزمهم ، وغدا بعضهم ينشد الأشعار التي قالها مكرز في قتله عامرا :

لما رأيت أنه هو عامر تذكرت أشلاء الحبيب الملهَّب (١)
وقلت لنفسى : إنه هو عامر فلا ترهبه وانظري أى مركب
وأيقنت أنى إن أجله ضربة متى ما أصبه بالفرافر يعطب
خففت له جائشى وألقيت كلكى على بطل شاكى السلاح مجرب
ولم ألك لما التف زوعى وروعه عصارة هجن (٢) من نساء ولا أب
حللت به وترى ولم أنس دخله (٣) إذ تناسى دخله كل غيَّههب (٤)
وكاد الذين لا يريدون الخروج أن يثنوا المتحمسين عن المسير
لولا أن شياطين قريش نجحوا فى أن يأتوا بسيد من سادات كنانة
ليقول لقريش :

— أنا لكم جار من أن تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .
وراح يعدهم أن بنى كنانة وراءهم قد أقبلوا لنصرهم وقال :

(١) الملحب : الذى ذهب لحمه . (٢) هجن : كرام
(٣) اللخل : النار . (٤) الذى لا قتل له .

— لا غالب لكم اليوم من الناس .
وخرجت قريش في عدتها وغرورها وهي واثقة من القبضاء
على محمد عليه السلام ، وأصحابه من المهاجرين والأنصار ؛ ولو
رفعت أسجاف الغيب وألقوا أسماعهم إلى صوت قدر الله لسمعوا
النذير يقول في وضوح :
— يا قوم والله ما تساقون إلا لمصارعكم .

تذييل

لم يكثر المحدثون في حديث كما فعلوا في حديث الإسراء ، ولم يتركوا الأعنة لأخيلتهم في حديث آخر مثلاً أطلقوها في هذا الحديث . فرحلة السماء قد استهوت أهل الأرض وحركت الخيال ليتصور ما يشاء من الأعاجيب ، ولما كان علم ذلك الزمان محدوداً بين الكون والفضاء والسموات العلى ، فلم تستطع علومهم أن تمد أخيلتهم إلا ببعض ما لمسوه في حياتهم وما تمتته عقولهم التي كانت ترى أن النعيم أنهار وظل ظليل ، وأن وسيلة الانتقال بين الأرض والسماء لا يمكن أن تكون غير دابة فوق الحمار ودون البغل تسير بسرعة البرق ، وقد عبروا عنها بالبراق يضع حوافره عند منتهى طرفه . ولم يستطيعوا أن يتصوروا السموات غير تصورهم للأرض فجعلوها لها أبواباً تدق . ولما كانوا في الغالب تجاراً فقد جعلوا لله سبحانه وتعالى بعض صفة التجار يقبل الفصال في فريضة قد فرضها قالوا : إن الله جل شأنه قد فرض على المسلمين خمسين صلاة كل يوم ، وإن موسى عليه السلام قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني أخبرتك الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك : فرجع الرسول عليه السلام فوضع الله عنه عشرة . فارجع إلى موسى فنصحه أن يرجع إلى ربه يسأله التخفيف فوضع الله عنه عشرة . وظل

يغندو ويروح بين ربه وبين موسى حتى أمر بخمسة صلوات كل يوم ثوابها خمسين . فقال له موسى : إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم ، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فقال محمد — صلى الله عليه وسلم : سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم . فنفذت فنادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي .

وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين وعبد الله ابن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة ابن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين . منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره . وإن الفاحص لهذه الأحاديث يجد في يسر أن هناك حقيقة أضيفت إليها إضافات كثيرة بعضها ذكي وبعضها منكر وغريب ، فالحقيقة قد جاءت في القرآن واضحة لا لبس فيها : « سبحان الذي أصرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير (١) » ، « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة

فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب القواد ما رأى : أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى : عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (١) . وحول هذه الحقيقة نسجت روايات وأقاصيص تزعم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد رواها . وقبل أن أناقش ما جاء في أحاديث الإسراء سأحاول على قدر الإمكان أن أسرد الحديث في تتابع ، وأن أدخل أحاديث الرواة بعضهم في بعض وأن أسقط الخلافات الطفيفة .

قيل إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال بعد أن قص قصة شق صدره ثم غسله بماء زمزم : ثم صب الحكمة من بطن من ذهب في قلبه :

— بينما أنا نائم في الحجر جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فهمزني بقدمه . فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجعي . فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا ، فعدت لمضجعي . فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا فأخذ بعضدى فقممت معه ، فخرج بي إلى باب المسجد فأتيت بالبراق وهو دابة ، أبيض فوق الحمار ودون البغل ، مضطرب (طويل) الأذنين وكان مسرجا ملجأ . يضع حافره عند منتهى طرفه . فلما دبوت منه استصعب ومنع ظهره أن يركب فقال جبريل :

— اسكن ، فإركبك أحد أكرم على الله من محمد .
فركبته ثم سرت وجبريل لا يفارقني ، فإذا بعجوز على
جانب الطريق فقلت :

— ما هذه يا جبريل ؟

قال :

— سر يا محمد .

فسرت ما شاء الله أن أسير ، فإذا شيء يدعوني متنجيا عن
الطريق فقال :

— هلم يا محمد .

فقال لي جبريل :

— سر يا محمد .

فسرت ما شاء الله أن أسير ، فلقيني خلق من خلق الله فقالوا :
— السلام عليك يا أوله ، السلام عليك يا آخره ، السلام عليك
يا حاشر .

فقال لي جبريل :

— اردد السلام يا محمد .

ثم انتهيت إلى بيت المقدس فأوثقته (البراق) بالحلقة التي
يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت به ركعتين ، ثم قال لي
جبريل :

— أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا
إلا كما بقي من عمر تلك العجوز . أما الذي أراد أن تميل إليه فذاك
عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه ، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم

وموسى وعيسى عليهم السلام .

واستويينا فى صرحة المسجد فقال جبريل :

— يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟

فقلت :

— نعم .

فقال :

— فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن *

وكن جلوسا عن يسار الصخرة فأتيتهن فسلمت عليهن ،

فرددن على السلام فقلت :

— من أنتن ؟

فقلن :

— نحن خيرات حسان ، نساء قوم أبرار فلم يدرنوا ،

وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا .

ثم أتانى جبريل عليه السلام باناءين أحدهما خمر والآخر لبن ،

فشربت اللبن وأبیت الخمر فقال جبريل :

— أصببت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير . ثم

أذن مؤذن وأقيمت الصلاة فقمنا صفوفنا ننظر من يؤمننا ، فأخذ

يبدى جبريل عليه السلام فقدمنى فصليت بهم ، فلما انصرفت قال

جبريل :

— يا محمد أتدرى من صلى تحلفك ؟

قلت :

— لا .

قال :

— صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل .

ثم أتيت بالمعراج الذي كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء ، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج . أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا إلى السماء فإنما يشق بصره طامحا إلى السماء عجبه بالمعراج ؟ فصعدت أنا وجبريل فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك . فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل :

— من هذا ؟

قال :

— جبريل .

قيل :

— ومن معك ؟

قال :

— محمد .

قيل :

— أوقد بعث إليه ؟

قال :

— نعم .

فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول :

— روح طيبة ونفس طيبة ، اجعلوها في عليين .

ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول :

— روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين .

فمضبت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها

أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنثن عندها

أناس يأكلون منها . قلت :

— يا جبريل ، من هؤلاء ؟

قال :

— هؤلاء من أمتك يأكلون الحرام ويتركون الحلال .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافروهم كمشافر الإبل فتفتح

أفواههم فيلقمون من ذلك الحسر ثم يخرج من أسافلهم . فسمعتهم

يضجون إلى الله عز وجل فقلت :

— من هؤلاء يا جبريل ؟

قال :

— هؤلاء من أمتك « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما

يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (١) .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بنساء تعلقن بثديهن فسمعتن يضججن

إلى الله عز وجل فقلت :

— يا جبريل من هؤلاء النساء ؟

قال :

— هؤلاء اللاتي يزنيْن ويقتلن أولادهن .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بضونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر . فيقول اللهم لا تقم الساعة . وهم على سابلة آل فرعون فتجىء السابلة فتطوهم . فسمعتهم يضجون إلى الله فقلت :
— يا جبريل من هؤلاء ؟

قال :

— هؤلاء من أمتك « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (١) .
ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقونه . فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت :
— يا جبريل من هؤلاء ؟

قال :

— هؤلاء الهامزون من أمتك اللمازون .
ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله عز وجل قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب . قلت :
— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه .
فسلمت عليه فرد على . ثم صعدنا إلى السماء الثالثة واستفتح فإذا أنا بيجي وعيسى عليهما السلام ومعهما نفر من قومهما فسلمت عليهما وسلا على . ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا

بادريس قد رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه وسلم علي . ثم صعدنا إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سرته من طولها قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا المحجب في قومه . هذا هارون بن عمران ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم علي . ثم صعدت إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى بن عمران رجل آدم (١) كثير الشعر لو كان عليه قميص لنفذ شعره دون القميص ، فإذا هو يقول : يزعم الناس أنه أكرم على الله من هذا ، بل هذا أكرم على الله مني . قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ومعه نفر من

قومه ؟

فسلمت عليه وسلم علي . ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كاحسن الرجال ، قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا أبوك إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ومعه نفر من

قومه :

(١) الرجل الآدمي : الأسمر .

فسلمت عليه فسلم على . وإذا أنا بأمتي شطرين : شطر عليهم
ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد .
فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض
وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد وهم على خير ،
فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور ، ثم خرجت أنا ومن معي .
والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا
يعودون إليه إلى يوم القيامة . ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا كل
ورقة منها تكاد تغطي هذه الأمة ، وإذا فيها عن تجرى يقال لها
سلسبيل ، فينشق منها نهران أحدهما الكوثر والآخر يقال له نهر
الرحمة . فاعتسلت فيه فغفر لى ما تقدم من ذنبي وما تأخر .
ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتني جارية قلت :
— لمن أنت يا جارية ؟
قالت :

— لزيد بن حارثة .

وإذا بأُنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه
وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى : وإذا رمانها
كالدلاء عظا . وإذا بطيرها كأنها نختم (١) هذه .
إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم عرجت على النار فإذا فيها
غضب الله وزجره ونقمته . ولو طرحت فيها الحجارة والحديد
لأكلتها . ثم أغلقت دونى . ثم إنى رفعت إلى سدرة المنتهى فتفشأنى

خكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى . وفرضت على خمسون صلاة وقال :

— لك بكل حسنة عشر ، فإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة ، فإذا عملتها كتبت لك عشرا . وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء ، فإن عملتها كتبت عليك سيئة واحدة . ثم رجعت إلى موسى فقال :

— بم أمرك ربك ؟

فقلت :

— بخمسين صلاة .

قال :

— ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، ومتى لا تطيقه تكفر .

فرجعت إلى ربي فقلت :

— يا رب خفف عن أمتي فإنها أضعف الأمم .

فوضع عني عشرا وجعلها أربعين ، فما زلت أختلف بين موسى وربي كلما أتيت عليه قال لي مثل مقالته حتى رجعت إليه ، فقال لي :

— بم أمرت ؟

فقلت :

— أمرت بعشر صلوات .

قال :

— ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

(الهجرة).

فرجعت إلى ربي فقلت :

— أى ربي خفف عن أمتي فإنها أضعف الأمم .

فوضع عني خمسا وجعلها خمسا ، فنادى ملك عندها :

تمت فريضتي وخففت عن عبادي وأعطيتهم بكل حسنة عشرًا
من أمثالها .

ثم رجعت إلى موسى فقال :

— بم أمرت ؟

فقلت :

— بخمس صلوات .

قال :

— ارجع إلى ربك فإنه لا يؤوده شيء ، فاسأله التخفيف

لأمتك .

فقلت :

— رجعت إلى ربي حتى استحييت .

واجتمع بالأنبياء مرة أخرى في بيت المقدس وصلى بهم فيه .

ثم إنه ركب البراق وكر راجعا إلى مكة .

وقيل إن الرسول عليه السلام : « لما كان ليلة أسرى بي

فأصبحت بمكة ، فظلت وعرفت أن الناس مكذبني » . فقعد

معزلا حزينا فمر به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال كالمستهزئ :

— هل كان من شيء ؟

— نعم .

— وما هو ؟

— إني أسرى في الليلة .

— إلى أين ؟

— إلى بيت المقدس .

— ثم أصبحت بين ظهرائنا ؟

— نعم .

فقال أبو جهل :

— يا معشر بني كعب بن لؤى .

فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال :

— حدث قومك بما حدثتني .

وحدثهم عليه السلام بحديث الإسراء . وقيل إن الرسول عليه

السلام قال لما قالوا له :

— وتستطيع أن تنعت لنا المسجد .

— فما زلت أنعته حتى التمس على بعض النعت . فجىء بالمسجد

وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه .

فقال القوم :

— أما النعت فوالله لقد أصاب فيه .

وقيل إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : فأخبرتهم

بغير لقريش لما كنت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا وأنها

نفرت . فلما رجعت وجدتها عند العقبة وأخبرتهم بكل رجل وبغيره ،

كذا وكذا ومتاعه كذا وكذا » .

وقال أبو ذر : سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هل

رأيت ربك ؟ قال : « نور إني أراه » .

هذه خلاصة أحاديث الإسراء صحيحها وحسنها وضعيفها ، وقد جمع الذهبي أحاديث الإسراء في جزأين . وقبل أن أناقش هذه الأحاديث سأثبت ما قاله ابن كثير في تفسير القرآن العظيم قال :-

« وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسرآت متعددة ، فقد أبعد وأغرب (١) . وهرب إلى غير مهرب . ولم يتحصل على مطلب .

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط . ومرة من مكة إلى السماء فقط . ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء . وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات . وهذا بعيد جدا ولم ينقل هذا عن أحد من السلف . ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي — صلى الله عليه وسلم — به أمته ولنقله الناس على التعدد والتكرار . قال موسى بن عقبة الزهرى : « كان الإسراء قبل الهجرة

(١) قال عبد الوهاب الشعراني انه أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم أكثر من ثلاثين مرة بعدد أحاديث الإسراء ، فقد جعل من كل رواية خالفت الأخرى مرة .

بسنة » ، وكذا قال عروة وقال السدى : « ستة عشر شهرا -
والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت
المقدس راكبا البراق . فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند
الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج
وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد إلى السماء الدنيا . ثم إلى بقية
السموات السبع فتلقاه في كل سماء مقرَّبوها : وسلم على الأنبياء
الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتها حتى مر بموسى الكليم
في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة . ثم جاوز منزلتيهما
صلى الله وسلم عليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى
يسمع فيه صريف الأقلام أى أقلام القدر بما هو كائن . ورأى
سدرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش
من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة . ورأى هناك جبريل
على صورته وله ستائة جناح . ورأى رفرفا أخضر قد سد الأفق ،
ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسندا
ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية . يدخله كل يوم سبعون ألفا من
الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ورأى
الحنة والنار وفرض الله عليه هناك الصلوات الخمسين ثم خففها إلى
خمس رحمة منه ولطفا بعباده . وفي هذا اعتناء عظيم بشرف
ال صلاة وعظمتها .

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه
لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الضبح من يومئذ . ومن الناس
من يزعم أنه أمهم في السماء . والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت

المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا وهو يخبره بهم وهذا هو اللائق لأنه كان أولا مطلوباً إلى الحجاب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى . ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتماع به هو وإخوانه من النبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقدمه في الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام . له في ذلك .

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم . وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والتمر أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم ، والله أعلم .

ثم اختلف الناس هل كان الإسراء بيدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط على قولين : فالأكثر من العلماء على أنه أسرى بيدنه وروحه يقظة لا مناما ، ولا ينكرون أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى قبل ذلك مناما ثم رآه بعده يقظة لأنه عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . والدليل على هذا قوله تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » (١) . فالتسريح إنما يكون عند الأمور العظام . فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظما ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ولما ارتدت جماعة ممن

كان قد أسلم . وأيضا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد :
وقد قال « أسرى بعبد ليلا » : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك
إلا فتنة للناس » (١) . قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — ليلة أسرى به . وقال تعالى : « ما زاغ
البصر وما طغى » (٢) . والبصر من آلات الذات لا الروح .
وأیضا فإن يحمل على البراق وإنما يكون هذا للبدن لا الروح لأنها
لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه . (انتهى كلام ابن
كثير) .

وجد القصاص في الإسراء مادة خصبة لقصصهم فجزوا وراء
شطحات الخيال ورووا مناكير وغرائب لا تثبت للنقد . وإن
المدقق في هذه الأحاديث التي نسبت ظلما إلى الرسول صلوات الله
وسلامه عليه يرى بصمات أصابع اليهود الذين أسلموا أو الذين
تظاهروا بالإسلام والكذابين من الرواة الذين يستهويهم كل غريب .
أو الذين ينقلون عن التوراة والإنجيل بحسن نية خاسبين أن ذلك
النقل يخدم الإسلام . وما كانت أساطير الأولين تخدم الأديان .
زعموا أن الرسول عليه السلام قال : « فإذا أنا بآدم كنهنته
يوم خلقه الله عز وجل على صورته . » فمن ذا الذي يصدق من
المسلمين أن الرسول العظيم الذي نزه الله سبحانه وتعالى عن التشبيه
يقول مثل هذا الزعم ؟ إن القول بأن الله خلق آدم على صورته
لم يقل به الإسلام بل جاء هذا الزعم في التوراة التي كتبت في بابل
بعد أن حرق مختصر كل نسخ التوراة !

وقالوا : إن الله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين خمسين صلاة وأن موسى عليه السلام كان يقول له : ارجع إلى ربك خاسئاً له التخفيف لأمتك . فما زال محمد عليه السلام يختلف بين موسى وربّه حتى جعلها الله خمسا وأعطى بكل حسنة عشرة من أمثالها . فلماذا موسى عليه السلام بالذات ، أما كان إبراهيم الخليل أبو الأنبياء جميعا ، إبراهيم الذى وفى أولى بذلك ؟ لو أن ذلك الزعم قد حصل ، أو يمكن أن يتصور ذو لب رشيد أن مثل ذلك الحوار الذى لا يمكن أن يقوم إلا بين تجار مشاكسين يدور بين رب العزة وبين رسوله ؟ !

والآية الكبرى على أن اليهود الذين أسلموا والذين كانوا ينقلون من التوراة والإنجيل بحسن نية أو بسوء قصد قد وضعوا أحاديث الإسرائ أو عبثوا بها . أنهم اقتضوا فى كل ما قالوا آثار رؤيا يوحنا اللاهوتى التى جاءت فى آخر الأناجيل . وسأنتقل لك بعض فقرات منها لترى أن التبّع واحد وأن واضعى أحاديث الإسرائ وإن رفعوها إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قد كذبوا على الرسول عليه السلام . ورووا مناكير وغرائب وأكاذيب . جاء فى الإصحاح الرابع من رؤيا يوحنا اللاهوتى : « بعد هذا نظرت إذا باب مفتوح فى السماء والصوت الأول الذى سمعته كبقوق يتكلم معى قائلا :

— اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا . وللوقت سرت فى الروح . وإذا عرش موضوع فى السماء وعلى العرش جالس . وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس

قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد . وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً ، ورأيت على العرش أربعة وعشرين شيخاً جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب . ومن العرش يخرج بروق ورجود وأصوات . وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة أرواح الله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور . وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء . والحيوان الأول شبه أسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر . والأربعة الحيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها من داخلها مملوءة عيوناً ولا تزال نهاراً وليلاً قائلة : قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شيء . الذى كان والكائن والذى يأتى . وحينما تعطى الحيوانات مجداً وكرامة وشكراً للجالس على العرش الحى إلى أبد الآبدين . يخرج الأربعة والعشرون شيخاً قدام الجالس على العرش ويسجدون للحى إلى أبد الآبدين . ويطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين : أنت مستحق أيتها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة . لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهى بإرادتك كائنة وخلقته .

كان قصاص أحاديث الإسرائىل روى على منج رؤيا يوحنا اللاهوتى . وكانوا يحاولون أن يجسدوا بعض آيات القرآن بأحداث تجرى فى السماء فصوروا الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً فى صورة بشعة واستشهدوا بأية « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون

سعيًا « (١) . ولم يزعجهم في قليل ولا كثير أن هذه الآية لم تنزل إلا في المدينة بعد الإسراء بسنين !
وصوروا الذين يأكلون الربا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر . وجعلوا جبريل عليه السلام يتلو : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » (٢) . كأنما جبريل لا يعلم أن هذه الآية لم تكن قد نزلت بعد وأنها ستنزل في المدينة بعد الإسراء بسنين !

قد يقول قائل ممن يستهويهم الحذل : إن جبريل كان على علم بأهم الكتاب فقال ما قال قبل أن تنزل هذه الآيات على الرسول عليه السلام . والرد بسيط : فلو أنه قالها حقًا لكانت مكة لا مدنية . ولوجب على الرسول صلوات الله وسلامه عليه تلاوتها على المؤمنين ، وما حدث شيء من هذا ولا قال به قائل حتى الذين يفترون على الله الكذب .

ولم يعرف هؤلاء الرواة من أنهار الدنيا غير النيل والفرات ، وكذلك كان حال يوحنا اللاهوتي . أما من أنهار الآخرة فلم يذكروا إلا الكوثر وقد أخذوا ذلك عن القرآن .

وتصوروا أن للسماء أبوابًا كما تصور يوحنا اللاهوتي . وقالوا إن المعراج كالسلم له درج يصعد فيها . وقد أخذوا هذه الفكرة عن حلم يعقوب في التوراة فقد رأى في الحلم أنه يصعد إلى السماء في سلم . وأن الملائكة تهبط من السماء في ذلك السلم . وقد أتعبنهم

(١) النساء ١٠

(٢) البقرة ٢٧٦

فأتبعوا الذين جاءوا من بعدهم أنهم كانوا يحاولون أن يصوروا أشياء غير حسية بخواسهم البشرية القاصرة عن إدراك حقائق الكون وبقليل مما اكتسبوا من العلم . فلو عرفوا أن المادة الصلبة مجرد كهارب في رتبة اهتزاز معينة لما خدعتهم حقيقة المادة الصلبة التي تشبثوا بها في الإسراء على البراق والمعراج على السلم . لأمكنهم أن يتصوروا إمكان الإسراء بلا مطية والصعود إلى السماء بلا سلام .

إن آية الإسراء لم تذكر أنه كان شمولاً على شيء . إنه كان يسبح في الفضاء بقدرته الله التي لا تحد بعد أن أصبح حقيقة كونية في غير حالتها الأرضية الناقصة . فإن كان قد قيل إنه ركب البراق فقد يكون المقصود البرق أو أية قوة كهربية . ولا يمكن - حالة إسراء الله بعده أن تجري أحكام الحواس ولا أحكام المادة .

وقيل في حكمة ركوب البراق مع أن الله قادر على أن يطوى الأرض له طياً : إن ذلك كان تأنيساً له بالعادة في مقام خرق العادة ، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركب سني يحمل إليه في وفادته إليه ، فعامله الله تعالى بذلك تأنيساً له وتعظيماً .

وأقول أين استقبال ملوك الأرض للوافدين عليهم من استقبال ملك الملوك لرسوله ؟ فإذا كان ملوك الأرض يعيشون بعثات الشرف لاستقبال زائريهم وطائرات لتحيتهم في الجو ، أفيبعث الملك الجبار تأنيساً لرسوله وتعظيماً دابة فوق الحمار ودون البغل ؟ وإذا أراد أن يعرج به إلى السماء ليريه من آياته الكبرى أيقم له سلماً يصعد فيه ، ومن حولنا ٣٠٠ بليون سلم تحيط ببناء من كل جانب هي الذبذبات

التي أصبحت معروفة في الطبيعة (١) ؟ ! .

وقد أظهر المنكرون للإسراء دهشتهم من ذهاب الرسول عليه السلام إلى بيت المقدس وعودته إلى مكة في ليلة واحدة . وهنا نقف قليلا لنسأل : ما الزمن ؟ إننا إذا تخلصنا من هذه الأرض المادية واحتللتنا مكانا مستقلا لا يربطنا بجاذبيتها ولا بقوانينها سوف لا نشعر بالزمن الذي تعودنا عليه ، ولا يصبح للعمر أو للقضاء لدينا أى معنى . إننا عندئذ لا نعرف سوى — اللازم — أى الخلود — لا ماض ولا مستقبل ولكن الحاضر وحده هو الذى نعيش فيه (٢) . ويقول أينشتين واضع نظرية النسبية : إنه ليس للزمن من حقيقة قائمة بذاتها وأنه من خواص المادة . وإن المستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالماضى . فى كل لحظة نحن نقتطع من المستقبل جزءا نضمه إلى الماضى فلا ينقص هذا ولا يزيد ذلك لأن كلا منهما لا نهائى وإن المستقبل يلتف على شكل دائرة وبذا يدخل فى الماضى إذ الدائرة علامة أبدية .

وبحسب نظرية النسبية تكون الظواهر التى تمر بنا بسرعة الضوء هى تلك التى اعتدنا أن نسميها إشعاعا أما الأحداث المجسمة التى تسير ببطء شديد فقد اعتدنا أن نسميها مادة . أو بحسب تعبير أينشتين أن المادة هى عقل أو فراغ أو فضاء نقصت سرعته عن السرعة الطبيعية للضوء وهى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . ولو أن هذه المادة عادة تتذبذب بسرعة الضوء لاختفت ولم تعد تدركها حواسنا .

(١) الإنسان روح لا جسد . للدكتور رءوف مبيد .

(٢) أسرار الكون . نقله الى العربية الدكتور سيد رمضان عدارة .

فنحن إذا أمسكنا في يدنا بقطعة من الحديد شعرنا بصلابتها ولكنها في الواقع ليست صلبة . وكل ما حدث هو أن حاسة اللمس قد تأثرت باهتزاز الألكترونات فشعرنا بصلابتها كما نشعر بنفس الكيفية بحرارتها أو ببرودتها . فتنقل حواسنا أو عقولنا صورة الحديد وحرارته أو برودته . ونفس القول يصدق على جميع عناصر العالم الذي نعيش فيه والذي يبدو لنا صلبا ولا هو بصلب ولا مادي . ولذا يتساءل المرحوم الدكتور مشرفة وهو بصدد شرح نظرية النسبية : كيف تبدو الأشياء لراصد يسير بسرعة الضوء ؟ ويجب بأن الإشعاع الذي يصاحب هذا الراصد جنبا إلى جنب يبدو له مادة صلبة . أما الأشياء المادية التي تمر به بسرعة الضوء فتكون إشعاعا . فما رأى السادة الماديين الذين يحترمون حواسهم في هذه الحقائق العلمية التي أثبتتها المعادلات الرياضية ؟ ويا ترى ما رأى القصاص الذين رَووا أن الرسول عليه السلام في صعوده إلى بيت المقدس وفي عودته إلى مكة رأى قوافل قريش . ولم يكتفوا بذلك بل جعلوه يشرب من إناء كان على ظهر بعير في قافلة ، في هذه الحقائق المذهلة التي يحتويها الكون الذي خلقه بديع السماوات والأرض ؟

ولو كان القصاص الذين رَووا أحاديث الإسراء روايات مادية كل أدواتها دابة فوق الحمار . ودون البغل وشجرة نبق وذهب ولؤلؤ ومرجان وياقوت ورفرف أخضر وأجنحة ملائكية وعسل وخمر ولبن يعرفون أنه إذا انطلق شعاع ضوئي في الفضاء بسرعيته العادية وهي ١٨٦.٠٠٠ ميل في الثانية تقريبا فإنه يسير في دائرة

كونية ويعود إلى مكانه الأصلي بعد زمن يزيد قليلا على مائتي مليون سنة ضوئية (١) . أما كانوا ينجلون من تصوير آيات الله الكبرى بشجرة أوراقها كآذان القيلة أو الورقة منها تظل الخلق أو تكاد الورقة منها تغطي هذه الأمة . وإذا ثمارها كالقلال أو بقباب اللؤلؤ أو بتراب المسك ؟ !

ولم يجهد القصاص أنفسهم قليلا لما رووا أحاديث الإسراء ولم يستحوا من الله ورسوله فقالوا على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم : ثم أتيت بالمعراج الذي كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء فصعدت أنا وجبريل . فاستفتح جبريل باب السماء . قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل أوقد بعث ؟ قال نعم . فلو صدقنا أن للسماء بابا وأن جبريل قد دقه وأن الملائكة قالت من هذا ؟ وأنها لم تعرف الطارق ولم تعرف الضيف الكريم الذي وفد عليهم من الأرض . أيمكن أن نصدق أن الملائكة أو خزنة الجنة أو خزنة النار لم تكن تعرف أن النبي عليه السلام قد بعث ؟ إن أهل الأرض قد سمعوا برسالته وإن نفرا من الجن قد آمنوا به . أو نصدق أن ملائكة الله لم يدروا بمبعثه ؟ ! لو صدقنا القصاص في هذا لوجب علينا أن نلغى عقولنا أو نستخف بالملائكة ونرميهم بالجهل والغفلة !

ومن جرأة القصاص على الله تطوعهم لوصف سدرة المنتهى . فقالوا إنها شجرة يخرج منها الفيل والفراة والكوش وسيحان

(١) العالم واينشتاين : تأليف لينكولن باوت ترجمة الأستاذ محمد عاتق

وجيحان . أوراقها مثل آذان الفيول . وأن الورقة الواحدة لو ظهرت لغطت هذه الدنيا . وإذا ثمرها كالقلال (الواحدة تسع قربتين ونصف) . وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وأنوار متعددة وألوان متعددة وغشيتها الملائكة . مع أن سدرة المنتهى هي « سدرانا مولتانا » النجم الأخير في المجموعة الكونية . وقد غشيه نور ربه . فليس في الكون حقيقة ثابتة إلا النور (١) : « الله نور السماوات والأرض » . « وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب . . » .

وقد قال صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى :

« إن الناس اليوم يقدسون عقولهم ويسرون وراء ما يملئهم علمهم القاصر ونظرهم الضعيف . وكل من سار وراء عقله ووزن كل ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام بميزان فكره قلما يؤمن إيماناً صحيحاً . فإذا راقك من العقل ما يشقى به في بعض الأحيان . لم يلبث أن يسوءك منه ما يهذى به في وقت آخر . ولا غرو فالجهل حليف الإنسان . والضعف لازم من لوازم البشرية . وقصور العلوم من صفاتها الذاتية وأغراضها اللازمة . وكل من لم يصدق إلا بما وصل إليه عقله وبلغته حدود علمه ليس مؤمناً بالرسول على الحقيقة . وإنما هو مؤمن بعقله .

وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا بما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه العقول التي لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات وما تنزعه منها من المعقولات الثابتة .. مما هو راجع إليها ومتوقف عليها .

وتصورات الله لا نهاية لها وعوالمه لا حد لها ولكل عالم قانون ينحصر به .
فمن الخطأ البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر ،
وإذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش إلا في الماء ،
ومن بعضها ما لو مكث في البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله
« ثاني أوكسيد الكربون » كالإنسان . ومنها ما يقتله « الأوكسوجين » .
ككثير من الحيوانات الدنيا . لعلنا كنا لا نصدق ذلك قياسا على
أنفسنا لولا مشاهدتنا إياه . فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر
من العوالم التي تحس والتي لا تحس ؟

وإنى لأعجب لهم كيف يتعجبون ويحكمون في كل الأشياء .
بالأحكام الجازمة . اعتمادا على بضع قوانين وصلوا إلى ظواهرها
من قوانين هذا الكون التي لا يحصيها إلا الله . ولا يدرى كنهها
غير مبدعها الذي لا حد لقدرته ولا نهاية لعلمه ؟
وليت شعري بعد ذلك كله . أى عقل نحكمه فيما ورد عن
الشارع ؟ أهل عقل الأفراد أم عقل الجائعات ؟ وما هو المضابط
إذا اختلفت العقول وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت
بين أفرادها مثل نوع الإنسان الذي هو مظهر المتناقضات ومجمع
العجائب والغرائب ؟ وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله :
« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (١) » . ويقول في حق الإنسان :
« إنه كان ظلوما جهولا (٢) » .

وإننا لنرى في تخطيطه وتناقضه وارتباكته في أحواله واضطرابه
في أعماله الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز

والقصور . فعلام تلك الكبرياء وهو من الضعف بحيث يرثى له ويشفق عليه .

لا يستند هؤلاء المنكرون إلا إلى الاستبعاد العقلى وقياس الغائب على الشاهد وإرجاع ما لم يعلموا إلى ما علموا . والجاهل لا يعرف قدر نفسه ولا قدر العلم . ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه فى دائرة العدم : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله » (١) .

ومن الغريب الذى يؤسف له أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد الوصول إلى القمر ويفكر فى إعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم ساكن . بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : إن العلم يلد العجائب والاكتشاف يأتى بالغرائب . ولكنهم إذا سمعوا أن الرسول عرج به إلى السماء قامت قيامتهم وهدرت شقاقتهم وظهر كل ما فى نفوسهم الضعيفة من خبث وإلحاد .

وسنتكلم معهم بما خضعون له إذا سمعوه من ساداتهم الأوربيين الذين لم يعلموا علمهم ولا أحسنوا محاسنهم .

أما الكلام فى الجهة الثقيلة فأظنه لا يعنيه كثير ولا يقنعهم كثيرا أو قليلا . ومع هذا فسنقول فيه كلمة موجزة من أجل الطريق الثانى الذى ينتسب إلى العلم ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة . ولكنه يؤول ويخرف اغترارا ببعض الروايات وإجابة لزعمة عنده وعقيدة لديه لا تعد كثيرا عن عقيدة ماديين . وإن كان مذهبها بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فنقول :

إن من قال : إن الإسراء بالروح تمسك ببعض روايات

مطعون فيها كرواية عائشة رضي الله عنها التي رواها الحفاظ وقالوا : إنها غير صحيحة من وجوه عدة ، لا تطيل بها الكلام ، وكرواية شريك بن أبي نمر التي طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه . وليس غرضنا إلا أن نشير إلى ذلك إشارة خفيفة يعرفها ذلك الفريق من الشيوخ المتفقيهن . والعالم كل العالم من لا يتأثر بكل ما رآه أو يهوش بكل ما روى . بل العالم كل العالم من يعرف المقبول والمردود والصحيح والضعيف ويجمع بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع ويرجح الراجح ويسقط المرجوح إذا تعذر التوفيق . ولا أدري كيف يقبل الذوق السليم أن الإسراء كان بالروح بعد قول الله تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لئريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » (١) .

فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت بسبحان المقر باستعظام ما كان من الأمر والتعجب منه لحلاله . وذلك اللفظ لا يصبح موقعه ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم إلا إذا كان الأمر غير معهود ولا مقدور لأحد من البشر .

ولو كان الإسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجب . إذ لا خطورة في إراءة النبي عليه الصلاة والسلام آيات ربه في نومه . فإن هذا أمر يقع لكل أحد . بل يرى الإنسان في نومه رب العزة الذي هو أكبر من كل شيء . وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجب لو قلنا : إن ذلك الإسراء

كان بالجدد والروح كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .
ثم تراه يقول « أسرى » وهو لا يقال فى النوم كما قال القاضى
« عياض » لأن ما يقع فى النوم إنما هو تخيل وضرب مثل لا غير .
ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به . وإنما يحسن ذلك إذا
أسرى به ليلا إسرائ حسيا على ما هو معهود ومعروف .
ثم يقول « بعبده » وهو نص قاطع فى الموضوع . لأن العبد
لا يطلق فيما تعرفه العرب إلا على الشخص المكون من الروح
والجسد . ولم يعهد فى لغة العرب إطلاقه على الروح فقط . فهم
لا يعرفون من العبد إلا الشخص المحسوس المنظور كما فى قوله
تعالى : « أرايت الذى ينهى عبدا إذا صلى » (١) . وقوله :
« وأنه لما قام عبد الله يدعوه » (٢) إلى غير ذلك .
ثم يقول « لنريه من آياتنا » . ويقول فى سورة النجم :
« أفما نرونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى .
عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر
وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (٣) .
ولا شك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمة تدل
على أن النبى عليه الصلاة والسلام أسرى به إلى بيت المقدس وأنه
عرج به إلى السماوات العلا بجسمه وروحه . وأنه رأى جبريل
عند سدرة المنتهى . وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .
وإني أستحلفك بعلمك وذوقك وإنصافك أن تنظر معى إلى

(٢) الجن ١٩

(١) انرا ١٠ ، ٩

(٣) النجم ١٢ - ١٨

قوله : « أفتمارونه على ما يرى » ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى ؟
أفيسهل عليك أن تسلم أن المرء والجدل كانا فى رؤيا منامية ؟ وهل
يكون فى رؤيا الروح وحدها فى النوم جحود ومجادلة ؟ وهل
لذلك وقع عند القائل والسامع حتى تذكر فيه تلك الآيات وتحصل
به تلك المعادلات وينوه بشأنه فى القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل
عهد مثل ذلك فى الرؤى المنامية ؟ وهل ينكرون على أنفسهم ذلك
حتى ينكروه عليه صلى الله عليه وسلم ؟

لا شك أن منكرتهم ومجادلتهم ما كانت إلا لعلمهم أنه يدعى
أن ذلك كان يقظة لا نوما . فهذا محل الاستبعاد والاستنكار ، لأنه
غير معهود لديهم ولا هو فى متناول قدرتهم .

أما أحلام الأرواح فيجوز أن تقع لكل امرئ حتى المشركين
أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : « أفتمارونه على
ما يرى ؟ » . ويقرعهم على مجادلتهم بالباطل ويقسم أن صاحبهم
ما ضل وما غوى ويقول : إنه رأى ولا يليق أن تماروه فيما رآه .
هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول المنكر : إن رؤيا
يجبريل فى المرة الأولى التى جاءت فى الحديث الصحيح حين رآه
— صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم — بخراء على صورته التى
خلقه الله تعالى عليها قد سد الأفق ، كانت حلما أيضا ؟ أم يفرق
بينهما والقرآن لم يفرق . وجعل الرؤية فى المرة الأخرى عند
سدره المنتهى كالرؤية الأولى فى الأرض .

وهل يقال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين صادقة والأخرى
حلما ؟ وهل يحسن أن تجعل الضمير فى قوله تعالى : « ولقد رآه

تنزلة أخرى « لروح النبي دون جسده . وتغاير بينه وبين ما قبله
وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه - صلى الله تعالى عليه وعلى
آله وسلم - لا على روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن تقول :
إنها رؤيا منامية مع قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » ؟
وهل يقال في الرؤيا المنامية : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك
إلا فتنة للناس » (١) ؟ .

ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ؟ فإن كل إنسان يرى بروحه
ما شاء الله أن يرى من الكوثر . فما وجه الافتتان وما معناه ؟
هذا بعض كلام فضيلة الشيخ يوسف الدجوى . وقد قال
المرحوم مصطفى صادق الرافعي : إن المفسرين لم يلتفتوا إلى لفظ
« طغى » في قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » . فلو لم يكن
البصر مقيدا في جسد لطغى ولكن عدم طغيانه دليل على أنه كان
محكوما بإرادات الجسد .

وقال صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن تاج فيما قاله
عن الإسراء :

« إن بعض الناس قد حاول - بحسن نية - أن يقرب إلى
الأذهان مسألة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس بتلك السرعة
الخاطفة التي لم يعهدها أحد ، فقال : إن الإسراء بتلك السرعة
بين هاتين البلدتين المتباعدتين وقطع المسافات بينهما في فترة قصيرة
جدا إذا كان عجيبا غريبا قبل أن تستخدم قوة البحار وقبل أن
تستحدث الطائرات العادية والطائرات النفاثة والصواريخ الموجهة

فانه يجب أن يعتقد وأن يسلم به من غير تردد بعد ظهور تلك المخترعات وتلك المستحدثات ، فإن المسافات البعيدة التي يحتاج في قطعها راكب البعير أو الفرس إلى ثلاثين وأربعين يوما يمكن أن تقطعها الطائرات في بضع ساعات .

يريد أصحاب هذه المحاولات حسنو النية بهذا التقريب أن يضعوا واقعة الإسراء في المحل الذي لا غرابة فيه والذي يثبت التقدم العلمي وقوع نظائر له ومشابهات ، ليقتنعوا — بصحة ذلك الإسراء وإمكان حصوله — أصحاب العلوم المادية الذين لا يسلمون إلا بما تلمسه أيديهم ويقع تحت أبصارهم ويخضع لتجاربهم وقوانين علومهم في الحوادث والكائنات .

نية حسنة ومقاصد طيبة ولكنها تنطوى على شيء غير قليل من الغرارة وعدم التبصر في محاراة الماديين الذين لا يؤمنون بمعجزات . فإنه لا سبيل إلى التقريب أو الربط بين أمور هي من فعل الإنسان ، يقدر عليها بتفكيره واستنباطه ويتوصل إليها بأسباب مادية تخضع لقوانين علمية ومعارف إنسانية . وأمور أخرى لا دخل لقدرة الإنسان فيها وإنما هو مظهر كونها ومحل جريانها . يخلقها الله فيه ويجريها على يديه . كما قال تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (١) . فإن رمية واحدة بقبضة من الرمل أو الحصاء يصيب بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — عيون فريقي كبير من الأعداء في غزوة بدر — حتى يكون ذاك من أسباب هزيمتهم وانحذار جموعهم — ليس أمرا عاديا مما يكون

فى طاقة الإنسان . وإنما هو فعل الله الخالق لكل شىء القادر على كل شىء . القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .
إنه مهما تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ووجد من المخترعات ما يبلغ فى غرابته وطرافته أضعاف أضعاف ما كشف عنه العلم الحديث الآن . فإنه على كل حال يكون نوعا آخر غير نوع المعجزات التى يجربها الله على أيدى المختارين من رسله ، فإن هذه المعجزة ليست لها وسائل ومقدمات ولا أسباب وأدوات مما يدخل فى مقدور العباد .

أما المخترعات الإنسانية فإنها لابد أن تنبئ على قواعد وقوانين علمية ولا بد فيها من استخدام أجهزة وأدوات يتوصل فيها بالتحليل والتركيب وإحكام الصنع إلى ما يراد تكوينه من مخترعات .
فالطيران فى السماء باستخدام الأجهزة والآلات البخارية وغيرها أمر بديع وعمل إنسانى عجيب . ولكن له أسبابه ومقدماته العلمية التى يستطيع الطيران بها فى الجو كل من يعرفها ويعرف طريقة استخدامها فى ذلك .

أما الطيران من غير تلك الأسباب والمقدمات فليس فى مقدور أحد من الناس ، وعلى هذا الأساس يكون الفصل بين المعجزات وبين كل غريب عجيب من المبتكرات والمخترعات التى تنبئ على قوانين علمية وأفكار واستنباطات إنسانية .

إن فضيلة الشيخ يوسف الدجوى وفضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج يتحدثن عن الماديين الذين يحرمون حواسهم القاصرة عن اكتشاف ما فى الكون من عجائب . وأحب أن أوضح هنا آخر

ما وصل إليه العلم عن المادة التي يقدسها الماديون . فلم تعد المادة حقيقة بل صارت غيبا لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب . ومن سخرية القدر أن يصبح الماديون من المؤمنين بالغيب وإن كانوا يدرون أو لا يدرون !

إن الكشف الحديث عن طبيعة المادة الصلبة بوصفها مجرد أثر في رتبة اهتزاز معينة نفي عنها نهائيا قدرتها على خلق الحياة والمحافظة عليها . فبعد أن كانت المادة تصلح لتعليل الحياة أصبحت هي نفسها بحاجة إلى التعليل . وأصبح أقرب تعليل علمي للمادة هو تعليلها بالحياة . وهكذا انقلبت قضية التعليل رأسا على عقب وأصبح السبب نتيجة والنتيجة سببا .

أو بعبارة أخرى لقد تبين أن المادة لا تصلح لتعليل أى قانون من قوانين الحياة لأنها لبست أكثر من طاقة محبوسة . ولأن كل المادة تمثل رغم ضآلتها المفرطة في مجموع إلكترونايتها وبروتوناتها مجموعة شمسية كاملة متحركة لا يعوزها شيء . ولا تختلف عن أية مجموعة شمسية يعرفها علم الفلك إلا من ناحيتي الأحجام والأبعاد . فمن هو يا ترى ذلك الذي حبس ذرات المادة طبقا لهذا النظام البديع الذي يحير العقول ؟ ومتى وكيف جرى ذلك ؟ . هذا هو الوضع العلمي الآن لسؤال تعليل المادة . وإذا كان ثمة جواب فلن يكون إلا أن الحياة تعلل المادة أما المادة فلا تعلل الحياة بعد أن ثبت عجزها وقصورها حتي عن أن تعلل نفسها (١) . وأختم مناقشة أحاديث الإسماء بأن أقول إن الإسماء كان

(١) الانسان روح لا جسد . للدكتور رءوف عبيد .

يا لحسد والروح ما فى ذلك شك . وأن الله سبحانه وتعالى قد أسرى
بعبد له ليلاً من المسجد الحرام وأراد آياته الكبرى فى السماوات العلا .
وأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد رأى سدره المنتهى وقد
غشيها نور الله ، وقد أوحى الله إليه الصلوات الخمس ، وقد
انتهت الرحلة العجيبة عند بيت المقدس ولو كانت قد تجاوزت
المسجد الأقصى لذكر ذلك القرآن الكريم .

وأعتقد أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يكثر من الحديث
عن الإسراء وإن كان القصص قد رووا أحاديث عنه جمعها الذهبي
فى مجلدين ، لأن العجائب التى رآها كانت فوق تصور رجال عصره
بل لعلها تكون فوق تصور الناس فى أى عصر . فانتساع الكون الذى
زاره غير محدود أو محدود ولكن قطره يقاس ببلايين السنين الضوئية .
إن الإسراء معجزة تفوق تصور عقول البشر فى كل عصر .
فلا الطائرات ولا الصواريخ ولا أى من المخترعات الحديثة أو
مخترعات المستقبل حتى يرث الله الأرض ومن عليها تستطيع أن
تعطينا صورة صحيحة عن إسراء الله بعبد له ليلاً من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى .

أما ما يروى من أحاديث عن الإسراء فهى من اختراع القصص ،
وفى رأي أن أغلب هذه الأحاديث نتاج عقول تصورت ملكوت
الله على قدر علمها . وهى أول قصة أدبية إسلامية استوحيت من
آيات الإسراء والنجم . وقد اشترك فى تأليفها أكثر من مؤلف .
وكانت مصدر إلهام أبى العلاء المعرى لما كتب رسالة الغفران . وكانت
رسالة الغفران وحن دانتى عندما كتب الكوميديا الإلهية «جحيم دانتي» .

القاهرة فى ١٩٦٨/٧/٧

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
الاستيعاب
جمهرة نسب قريش
السيرة النبوية
الشفافى تعريف حقوق المصطفى
الانسان روح لا جسد
نهاية الارب
بلوغ الارب
احياء علوم الدين
حسان بن ثابت
وفاء الوفا
الخنساء
ايران فى عهد الساسانيين
اسباب النزول
ابناء ابي بكر
السيرة الحلبية
الحضارة البيزنطية
شرح نهج البلاغة
تاريخ ابن خلدون
الاغانى
مختصر دراسة التاريخ
- لابن عبد البر
للزبير بن بكار
لابن هشام
للقاضى عياض
للدكتور رءوف عبيد
للنويزى
للألوسى
للغزالى
للدكتور سيد حنفى حسنين
للسمهودى
للدكتور محمد جابر عبدالعال الحينى
لكريستينس - ترجمة د . يحيى
الخشاب
للنيسابورى
للمؤلف
لعلى برهان الدين الحلبي
لستيفن رنسيما - ترجمة جاويد
لابن ابي الحديد
لابى الفرج الاصفهاني
لارنولد توينبى (ترجمة نؤاد محمد شبل)

للمؤلف

الطبعة الأولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
إبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبي		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المتنق	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

الطبعة الاولى

يناير سنة ١٩٥٨	م العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	وكان مساء
يوليو سنة ١٩٥٨	اذرع وسيقان
سنة ١٩٥٩	ارملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	الحصاد
سنة ١٩٦١	القصة من خلال تجاربى الذاتية
اكتوبر سنة ١٩٦٢	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	السهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧	وعد الله واسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	عمرو بن عبد العزيز
اكتوبر سنة ١٩٧٢	الحفيد
فبراير سنة ١٩٧٥	هذه حيائى
ابريل سنة ١٩٧٥	مذكرات سينمائية

القَصَصُ الدِّيْنِي

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الانبياء
في ٢٤ .	قصص البنية
في ٢٠ .	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا

مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

فِي عَشْرِينَ جُزْءًا

تَالِيفُ

عَبْدُ الْحَمِيدِ جَوْدَةُ الْبَحَارِ

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

في ٢٠ جزءا

- | | |
|-------------|---------------------------|
| اكتوبر ١٩٦٥ | ١ - ابراهيم ابو الانبياء |
| مارس ١٩٦٦ | ٢ - هاجر المصرية ام العرب |
| سبتمبر ١٩٦٦ | ٣ - بنو اسماعيل |
| فبراير ١٩٦٧ | ٤ - العدنانيون |
| مايو ١٩٦٧ | ٥ - قريش |
| يوليو ١٩٦٧ | ٦ - مولد الرسول |
| اكتوبر ١٩٦٧ | ٧ - اليتيم |
| يناير ١٩٦٨ | ٨ - خديجة بنت خويلد |
| مارس ١٩٦٨ | ٩ - دعوة ابراهيم |
| يونية ١٩٦٨ | ١٠ - عام الحزن |
| سبتمبر ١٩٦٨ | ١١ - الهجرة |
| نوفبر ١٩٦٨ | ١٢ - غزوة بدر |
| يناير ١٩٦٩ | ١٣ - غزوة احد |
| مايو ١٩٦٩ | ١٤ - غزوة الخندق |
| يونيه ١٩٦٩ | ١٥ - صلح الحديبية |
| نوفبر ١٩٦٩ | ١٦ - فتح مكة |
| فبراير ١٩٧٠ | ١٧ - غزوة تبوك |
| مايو ١٩٧٠ | ١٨ - عام الوفود |
| نوفبر ١٩٧٠ | ١٩ - حجة الوداع |
| ديسمبر ١٩٧٠ | ٢٠ - وفاه الرسول |

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدق

رقم الايداع ٣٩٦٩ / ٧٧
الترقيم الدولي ٩ - ١٦٠ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
مطبوعات جودة النشر وشركاء